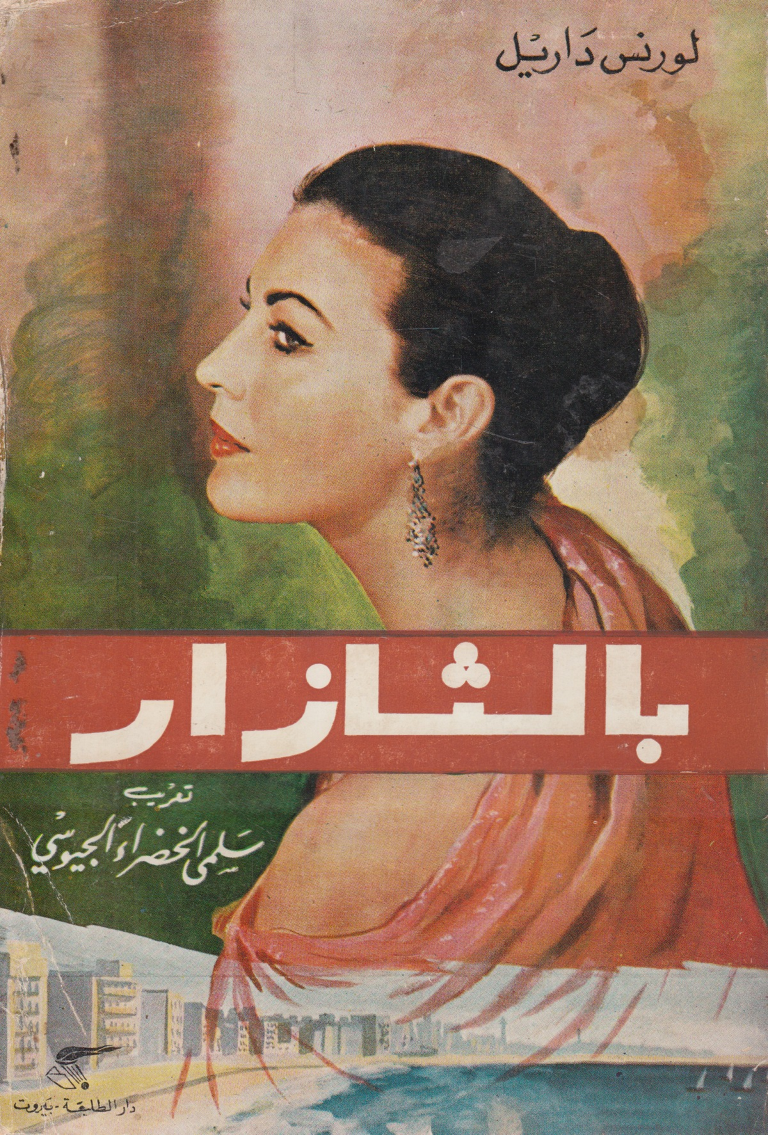

لورنس داريل
بالثازار
تعريب
سلمى الخضراء الجيوسي
دار الطليعة - بيروت

بالتازار

الرواية الثانية من «رباعية الإسكندرية»

BAL THAZAR

BY

LAWRENCE DURREL

FABER And FABER

(24 Russell Square - London)

الطبعة الاولى
تشرين الثاني ١٩٦٢

لورنس داريل

بالتازار

الرواية الثانية من «رباعية» الاسكندرية

ترجمتها عن الانكليزية

سلمى الخضراء الجيوسي

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت

إلى أمي

هذه الذكريات عن مدينة

لا تُنسى

ملحوظة

هذه الرواية هي الثانية من مجموعة روايات ، وهي شقيقة « بلجوستين » لا تتمة او تابعة لها . اما شخصيات الرواية والاوضاع التي تصفها فهي جميعها خيالية ، وكذلك شخصية الراوي . وليست المدينة بأكثر واقعية منها جميعها :

ان الادب الحديث لا يقدّم لنا عناصر موحّدة في العمل الفني ، ولذا فقد لجأت الى العلم ، واني الآن بصدد اتمـــام رواية ذات اربعة سطوح صممت بناءها على الفرضية النسبية .

ان ثلاثة أبعاد مكانية وبعداً زمنياً واحداً تؤلف جميعها ، مختلطة منسجمة ، فكرة الاستمرارية . والروايات الاربع تتبع نفس هذا المخطط .

غير ان حوادث الاجزاء الثلاثة الاولى سوف تمتد وتتكشف مكانياً (ولهذا فقد استعملت كلمة « شقيقة » لا « تابعة ») ولن تكون مرتبطة بتركيب متسلسل . انها تتداخل بعضها مع البعض الآخر وتتواشج في علاقة مكانية صرفة . اما الزمن فيظل واحداً فيها جميعها . والجزء الرابع وحده سيمثل الزمن ويكون تابعاً حقيقياً .

وان علاقة الذات بالموضوع مهمة جداً للنسبية حتى انني حاولت ان اعــالج الرواية من الناحيتين الذاتية والموضوعية : فالجزء الثالث « ماونت اوليف » روايـة طبيعية مباشرة يصبح فيها الراوي في كل من « جوستين » و « بالثازار » موضوعاً أي شخصية :

هذه ليست طريقة بروست او جويس ــ فانهما يمثلان في رأيي نظرية الديمومة البرجسونية ــ لا فكرة « المكان والزمـــان » وعلاقتهما :

امـــا الموضوع الرئيسي في الكتاب فـــانه يبحث في مناحي الحب الحديث : قد تبدو هذه الاعتبارات غير متواضعة أو فخمة قليلاً : ولكنها جديرة بالتجربة تستحق ان نحاولها لنرى اذا كان بالامكان ان نكتشف بناء عضوياً يمكن للانسان ان يسميه «كلاسيكياً » ــ بالنسبة لزمن معين : حتى ولو كانت النتيجة قصة مبنية على العلم بالمعنى الصحيح .

أسكونا ، ١٩٥٧ ل . د :

المرآة ترى الرجل جميلاً ، والمرآة تحب الرجل ؛ ومرآة اخرى ترى الرجل مخيفاً وتكرهه ؛ وانه الكائن ذاته الذي يبدو خياله في كل منهما .

« جوستين »
(د. أ. ف. دي ساد)

نعم ، اننا نلح على تلك التفاصيل : انك تغلفها بحشمة تزيل حد فظاعتها جميعه ، وهنالك يكمن ما هو مفيد لمن يرجو ان يصبح خبيراً بالانسان ؛ انك لا تدرك كم يمكن لهذه اللوحات ان تساعد على تنمية الروح الانسانية ؛ لعلنا لم نزل مكبلين بالجهل فيما يتعلق بهذا الفرع من فروع المعرفة بسبب هذا الكبت الغبي الذي يقيد به انفسهم اولئك الذين يرغبون في الكتابة عن هذه الامور . ان نفوسهم معمورة بالمخاوف المضحكة ولذا فانهم لا يبحثون الا في الأمور الصبيانية التي يعرفها كل احمق في العالم ، ولا يجسرون على ان يمدوا يداً جريئة الى القلب الانساني ليكشفوا عن خصائصه العملاقة لانظارنا :

« جوستين »
(د.أ.ف.دي ساد)

القِسمُ الأول

١

تناغم اللون في المناظر الطبيعية : من البني الى البرونزي : سماء تنحدر بعنف الى الافق ، غيوم منخفضة ، ارض لؤلؤية ينعكس عليها لون المحار والبنفسج : غبار الصحراء الكثيف الهائج : قبور الأنبياء كأنها من التنك والقصدير اذ تلتمع عند الغروب قرب البحيرة العتيقة : فوالق رمال البحيرة الضخمة تبدو من الجو كأنها آثار ارتفاع المياه ؛ الاخضر والليموني يتدرّجان الى البرونزي المحمر ، ثم يبدو شراع وحيد بلون الخوخ الداكن ، رطب ، مرتجف : عروس البحر ذات الجناح المصمّغ . لقد استلقت تابوزيريس ميّتة بين عمدانها ومناراتها المتداعية ، واختفى صائدو الحربات : ومريوط تقبع تحت سماء من الليلكي الحار :

الصيف : رمال صفراء لامعة ، سماء رخامية حارة :
الخريف : غيوم رمادية متورمة كالكدمات في الجسم :
الشتاء : الثلج المتجمد ، الرمـــال الباردة .
لوحات السماء الصافية وهي تلتمع بأحجار الميكة :
حشائش الدلتا المغسولة .
مناظر رائعة للسماء المرصعة بالنجوم :

والربيع ؟ آه ! لا ربيع هناك في الدلتا ، ولا شعور بالانتعاش وبتجدد الاشياء . ان الانسان يخرج من الشتاء ليغوص حالاً في : تمثال شمعي لصيف تخنق حرارته الانفاس . غير انه على الاقل هنا ، في الاسكندرية ، تنقذنا انفاس البحر من ثقل فراغ الصيف الساكن ، اذ تزحف الينا من بين السفن الحربية فوق حاجز الميناء لكي تداعب المظلات المخططة التي تجلل ابواب المقاهي على الكورنيش الكبير . ما كنت لـــ.....

* * *

ان المدينة ، وهي نصْف متخيّلة (مع انها حقيقية كل الحقيقة) تبتدىء وتنتهي فينا ، جذورها تمتد وتسكن في ذاكرتنا . لماذا أراني اعود اليها ليلة بعد ليلة اذ اجلس هنا لاكتب – قريباً من نار خشب الخروب ، بينما تمسك رياح بحر ايجة بهذا البيت على الجزيرة ، تمسك به ثم تفلته وتحني سرواته كأنها الاقواس ؟ الم اقل عن الاسكندرية ما يكفي ؟ هل ستصيبني العدوى مرة ثانية ، عدوى احلامها وذكرى سكانها ؟ احلام كنت اظنها قد اودعت آمنة راسخة على الورق وعهد بها الى معاقل الذاكرة الحصينة ! انك ستعتقد بأني ابالغ في التمسك باهداب الذكرى ، ولكن هذا ليس حقيقياً . فإن عاملاً عرضياً واحداً قد بدل كل شيء وجعلني انكص عائداً على مسالك الدرب . ذكرى تلمح نفسها في مرآة .

* * *

جوستين ، ميليسا ، كليا .. لقد كنا قلة . جماعة صغيرة في الحقيقة – لعلك تعتقد بأنه من السهل الانتهاء من وصفهم جميعهم في كتاب واحد ، اليس كذلك ؟ وهذا ما كنت انا خليقاً بأن اعتقده ، وهذا ما اعتقدته بالفعل . لقد شتتنا الزمن والظروف الآن ، وانفرط عقدنا الى الابد ..

كنت قد وضعت نصب عيني ان احييهم بالكلمات ، واعيد ترسيخهم في الذاكرة ، وان اعطي كل واحد منهم مكانته التي احتلها في تلك الأيام . كان هذا أنانية مني . وعندما انهيت الكتابة عنهم ، شعرت بأني قد اقفلت تاريخ أفعالنا ، بأني قد ادرت مفتاحاً في قفل بيت الدمى ذاك . ولا شك اني رأيت حبيباتي وأصدقائي ، لا كبشر احياء وانما كانعكاسات ملوّنة للعقل ، وقد سكنوا الآن في اوراقي لا في المدينة ، كأنهم شخوص على قطعة تطريز . واصبح من الصعب علي ان اكسوهم بالواقع العادي ، هم والكلمات التي استعملتها في وصفهم . فما الذي اعادني الى نفسي ؟

ولكن لكي أتمكن من الاستمرار عليّ ان اعود الى الوراء : غير ان هذا لا يعني اني كتبت عنهم شيئاً غير حقيقي . فما ابعد هذا عن الواقع ! ولكنني عندما كتبت لم تكن الحقائق جميعها في متناول يدي ، وكانت الصورة التي رسمتها صورة موقتة — اشبه بصورة حضارة مندثرة استشفّها الانسان من بعض الزهريات المكسورة ، ومن لوح منقوش ، وتميمة ، وبعض العظام الانسانية ، وقناع ذهبي للموت كشرت فيه ابتسامة .

* * *

ويكتب بورسواردن في مكان ما فيقول : « اننا نعيش على اوهام منتقاة ، ونظرتنا الى الواقع انما تكيفها وضعيتنا في المكان والزمان — لا شخصيتنا كما نود نحن ان نعتقد . وهكذا فإن كل تفسير للواقع انما يرتكز على وضعية فريدة ، وخطوتان الى الغرب او الى الشرق خليقتان بأن تغيّرا الصورة جميعها » . او شيئاً من هذا القبيل ..

وهكذا بالنسبة للشخصية الانسانية ، حقيقية كانت ام مخترعة ، فإنها لا وجود لها . ان كل نفس انما هي تل النمل الذي يضم قابليات متناقضة . والشخصية ، كشيء له سجايا مقررة ، انما هي وهم — ولكنه وهم ضروري

إذا كان لنا أن نحب !.

اما عن الاشياء التي تظل ثابتة .: فباستطاعتنا ان نتأكد مثلاً من قبلة ميليسا الخجولة (قبلة مبتدىء في الحب اشبه بشكل بدائي للطباعة)، او عبوس جوستين، عبوسها الذي كان يرمي ظلاله القاتمة على تينكَ العينين الداكنتين المتأججتين ـ محجري ابي الهول عند الظهيرة. يقول بورسواردن «وفي النهاية سيجد الانسان ان كل شيء يصدق عن كل انسان؛ والقديس والشرير شريكان»: إنه على حق.

اني احاول كل جهدي ان اكون واقعياً..

* * *

كتب بالثازار في كتابه الاخير لي: «اني افكر فيك كثيراً وتفكيري لا يخلو من روح دعابة كئيبة. لقد اعتزلت في جزيرتك وفي جعبتك كما تعتقد جميع الحقائق عنا وعن حياتنا. ولا شك انك تحاول ان تضع احكامك علينا على الورق كما يفعل الكتّاب. ليتني استطيع أن ارى النتيجة: لا شك انها ستقصر كثيراً دون الحقائق: اعني الحقائق التي استطيع انا ان اخبرك بها عنا جميعنا ـ وربما عن نفسك انت ايضاً؛ او الحقائق التي تستطيع كليا ان تخبرك بها (انها في باريس الآن وقد توقفت عن الكتابة الي). اني اتصورك، ايها الحكيم، وانت منكب على كتاب (Moeurs)، وعلى مذكرات كل من جوستين ونسيم الخ متخيلاً ان الحقيقة كامنة فيها جميعها. خطأ! خطأ! ان المذكرات هي آخر مكان تلجأ اليه اذا كنت تود ان تبحث عن الحقيقة التي تتعلق بشخص ما. فليس هناك من يجرؤ على ان يؤدي اعترافه النهائي لنفسه على الورق: على الاقل ليس فيما يتعلق بالحب: فهل تعرف من كانت جوستين تحب في الحقيقة؟ لقد كنت تعتقد انها كانت تحبك انت، اليس كذلك؟ اعترف!»

وكان جوابي الوحيد له هو انني ارسلت اليه رزمة الاوراق التي نمت بكل تلك المشقة تحت قلمي البطيء والتي اسميتها باسمها دونما سبب يدعو الى ذلك — فقد كان بامكاني تسميتها «دفاتر» (Cahiers) مثلاً. ومرّت بعد ذلك ستة شهور — صمتٌ مبارك بلا شك لانه كان يشير الى ان ناقدي قد اقتنع فصمت.

ولا استطيع ان اقول باني نسيت المدينة، ولكني تركت ذكراي عنها تنام. ومع ذلك فقد كانت بلا ريب دائماً هناك في ذاكرتي، كما ستظل دائماً وابداً فيها، وقد علقت مترددة بالعقل كالسراب الذي يراه المسافرون. لقد وصف بورسواردن الظاهرة بالكلمات التالية:

«كنا لم نزل في البحر على بعد ساعتين أو ثلاث ساعات قبل ان يكون ممكناً لنا ان نرى البر، واذا بصديقي يصيح فجأة ويشير الى الافق. ورأينا خيالاً سرابياً كاملاً للمدينة، معكوساً في السماء، مُشعاً ومرتجفاً، كأنه قد رسم على حرير مغبر اللون. ومع ذلك فقد بدا لنا في اجمل تفاصيله. وتمكنت من ان اتعرف على ملامحه في ذاكرتي بوضوح: قصر رأس التين، جامع النبي دانيال، وهكذا. لقد كانت الصورة تبهر النفس كأنها لوحة من روائع الرسّامين وقد رسمت بالندى الصافي. وبقيت معلقة هناك في السماء مدة طويلة، لعلها خمس وعشرون دقيقة، قبل أن تذوب ببطء في ضباب الافق. وبعد ساعة ظهرت المدينة الحقيقية وقد راحت تنمو من نقطة صغيرة لتصل الى كبر صورتها السرابية.»

* * *

كان فصلا الشتاء او فصوله الثلاثة التي امضيناها هنا في هذه الجزيرة فصولاً موحشة — أشتية عبوس قاسية تجتاحها الرياح، واصياف حارة. ان الطفلة لحسن الحظ اصغر من أن تشعر بالحاجة الى الكتب او الحديث

كما اشعر انا . إنها سعيدة ونشيطة .

والآن في الربيع تجيء الايام الطويلة المشبعة بالسكينة ، تطل بلا انواء ولا حركة وقد امتلأت بالانذارات . ويروّض البحر نفسه ويتربص مصغياً . وعمّا قليل سوف تجلب الزيزان موسيقاها المقرقعة معها ، خلفية لناي الراعي بين الصخور . ونحن وحدنا هنا ولا رفيق لنا الا ابوالابرص والسلحفاة بدبيبها البطيء .

ومن العالم الخارجي يزورنا بانتظام زائر وحيد — مركب ازمير الذي يمر حول اكمتنا مبحراً نحو الجنوب، دائماً بنفس السرعة . ودائماً في نفس الساعة ، بعد الغروب مباشرة . في الشتاء تحجبه عن روئيتنا الامواج الهائجة والرياح — اما الآن فاني اجلس وانتظره . انك تسمع في البدء هدير المحركات الخفيف ؛ ثم ينزلق هذا المخلوق حول الرأس شاقاً طريقه في البحر خلال الزبد الحريري وقد أضاء بأنوار ساطعة في الظلام الطحلبي الناعم لليل البحر الايجي — قطعة مكثفة في الظلام ، ولكن بلا خطوط تحددها ، كأنها غيمة متحركة من اليراع المضيء . انه يسير بسرعة ويختفي بمثل لمح البصر حول الرأس الآخر ، وقد يترك وراءه مقطوعة مبتورة من أغنية شعبية ، او قشرة برتقال اجدها في اليوم التالي وقد جرفها البحر على الشاطىء الطويل المليء بالاصداف حيث أستحم مع الطفلة .

عريشة الدفلى الصغيرة تحت انحدار السهول — هذا هو المكان الذي اكتب فيه . فبعد ان تنام الطفلة اجلس هنا الى الطاولة التي تركت مياه البحر آثارها عليها ، وانا انتظر هذا الزائر ، حريصاً على ان لا اشعل مصباح النفط قبل مروره . هذا هو اليوم الوحيد من أيام الاسبوع الذي أعرف له اسماً هنا — انه يوم الخميس . لعل هذا يبدو مضحكاً ، ولكني ، في هذه الجزيرة الخالية من كل تنوع وتغيير ، اتطلع الى الزيارة الاسبوعية كما يتطلع الصبي الصغير الى حفلة مدرسية . انني اعرف ان المركب قد يحمل معه رسائل لي ، رسائل عليّ ان انتظر وصولها اربعاً وعشرين ساعة ، غير

اني لا أرى أبداً تلك السفينة الصغيرة تغيب عن الانظار بدون اسى . وبعد ان تمر وتختفي اشعل المصباح وأنا اتنهد ، ثم أعود الى اوراقي . انني اكتب ببطء وبعذاب شديد . قال لي بورسواردن مرة اذ كان يحدثني عن الكتابة بأن الالم الذي يرافق عملية الخلق انما يعود كليّاً عند الفنانين الى الخوف من الجنون . « اضغط ألمك قليلاً وقل لنفسك انك لا تبالي مطلقاً اذا ما جننت بالفعل وسوف ترى ان الكلمات تجيئك بسرعة اكبر ، انك ستخترق الحاجز » . (لست أعرف مبلغ صدق هذا كله . ولكن المال الذي تركه لي قد اعانني معونة كبيرة ، ولم يزل معي بعض الجنيهات تقف بيني وبين شيطاني الدّين والعمل .)

انني اصف هذا الطارىء الذي يطرأ علينا مرة في الاسبوع بشيء من التفصيل ، لانه حدث ذات مساء من امسيات شهر حزيران ان بالثازار اقحم نفسه على هذه اللوحة التي رسمتها بفجائية ادهشتني –كنت على وشك ان اكتب « اصمتّني » ، اذ ليس هناك من يكلمه الانسان هنا . ففي هذا المساء حدث شيء اشبه بالمعجزة . ذلك ان المركب الصغير ، بدل ان يختفي كعادته ، عرج فجأة في دائرة مئة وخمسين درجة ودخل الى هور المياه ليقبع في فيلجة مخمليّة من ضيائه : وليرمي الى قلب هذه البركة الذهبية التي كوّنها ، سلاسلَ مرساته الطويلة البطيئة النزول كأنها تحمل رمزاً لبحث الانسان عن الحقيقة . لقد كان منظراً مثيراً لمن كان مثلي ، انساناً سجين الروح كجميع الكتاب – انساناً اصبح دون ادنى ريب اشبه بسفينة في قنينة لا تبحر ابداً – وراقبت السفينة كما لا بدّ انّ هندياً راقب يوماً اول سفينة للرجل الابيض تلمس شواطىء العالم الجديد .

وقطع السكون والظلام الآن صوت المجاذيف ، ثم ، بعد دهر من الزمن ، صوت الارجل المنتعلة وهي تدوس الحصى . واطلق صوت اجش بعض التعليمات . ثم ران السكون . واذ اشعلت القنديل لاخلص نفسي من التأثير الطاغي الذي خلفه هذا التغير في المسلك المألوف ، تجسّم امام

ناظري بين اغصان الآس وجه صديقي ، ذلك الوجه الرصين الاسمر وقد بدا اشبه بطيف ماعزيّ من العالم السفلي . وحبس كل منا انفاسه ووقفنا نبتسم الواحد للآخر في الضوء الاصفر : خصلات الشعر الاشورية الداكنة ، ولحية الآله بان . قال بالثازار ضاحكاً : « لا ، انا حقيقي ! » وتعانقنا بضراوة . بالثازار !

ان البحر المتوسط بحر صغير جداً ؛ ولكن عظمة تاريخه الطويل تجعلنا نتخيله اكبر مما هو . ويقيناً ان الاسكندرية — المدينة الحقيقية وتلك المتخيلة — كانت تقبع على بعد بضعة مئات من الاميال البحرية الى الجنوب .

قال بالثازار : « انني في طريقي الى ازمير ، ومن هناك كنت سأرسل هذا اليك بالبريد » . ووضع على الطاولة القديمة الكثيرة الخدوش والندوب ، رزمة المخطوطة الكبيرة التي كنت قد ارسلتها اليه — اوراقاً امتلأت الآن بكمية ضخمة من الملاحظات المعترضة بين السطور : عبارات وفقرات بأكملها وعلامات استفهام . وجلس بالثازار امامي محاطاً بذلك الجو الابليسي الذي ميزه ، وقال بصوت منخفض متردد :

« لقد جادلت نفسي طويلاً جداً فيما اذا كان من الخير ان اخبرك ببعض هذه الأمور التي دونتها هنا . كان هذا يبدو حماقة في بعض الاحيان ، وسلاطة مني . فبعد كل شيء ، هل كان اهتمامك ينحصر فينا كبشر حقيقيين ام (كشخصيات) في رواية ؟ لم اكن اعرف الجواب على هذا وما زلت اجهله . ان هذه الصفحات قد تخسرني صداقتك دون ان تضيف شيئا مهماً الى معرفتك. لقد كنت ترسم المدينة لمسة بعد لمسة فوق سطح مقوّس — فهل كانت غايتك الشعر أم الحقائق ؟ اذا كانت غايتك الحقائق فإن لك الحق في أن تعرف بعض الاشياء » .

ولم يكن بعد قد فسر سر ظهوره العجيب أمامي ، فقد كان شديد اللهفة على تفسير معنى زيارته الرئيسي . ولكنه اخبرني الآن وقد لاحظ تعجبي لغمامة اليراع المضيء في هذا الخليج الذي اعتاد ان يقبع مهجوراً . وابتسم :

« ستتأخر السفينة بضع ساعات لسبب عطل في المحركات . انها احدى سفن نسيم ؛ وقبطانها هاشم كحلي صديق قديم : لعلك تذكره ؟ لا ؟ حسناً . لقد قدّرت من اوصافك مكان اقامتك على وجه التقريب ؛ ولكن ان انزل هكذا على باب بيتك ، يجب أن اعترف ان هذا قد ادهشني كثيراً ! » لقد كان رائعاً ان اسمع ضحكته مرة ثانية .

ولكني لم اكن اصغي اليه ، فإن كلماته قد اوقعتني في هيجان شديد ، في رغبة دافعة الى ان اقرأ ملاحظاته ، وان اراجع ، لا كتابي (فذاك لم يشكل لي أدنى اهمية لانه لن ينشر) ، ولكن نظرتي الى المدينة وسكانها . فإن الاسكندرية التي تسكن خيالي الخاص قد اصبحت ، في هذا الانفراد الموحش ، عزيزة عليّ كأنها نوع من فلسفة التأمل الباطنيّ يكادُ يصبح هوساً . وقد افعمت العواطف نفسي حتى انني لم أعرف ما اقوله له . قلت : « ابق معنا يا بالثازار — ابق معنا مدة من الزمن .. »

فقال وهو يربت على الاوراق امامه :

« سنرحل بعد ساعتين ، هذه الاوراق قد تمنحك الرؤى والحمى . »

فقلت : « عظيم — انني لا أطلب شيئاً افضل من هذا . »

فأجاب : « نحن لم نزل بشراً حقيقيين ؛ مهما حاولت انت ان تفعل بنا — اولئك منا الذين لم يزالوا احياء . اما ميليسا ، بورسواردن — فإنهما لا يستطيعان الاجابة لانهما ميتان . على الاقل هذا ما يعتقده الانسان » .

« هذا ما يعتقده الانسان . ان افضل الاجوبة انما تجيء دائماً من وراء القـــبر » .

وجلسنا ، وبدأنا نتحدث عن الماضي ، ولكن بشيء من الصعوبة . كان قد تناول عشاءه في السفينة فلم يكن هنالك ما استطيع ان اقدمه إليه إلاّ كأس من خمر الجزيرة الجيدة . وراح يرتشفها ببطء . بعد ذلك بمدة طلب ان يرى ابنة ميليسا . وقدته خلال اشجار الدفلى المتكاثفة إلى مكان نستطيع منه ان ننظر الى الغرفة الكبيرة التي تضيئها نيران الموقد حيث نامت ، جميلة

ورصينة تقاسيم الوجه ، وقد وضعت ابهامها في فمها . ولانت نظرة بالثازار الداكنة القاسية اذ راح يرقبها وهي تتنفس بخفة . وقال بصوت منخفض : « في يوم من الايام سيشتاق نسيم الى رؤيتها . في يوم قريب جداً ــ تذكر ذلك . لقد بدأ يتحدث عنها ، ويشعر بالفضول نحوها . وباقترابه من سني الهرم سيشعر بأنه محتاج الى مساندتها ــ انتبه الى كلماتي هذه » . وردد باليونانية هذه العبارة : « في البدء يتسلق الصغار دعائم الكبار كما تتسلق الدوالي ، ويشعر الكبار بأصابع الصغار تتشبث بهم ، طرية وناعمة ؛ ثم ينحدر الكبار على اجسام الشباب الجميلة المساندة زاحفين الى موتهم الأكيد . » ولم اقل شيئاً . لقد كانت الغرفة نفسها هي التي تتنفس الآن ، لا أجسامنا .

قال بالثازار : « لقد كنتَ وحيداً هنا ، ومستوحشاً » .

« ولكنها وحشة مفعمة بالروعة يا بالثازار ، وبالرغبة الأكيدة » .

« نعم ، انني اغبطك بحق . »

ثم رأى صورة جوستين غير المكتملة التي اعطتني اياها كليا ايام كنت اعيش حياة غير هذه الحياة ، فقال :

« تلك الصورة التي قوطعت بقبلة ، ما اجمل ان يراها الانسان مرة ثانية ! » وابتسم : « ان رؤيتها اشبه بسماع نغم محبوب ومألوف يقود المرء نحو عاطفة يستطيع الانسان ان يستعيدها دائماً وابداً » . لم أقل شيئاً . لم أجرؤ .

والتفت إلي . « وكليا ؟ » قالها اخيراً بصوت من يخاطب صدى من الاصداء ويسائله . قلت : « لم أتسلم منها شيئاً مدة سنتين او أكثر . ان الزمن لا حساب له هنا . انني اتوقع ان تكون قد تزوجت وذهبت الى بلدة اخرى ، ورزقت اولاداً وشهرة كرسامة ... كل ما يتمناه المرء لها . »

فنظر إليّ نظرة غريبة وهز برأسه قائلاً « لا » . كان هذا كل جوابه .

كان الوقت بعد منتصف الليل بكثير عندما ناداه البحارة من غابات الزيتون الداكنة . وسرت أشيعه حتى الشاطىء وأنا اشعر بالحزن لذهابه

بكل هذه السرعة . كان هناك قارب ينتظره على حافة المياه وقد وقف فيه احد البحارة ممسكاً بالمجذاف . وقال له شيئاً بالعربية .

كانت مياه البحر الربيعية دافئة مغرية بدفئها بعد ان سطعت عليها الشمس طول النهار . واذ قفز بالثازار الى القارب استولت علي نزوة عنيفة ان اسبح معه حتى السفينة التي كانت راسية بانتظاره على بعد مائتي ياردة من الشاطىء . وهذا ما فعلت ، ثم تلكأت في الماء لأرقبه يتسلق السلم ولأرقب البحارة يجذبون القارب الى اعلى . وناداني : « اياك ان تشتبك بلولب السفينة — ارجع قبل ان تبدأ المحركات عملها » . « سأفعل » . « ولكن انتظر — قبل ان تذهب — » وركض نحو احدى الغرف ثم عاد ورمى شيئاً في الماء قربي . واحدث ما رماه صوتاً ناعماً في الماء وقال : « وردة من الاسكندرية ، من المدينة التي تمنح عشاقها كل شيء الا السعادة . » وضحك : « اعطها للطفلة » .

« بالثازار ! الوداع ! »

« اكتب لي اذا كنت تجرؤ ! »

ولوحت له وانا محاط ، كالعنكبوت ، بشباك الاضواء المتقاطعة ، قبل ان اتوجه نحو تلك البرك الذهبية التي لم تزل منتشرة بين الشاطىء وبيني . ولوّح لي بدوره مودعاً .

ووضعت الوردة الثمينة بين اسناني وسبحت عائداً الى حيث تركت ثيابي على الشاطىء المليء بالاصداف ، وأنا احدث نفسي .

وهناك ، على الطاولة في ضوء المصباح الاصفر ، كانت رزمة الاوراق المليئة بالملاحظات حول « جوستين » كما اسميتها . كانت العبارات والنجوم والاشارات تتداخل بين سطورها ، وتنقشها الاسئلة والاجوبة بألوان مختلفة من الحبر وقد كتبت بالاحرف المتفرقة . لقد بدت لي وقتئذ كأنها ترمز الى الواقع الأكيد الذي عشناه مشتركين — لوح تراكمت عليه طبقات النقوش ، تركنا عليه آثارنا الشخصية المختلفة ، طبقة فطبقة .

هل اصبح محتوماً عليّ ان ارى كل شيء الآن بأعين جديدة؟ ان اعوّد نفسي على الحقائق التي أضافها بالثازار؟ انه من المحال ان استطيع وصف العاطفة التي اعترتني وأنا اقرأ كلماته — كان يكتب بالتفصيل احياناً وأحياناً باختصار شديد — كما حدث يوم قرأت القائمة التي اوردها تحت هذا العنوان: «بعض المعلومات المضللة وسوء الفهم». حيث قال ببرود: رقم ٤. «انك تعتقد ان جوستين كانت تحبك. اذا كانت (تحب) احداً فقد كان بورسواردن. (ماذا يعني هذا؟) لقد اضطرت الى استعمالك كأحبولة لكي تحميه من غيرة نسيم الذي تزوجته. اما بورسواردن نفسه فإنه لم يكن يعبأ بها مطلقاً. وهذا هو منطق الحب العجيب!»

وارتفعت المدينة مرة ثانية في خيالي عند البحيرة الخضراء واعطاف الصخور الرملية التي قبعت على حدود الصحراء. ورأيت بعين خيالي فنون العشق، ومكائد الشهوة والرغبات، ورأيت الخير والشر، والفضيلة والاهواء، والحب والقتل، تحوم جميعها متخفية بعتمة الزوايا من شوارع الاسكندرية وساحاتها وفي مواخيرها وقاعاتها، تحوم كمجموعة كبيرة من ثعابين الماء في وحول المكائد المتضاربة.

ولم اترك رزمة الاوراق الساحرة بكل تعليقاتها حول حياتي الحقيقية (الداخلية) الا قبيل الفجر، وارتميت كالسكران على فراشي ورأسي يؤلمني، وقد امتلأ بأصداء المدينة — المدينة الوحيدة الباقية في العالم التي تلتقي فيها جميع الاجناس والعادات وتتزاوج، وتتشابك فيها مصائر البشر الداخلية. كان بإمكاني الآن ان اسمع وانا مستسلم للنعاس صوت صديقي الجاف وهو يعيد كلماته ويعيد: «كم يهمك ان تعرف، كم يهمك ان تعرف.» واجبته في نومي: «يجب أن أعرف كل شيء لكي أتحرر من المدينة اخيراً.»

* * *

«عندما تقطف زهرة، يعود الغصن الى مكانه. هذا لا ينطبق على

عواطف القلب . » هذا ما قالته كليا لبالثازار ذات مرة .

* * *

وهكذا فقد دفعت شيئاً فشيئاً بالرغم مني الى نقطة البدء . كنت كرجل قيل له في نهاية رحلة شاقة هائلة بأنه كان يسير في نومه . قال لي بالثازار يوماً وهو يمسح أنفه بجورب تنس قديم : « ان الحقيقة هي تلك التي تناقض نفسها مع الزمن » .

وبورسواردن في مناسبة اخرى لا تُنسى قال ايضاً : « اذا كانت الاشياء هي كما تبدو فما أفقر ذاكرة الانسان ! »

كيف يمكنني ان احرر نفسي من هذه البغي بين المدن — بحرها ، وصحرائها ومآذنها — رملها وبحرها ؟

لا ، يجب ان اثبته جميعه بالابيض والاسود ، الى ان يجيء وقت استنفد فيه ذكراها ونوازعها . انني اعرف ان المفتاح الذي احاول ادارته انما اديره في داخل نفسي .

٢

كان كابوديستريا يدعونا (الندوة) في تلك الايام عندما كنا نجتمع صباحاً في صالون منمجيان الاغريقي الطراز لنحلق ذقوننا ؛ ذلك الصالون بمراياه ونخلاته ، بستائره المصنوعة من حبال الخرز ، والدغدغة اللذيذة التي يبعثها دفء المياه الصافية والكتان الابيض : تجهيز للجثث وتضميخ لها . وكان يقوم الاحدب ذو العينين البنفسجيتين بنفسه على رعايتنا ، فقد كنا زبائن لنا قيمتنا جميعنا (فراعنة موتى في حمامات النطرون ، تزال احشاؤهم وأدمغتهم لتجدد وتعاد الى مكانها) . ولكن ما أكثر ما كان هو نفسه ، الحلاق ، نامي شعر الذقن ؛ فطالما كان قد وصل لتوه من المستشفى بعد حلق ذقن احد الموتى . كنا نلتقي هذه المدة القصيرة ونحن جالسون في المقاعد المبطنة ، نتبادل النظرات في المرايا ، قبل ان نفترق كل الى عمله المختلف — داكابو ليقابل سماسرته ، بومبال ليتدحرج الى القنصلية الفرنسية (فمه كريه الطعم مُرّه ، وقد عراه الدوار والصداع من تأثير السكر والسهر ، وتملكه شعور كأنه كان يمشي طول الليل على محجريه) . وأنا لأدرّس ، وسكوبي الى دائرة الشرطة ، وهكذا ...

عندي صورة اخذت بالضوء الاصطناعي قد بهتت ألوانها . التقطها

جون كيتس لطقوس الصباح اليومية في صالون منمجيان ، وكان المسكين يعمل وقتئذ مراسلاً لوكالة الانباء العالمية . ان النظر اليها الآن يبعث شعوراً غريباً في النفس ، فرائحة الكفن عليها . انها تمثيل ناطق لصباح ربيع اسكندراني. صوت مهباج القهوة الهادىء وهديل الحمائم الرخيم . انني اتعرف على اصدقائي من الاصوات التي يطلقونها : « كتش » و « بوف » اللتين يطلقهما كابوديستريا لدى سماعه تعليقاً سياسياً ثم يتبعهما بتلك القهقهة الجافة كأنها تقيوء معدة معدنية ، وسعال سكوبي الناجم عن التدخين « توش ، توش » ونأمة بومبال الناعمة « تيان » كأن شخصاً ما يضرب على مثلث معدني . « تيـــان » .

وها انذا هناك ، في احدى الزوايا في معطف الشتاء الرث ، صورة ناطقة لمعلم المدرسة . وفي الزاوية الاخرى يجلس المسكين توتو دي‌برونيل بجسمه الصغير . وقد تصيدته لقطة كيتس وهو يرفع اصبعاً مسوراً بخاتم الى صدغه ــ صدغه المشؤوم !.

توتو ! انه انسان طريف ، « نومرو » خاص . تقاطيعه الذابلة الشبيهة بتقاطيع عرافة ، وشعر نافوخه المدبب ، وابتسامته الغريبة الملائمة للفن الحديث . لقد كان حبيب نساء المجتمع الهرمات اللواتي كن يأنفن من نوع الرجال الذين يعيشون على أموال النساء. « Toto, mon chou, c'est toi ! » (هذه كانت مدام امبادا) ، « Comme il est charmant ce Toto ! ». (اثينا تراشا) . انه يعيش على هذه الكسرات اليابسة من الاستحسان ، رجل حبيب الى النساء الهرمات ، وقد اخذت غمازتاه تغوران اكثر فأكثر يوماً بعد يوم في بشرة وجهه المجعّدة التي لا يبدو عليها مر السنين . وكان سعيداً على ما أعتقد . نعم .

« Toto — comment vas-tu ? » — « Si heureux de vous voir, Madame Martinengo ! »

كان ، تماماً كما أسماه بومبال باحتقار « جنتلمان من المرتبة الثانية » .

وكانت ابتسامته تحفر قبر الانسان ، ولطفه يخدره . ومع انه كان ضئيل الثروة ، قليل الترف ، فإنه كان تماماً في وسط المجتمع الراقي . لم يكن هناك مايمكن عمله معه فقد كان امرأة : ومع ذلك فلو أنه ولد امرأة لكان بكى نفسه طويلاً حتى تخدد وتلاشى . وكان يفتقر كلياً الى الجاذبية والسحر ولكن ممارسته للواطية كانت تعطيه شيئاً من الاهمية غير المشروعة « Homme serviable, homme gracieux » (الكونت بانوبولا ، الجنرال سيرفوني – ايريد الانسان اكثر من هذا ؟) .

ومع انه كان يفتقر الى روح الدعابة فقد اكتشف يوماً ان بإمكانه ان يضحك الآخرين كثيراً . كان يتكلم الانجليزية والفرنسية بدرجة متوسطة بين الجودة والرداءة . ولكنه كان كلما عجز عن اداء كلمة وضع مكانها كلمة غيرها لا يعرف معناها ، فكان هذا الاستبدال مبهجاً في كثير من الاحيان . واصبح هذا اسلوباً في حديثه لا يتغير . وطالما اشرف على بلوغ ذرى الشعر في هذا الاسلوب [1] . وكان بإمكانه اتباع هذا النهج في ثلاث لغات ، يتذرع به لكيلا يتعلم هذه اللغات ؛ لقد كان يتكلم لغة توتوية خاصة بـــه !

وخلف عدسة آلة التصوير كان يقف كيتس . انه من النوع الذي يعتبره العالم رجلاً طيباً ، من النوع الخالي من جميع النوايا . كانت تفوح منه عادة رائحة عرق جسمه . « C'est le métier qui exige ». لقد رغب يوماً في ان يكون كاتباً ولكنه اخذ النهج الخاطىء – والآن كانت مهنته قد دربته على ان يحوم على سطحيات الحياة الواقعية (افعال وحقائق عن الافعال) حتى انه وقع فريسة لهوس الصحفيين المألوف (انهم يشربون الخمر حتى يهدئوا هذا الهوس) : ويتلخص هذا الهوس فيما يلي : في ان شيئاً قد حدث ، او انه يكاد ان يحدث في الشارع المجاور ، بينما لن يعرفوا هم عنه شيئاً

---

١ – اورد الكتاب هنا بعض النماذج التي تفقد كل معناها مترجمة . (المترجمة)

الا بعد ان يكون الوقت قد فات « لارسال » الخبر . هذا الخوف الملازم من ان يضيع عليه نتفاً من وقائع يدرك الانسان سلفاً بأنها تافهة ، وخالية من المعنى ، قد اعطى صديقنا ذلك التخلّج المتواتر الذي يراه الانسان عند الاطفال عندما يريدون الذهاب الى المرحاض – التحرك اللاثب في الكرسي ، وضع رجل فوق اخرى ثم تفريقهما . وبعد بضع لحظات يمضيها في الحديث معنا كان من عادته ان ينهض بعصبية ويقول : « لقد نسيت شيئاً – لن اغيب أكثر من لحظة . » وفي الشارع كان يتنفس بارتياح . ولم يكن من دأبه ان يذهب بعيداً ، بل يسير حول البناية ليهدىء اعصابه . وكان كل شيء يبدو طبيعياً دوماً ، لا شك في ذلك ؛ فيقلب الرأي فيما اذا كان من الحكمة ان يخابر محمود باشا بشأن تقدير نفقات الدفاع ام ان ينتظر حتى الغد ... وكان جيبه مليئاً دائماً بحبات الفستق ، يسحقها بأسنانه ثم يبصقها وهو يشعر بالقلق وهيجان الاعصاب دون ان يعرف لذلك سبباً . وبعد ان يسير مدة كان يعود متدحرجاً الى المقهى ، او صالون الحلاق ، وقد علت وجهه ابتسامة حيية تحمل معاني الاعتذار : صحفي كبير في وكالة انباء – افضل مثل على النوع العصري المكرس . والحقيقة انه لم يكن هناك أي مأخذ يؤخذ على جون الا ذلك المستوى الذي اختار ان يعيش عليه حياته – ولكن بامكانك ان تقول نفس الشيء عن سميّه الشهير ، اليس كذلك ؟

انني مدينٌ له بهذه الصورة القديمة الباهتة الالوان . (بعد ذلك بزمن طويل كان مقدراً له ان يقتل في الصحراء ، وهو لم يزل مالكاً لجميع ميزات غباوته) . اي هوس مجنون بتدوين كل شيء ، وتخليده ، وتصويره ! اعتقد ان هذا يأتي بلا شك من الشعور بأنك لا تتمتع بأي شيء متعة كاملة ابداً ، وانك ، مع كل نفس من انفاسك ، تغتصب من نضارته . كانت اضباراته هائلة الحجم ، منتفخة بقوائم الطعام الممهورة بالامضاءات وبخواتم السيجار التي تحمل ذكرى مهمة ، وطوابع بريدية ، وبطاقات مصورة ...

بعد ذلك ، برهنت هذه الاضبارات على منفعتها ، فإن كيتس كان قـــد استطاع ان يدون فيها عدداً من ملاحظات بورسواردن وتعليقاته العابرة .

وفي الجهة اليمنى من الصورة يجلس بومبال الأكرش الطيب وقد انتفخ الجلد تحت عينيه كما يليق بدبلوماسي . هنا رجل يستطيع الانسان فعلاً ان يسخو عليه بشيء من المودة . ليس لديه هم سوى خوفه الدائم من ان يخسر وظيفته او ان يصبح عنّيناً : وهذا الخوف الاخير هو همّ جميع الفرنسيين منذ ايام جان ــ جاك . اننا نتشاجر معاً كثيراً ، ولكن بمحبة ، اذ اننا نعيش معاً في شقته الصغيرة المليئة دائماً بأشياء تافهة لا أهمية لها وبتوافه اخرى تفوقها اهمية : (les femmes) . ولكنه صديق ودود ورجل رقيق القلب محبٌّ للنساء حباً حقيقياً . وكان يقول لي عندما أصاب أنا بالقلق او أشعر بالمرض : « Dis donc, tu vas bien ? » هكذا على وجه التقريب وباسلوب الرفيق الحادب : « Ecoute - tu veux un aspirine ? » او : — « Ou bien j'ai une jaune amie dans ma chambre si tu veux ...... » (هذه ليست غلطة مطبعية : فــإن بومبال كان يسمي جميع الصويحبات « بالنساء الصفراوات») . « Hein ? Elle n'est pas mal — et c'est tout payé, mon cher. Mais ce matin, moi je me sens un tout petit peu antifeministe — j'en ai marre, hein ! » كانت التخمة تحل بــه في اوقات كهذه وكان يقول وهو يقلب تلك العين المضحكة : « Je deviens de plus en plus anthropophage ». وكان أمر وظيفته يقلقه دائماً ؛ فقد كانت سمعته رديئة والناس بـــدأوا يتحدثون بأمره ، لا سيما بعد تلك الحادثة التي اسماها « حـــادثة سفيفا » . وبالامس دخـــل عليه القنصل العام بينما كان ينظف حذاءه بستائر القنصلية ... « Monsieur Pombal ! Je suis obligé de vous faire quelques observations sur votre comportement officiel ! » اوف ! توبيخ من الطراز الاعلى ...

وهذا يفسر سر جلوسه في هذه الصورة وكأن الهم قد برك عليه . وقد راح يناقش كل هذه الامور في عقله بينما علا وجهه تعبير كئيب مغموم .

كنا قد بدأنا في المدة الاخيرة نشعر بشيء من البرود الواحد نحو الآخر بسبب ميليسا . فقد غضب لأني وقعت في حبها فقد كانت مجرد راقصة في الملهى الليلي وعلى ذلك غير جديرة بالاهتمام الجاد . ثم كانت هناك مشكلة الكبرياء الشكلية ، فهي تعيش الآن كل الوقت تقريباً في الشقة وهو يشعر بأن هذا يحط من قيمته : ولعله اعتبره ايضاً امراً غير حكيم من الوجهة الديبلوماسية .

يقول توتو : « الحب مادة متحجرة مائعة » . نكتة مطابقة لواقع الحال . فأن يقع الانسان في حب زوجة احد اصحاب البنوك امر مغتفر وان كان اخرق ... ام انه ليس كذلك ؟ في الاسكندرية لا يعجب الناس بشيء الا بالمؤامرات التي يحوكها الانسان لغاية التآمر وحده . اما ان يقع المرء في الحب فهذا مما يجعله اهلاً لسخرية المجتمع . (ان بومبال ريفي في حقيقة اعماقه) . انني أفكر الآن في السكينة العظيمة التي كانت تبدو على ميليسا وهي مسجاة على فراش الموت . وبجلالها عندئذ — ذلك الجسم النحيل وقد تحزم والتف بالاقمطة كأنه كان قد تعرض لحادثة مهلكة لا استصلاح بعدها ولا شفاء . حسناً .

وجوستين ؟ في اليوم الذي اخذت فيه هذه الصورة قوطع رسم اللوحة التي كانت ترسمها كليا بقبلة ، كما يقول بالثازار . كيف يمكنني ان افسر هذا واجعله قابلاً للفهم وانا نفسي لا استطيع ان اتخيله الا بكل هذه الصعوبة ؟ يجب علي على ما يبدو ان احاول جهدي ان ارى بعين خيالي جوستين جديدة ، وبورسواردن جديداً ، وكليا جديدة ... اعني انني يجب ان احاول تمزيق الغشاء الكثيف الذي يقف بيني وبين حقيقة أفعالهم — والذي تكوّن كما اعتقد من قصور رؤياي وبتأثير مزاجي .. حسدي من بورسواردن ، هواي المشبوب لجوستين ، شفقتي على ميليسا . كانوا مرايا مشوّهة ، جميعهم... ان الطريق لفهمهم يجب أن تخترق الحقائق . يجب ان أدوّن جميع ما أعرف وان احاول ان اجعله مفهوماً او معقولاً بالنسبة الي بواسطة فعل من افعال الخيال ، أم هل يمكن للحقائق أن تترك وحدها دون إقحام الخيال عليها ؟

هل تستطيع أن تقول : « لقد وقع في حبها » او « لقد وقعت في حبه » دون ان تحاول تخمين معنى هذه الكلمات ؟ ان تضعها في مضمون من المعاني المعقولة ؟ قال بومبال مرة عن جوستين : « تلك الكلبة « Elle a l'air d'être bien chambrée ! » وعن ميليسيا : « Une pauvre petite poule quelconque ... » ولعله كـــان على حق ، ولكن معناهما الحقيقي يكمن في مكان آخر — هنا ، كما آمل ، على هذه الورقة التي نكثت عليها كلماتي والتي نسجتها كنسيج العنكبوت ، من حياتي الداخلية .

وسكوبي ؟ انه على الاقل قابل للفهم كرسم هندسي ، واضح كنشيد وطني . انه يبدو راضياً سعيداً بصورة خاصة هذا الصباح لانه كان قد حقق مجده منذ مدة قصيرة . فبعد أن امضى اربع عشرة سنة برتبة بمباشي في البوليس المصري فيما يسميه « غروب حياته » كان قد تعين لتوه في ... انني لا أكاد أجرؤ على كتابة العبارة ، لاني استطيع ان ارى ارتعادته الموحية بالسرية المطبقة ، وان ارى عينه الزجاجية وهي تدور في محجرها حاملة جميع معاني الانذار والتحذير . . **في البوليس السري** . انه ليس حياً الآن والحمد لله حتى يقرأ هاتين الكلمتين ويرتجف . نعم ، البحار العتيق ، القرصان السري لشارع التتويج ، الرجل عينه . كم تفتقر المدينة اليه الآن . (استعماله لكلمة « الخطر ! ») .

في مكان آخر وصفت كيف اني اجبت دعوة غامضة لأجد نفسي في غرفة كبيرة رائعة وقرصاني القديم يواجهني ازاء طاولته ، وهو يصفر خلال اسنانه الصناعية غير المحكمة التركيب . واعتقد ان وظيفته الجديدة كانت لغزاً بالنسبة اليه كما كانت بالنسبة إلي ، انا خدنه وامين اسراره الوحيد . كان حقاً انه أمضى مدة طويلة في مصر وكان يعرف العربية جداً ، ولكنه لم يكن قط موظفاً لامعاً ، فماذا كانت وكالة للجاسوسية تأمل أن تنال على يديه ؟ واكثر من هذا ، ما الذي كان يأمل هو ان يحقق على يدي أنا ؟ كنت قد اوضحت بالتفصيل ان الحلقة الصغيرة التي كانت تلتئم كل شهر لتسمع

بالثازار يفسر تعاليم القابال وينشرها لم تكن تمت الى الجاسوسية بأية صلة ؛ كانت فقط عبارة عن جماعة من التلامذة الهرمسيين يجذبهم معاً اهتمامهم بفحوى المحاضرات. ان الاسكندرية مدينة طوائف — وكان ايسط سؤال او استخبار كفيلاً بأن يكشف له عن وجود جماعات شبيهة بتلك الجماعة المعنية بالفلسفة الهرمسية التي كان بالثازار يدرّسها ... فما الذي جذب الانتباه الى نسيم وجوستين وبالثازار وكابوديستريا الخ بصورة خاصة ؟ لم يكن باستطاعتي ان ادرك السبب ، ولم يستطع هو بدوره ان يدلني عليه.

« انهم يدبرون امراً ما. هذا ما تقوله القاهرة ». ردد هذه الكلمات بصوت ضعيف. كان واضحاً انه لم يكن يعرف من هم رؤساؤه. فقد كانت الاوامر ، كما فهمت ، تُملى عليه بواسطة التلفون. ولكن اياً كان رؤساؤه في القاهرة فقد كانوا يدفعون له اجراً طيباً : فإن كان لديه من المال ما يمكنه ان يرمي به في سبيل تحريات سخيفة فمن انا حتى امنعه من ان يرمي بهذا المال إلي ؟ لقد ظننت ان تقاريري القليلة الاولى عن قابال بالثازار ستنجح في تبديد كل اهتمام به — ولكن لا. كانوا يريدون دوماً المزيد من هذه التقارير.

وهذا الصباح بالذات كان البحار القديم البادي في هذه الصورة يحتفل بوظيفته الجديدة وبزيادة المرتب التي تتيحها ، بقص شعره في الحي الارقى من المدينة وفي اغلى صالوناتها — صالون منمجيان.

ويجب ان لا أنسى ان هذه الصور تسجل « **اجتماعاً سرياً** » ، ولذلك فلا عجب ان يبدو سكوبي مرتبكاً. فإنه محاط هنا بالجواسيس انفسهم الذين اصبح من واجبه ان يحقق في نشاطاتهم — هذا الى جانب دبلوماسي فرنسي انتشرت عنه الاشاعة في كل مكان بأنه رئيس المكتب الثاني الفرنسي ...

لقد كان سكوبي في الاحوال العادية خليقاً بأن يجد هذا المكان غالياً جداً لا يستطيع ارتياده أبداً ، وهو الذي كان يعيش على تقاعدية البحرية الضئيلة ومرتب البوليس الهزيل. اما الآن فانه رجل عظيم.

ولم يجروْ حتّى على ان يغمزني في المرآة ، بينما راح الاحدب ، بلباقة دبلوماسي ، يصطنع اتقان حلاقة كاملة لرأسه من لا شيء — فإن صلعة سكوبي اللامعة الشبيهة بالقبة كانت مسجفة تسجيفاً خفيفاً جداً بذلك النوع من الزغب اللطيف الذي يراه الانسان على مؤخرة فرخ البط الصغير ، وكان في السنوات الاخيرة قد ضحى بلحيته الصاروخية الشكل النزرة الشعر .

انه على وشك ان يقول بصوته الاجش (في حضور كل هذا العدد من الناس المشكوك فيهم ، نحن « الجواسيس » يجب أن نتكلم بطريقة « اعتيادية ») : « اقول ايها الصديق ، انك تحصل على خدمة ممتازة هنا . ان منمجيان يفهم بكل تأكيد » ثم يتنحنح ويردف « سر الفن جمعية » . واصبح صوته حذراً الآن ازاء هذه التعابير الفنية : « انها كلها مسألة « تخرّج » — اخبرني بهذا صديق حميم لي ، حلاق في بوندستريت. قال ، عليك ان تتخرّج . » وشكره منمجيان بصوته المضغوط الذي يبدو كأنه خارج من بطنه. فأجابه الشيخ بلهجة متسامحة كريمة : « ابداً ، ابداً ، انك تستحق الاطراء . فإني اعرف جميع خبايا الفن هذا . » والآن استطاع ان يغمزني ، فغمزته بدوري ، واشاح الواحد منا وجهه عن الآخر بسرعة .

واذ أُطلق سراحه وقف وعظامه تقرقع ، واطبق فكّه القرصاني اطباقة توحي بالعافية المتفجرة . وتفحص خياله في المرآة برضا وسرور وهو يهز برأسه هزة صغيرة سلطانية ويقول : « نعم ، نعم . »

« اتريد تدليكاً على الكهرباء لجلدة الرأس يا سيدي ؟ »

وهز سكوبي برأسه رافضاً ، هزة من كان صاحب سلطة وامر ونهي ، وهو يضع طربوشه الاحمر على جمجمته . ثم قال : « انه يسبب لي طفرة من البثور » واردف وهو يبتسم ابتسامة متكلفة : « انني سأغذي ما تبقى بالعرق . » وحيّا منمجيان هذا الجواب الحاذق باشارة صغيرة . وانطلقنا خارجين ونحن نشعر اخيراً باننا احرار .

ولكنه لم يكن منشرح الصدر ابداً في الحقيقة . وسار بقنوط ذابل قربي

اذ رحنا نتمشّى معاً ببطء في شارع شريف باشا نحو الكورنيش الكبير . واخذ يضرب بكآبة على ركبته بمذبته المصنوعة من ذنب الخيل ، ويسحب نفساً بعد نفس من غليونه العتيق ، وقد بدا عليه الوجوم . وقال فجأة بلهجة نكدة : « اني لا استطيع ان احتمل توتو هذا . انه رجل مخنث . في أيامي كنا خليقين بان ... » وتمتم متذمراً لنفسه مدة طويلة ثم صمت صمتاً مطبقاً .

قلت : « ما المشكلة يا سكوبي ؟ »

واعترف قائلاً : « انني متعكر . انني متعكر حقاً » .

كانت مشية سكوبي وقيافته العامة اذا ما سار في احياء المدينة الراقية تبدو مختالةً متبخترة تبختراً مصطنعاً – كانت توحي بالرجل الابيض وهو يسير على سجيته ، وقد شغلت باله هموم ومشكلات خاصة بالرجل الابيض – « عبئهم » كما يسمونه . واذا حكمنا على هذا العبء من منظر سكوبي فلا شك انه كان عبئاً ثقيلاً . كانت أقل حركة من حركاته مصطنعة صارخة بتصنّعها ؛ تربيته على ركبته ، مص شفته ، استغراقه في تفكير مهموم امام واجهات الحوانيت . كان يرمق الناس حوله من علٍ . وقد ذكرتني هذه الحركات بأبطال القصص الانجليزي الذين يقفون امام موقد من الطراز التيودوري ، وقد راحوا يضربون جزماتهم المخصصة للركوب بسوط صنع من عضو الثور .

غير اننا ما كدنا نصل الى حدود الحي العربي حتى كان سكوبي قد اقلع عن هذه الحركات المصطنعة وفارقه توتره وخلع طربوشه ليمسح عرق جبينه ، وراح ينظر حوله بمودة نابعة من الالفة الطويلة . كان ينتمي الى هذا المكان بالتبني ، وكان يشعر هنا بأنه في بيته ، وطالما يشرب من الصنبور المعدني الناتىء من احد الجدران قرب جامع الجوهري (سبيل عام للشرب) ، مع ان الرجل الابيض فيه كان يدرك ولاشك ان الشرب من ذلك الماء بعيد كل البعد عن السلامة . وكان من دأبه أن يتناول في مروره عود قصب مص

من احدى الدكاكين ويمضغه في الشارع العام ، او قد يتناول قرناً من الخروب الحلو الطعم . وهنا ، في كل مكان كانت تحييه الصيحات في الشارع العام فيجيب عليها بوجه مشرق :

« الله معك يا سكوب أفندي »

« نهارك سعيد يا سكوب » .

« الله يسلمك »

ويتنهد ويقول : « القوم الاعزاء » . و « ما اعظم حبي لهذا المكان — انك لا تستطيع ان تتصور ! » يقول هذا وهو يتجنب الاصطدام بجمل ذي عين بليلة يسير في الشارع الضيق وقد برزت احماله المنتفخة بالبرسيم ، مهددة برمينا ارضاً .

« زاد الله في غناك »

« عن اذنك يا امي »

« بارك الله يومك » .

« باركني ايها الشيخ » .

كان سكوبي يسير هنا بسهولة كرجل يتجول في أملاكه الخاصة . يسير ببطء وفخامة كرجل عربي .

وجلسنا اليوم معاً مدة من الزمن في ظلال الجامع العريق في القدم ونحن نصغي الى قرقعة أغصان النخيل ونفير السفن المبحرة من الخليج المحجوب عن الانظار ، القابع في المنخفض .

وقال سكوبي اخيراً بصوت حزين متلاش : لقد تسلمت أمراً يتعلق بما يسمونه « اللواطيين » . ولقد هزني قليلاً ، ايها الصديق . انني لا أخجل من الاعتراف بأني لم أكن اعرف الكلمة واضطررت الى البحث عنها في القاموس . يقول الامر اننا يجب ان لا نشركهم في اعمالنا بأي حال من الاحوال . انهم خطرون على سلامة الشبكة » .

وضحكت ، وبدا على الشيخ للحظة قصيرة انه على وشك أن يتجاوب

مع ضحكتي بقهقهة ضعيفة ، ولكن كآبته سرعان ما استولت عليه من جديد وقضت على البادرة المرحة ، وتركتها مدفونة في تجويفة خديه الاحمرين بلون الكرز . وسحب أنفاساً قوية من غليونه بعصبية وحنق . واعاد قول « لواطي » بازدراء وراح يبحث في جيبه عن علبة الثقاب .

ثم قال بحزن : « انني لا اظن انهم يدركون الامر تماماً في الوطن . فالمصريون مثلاً لا يعبأون مطلقاً اذا كان عند الرجل بعض الميول ، ما دام هو عنوان الشرف مثلي . (وكان يعني قوله هذا .) ولكن الآن ايها الصديق ، اذا كنت سأعمل في ... انت تعلم في ماذا ... فمن واجبي ان اخبرهم — ماذا تقول ؟ »

« لا تكن احمق يا سكوبي »

فأجاب بحزن : « الحقيقة انني لا اعرف ما افعل . انني اود ان اكون شريفاً صادقاً معهم . ولكن المشكلة هي انني لا أسبب أي أذى . غير أني اعتقد ان الناس يتوقعون ان لا يكون عند الانسان ميول خاصة ، تماماً كما يتوقعون ان لا يكون له انف كبير او تواليل ، ولكن ماذا يمكنني ان افعل ؟ »

« لا شك انك في مثل عمرك — شيء قليل جداً ؟ »

فأجاب القرصان بلمعة من اسلوبه القديم : « تحت الزنار قدر ، قاس » ونظر الي نظرة ماكرة وانزاح عنه غمه فجأة وانشرح صدره . ثم بدأ أحد تلك المنولوجات المبهجة المطردة — فصلاً جديداً في القصة البطولية التي ألفها عن اقدم اصدقائه ، توبي مانيرينج ، الذي كان قد اصبح الآن شخصية اسطورية : « لقد اضطر توبي مرة الى اللجوء الى الطب لكثرة افراطه — اظن اني اخبرتك . لا ؟ حسناً . لقد اضطر الى اللجوء الى الطبيب . » كان واضحاً انه يتكلم بلذة ظاهرة : « يا الهي كم كان مفرطاً عندما كان شاباً . لقد تجاوز الطرف الاقصى في تخطيه للحدود . وأخيراً وجد نفسه تحت رعاية الطبيب . واضطر الى ان يلبس جهازاً خاصاً . » وارتفع صوته الآن ، عالياً ، رفيعاً : « كان يتجول عندما ينزل الى البر مأذوناً بموافقة من

جلد النمر ، الى ان قام الاسطول التجاري يدأ واحدة يحتج عليه ، فأرسلوه الى مصح لمدة ستة اشهر . قالوا له : « انت بحاجة الى تدليك » وكنت تستطيع ان تسمع زعيقه في ارجاء نيوكسبري – هذا ما رواه توبي نفسه . انهم يقولون بانهم يشفونك ولكنهم لا يفعلون . انهم لم يشفوه هو على كل حال . وبعد مدة قصيرة أعادوه . لم يتمكنوا من عمل أي شيء معه . كان مصاباً (بوقاحة خرساء) . هذا ما قالوه . مسكين توبي ! »

كان قد استسلم بسهولة الآن الى سنة من النوم ، وقد استند الى حائط الجامع . (« غفوة صغيرة خفيفة » ، كما كان من عادته ان يسميها : « تقطعها عادة الموجة التاسعة » . وتساءلت في نفسي : الى متى يا ترى ؟) وبعد لحظة أعادته الموجة التاسعة ، خلال امواج أحلامه الى الشاطىء . وانتفض جسمه واعتدل في جلسته . « ماذا كنت أقول ؟ نعم . كنت اتحدث عن توبي . كان ابوه عضواً في البرلمان ، يتمتع بمركز عال جداً . ابن رجل غني . وحاول توبي ان ينتظم في السلك الكنسي في البدء . قال إنه شعر بالدعوة . ولكنني شخصياً اعتقد ان ما جذبه هو اللباس الكهنوتي – كان هاوياً كبيراً من هواة المسرح ، توبي هذا . ثم فقد ايمانه وفسد امره وتورط في كارثة . ثم اعتقل وادعى ان الشيطان اغراه . وقال القاضي : « انتبهوا ان لا يفعل هذا مرة ثانية . لا سيما في متنزه توتينج العام . » كانوا ينوون زجّه في السجن – قالوا انه مصاب بمرض نادر – مرض الإخصاب ، هذا هو الاسم الذي دعوه به على ما أظن . ولكن لحسن الحظ ذهب ابوه الى رئيس الوزراء ودبر الامر . لقد كان من حسن الحظ ، ايها الصديق ، ان اعضاء الوزارة جميعهم في ذلك الوقت كانوا أصحاب ميول ايضاً . لقد كان شيئاً غريباً . رئيس الوزراء ، حتّى رئيس اساقفة كانتربري . ولذا فانهم تعاطفوا مع توبي المسكين وكان هذا من حسن طالعه . بعد ذلك حصل على بطاقة السفر وأبحر . »

واغفى سكوبي مرة أخرى ، ليستيقظ بعد لحظات قليلة بانتفاضة مسرحية ،

ويتابع كلامه دون ان يتوقف ، مع انه راح يرسم اشارة الصليب وهو يشرق بأنفاسه : « لقد كان توبي هو الذي ادخلني في الايمان . ففي احدى الليالي عندما كنا نقوم بالحراسة معاً عـلى ظهر الميريديث (تلك السفينة القديمة الرائعة) قال لي : « ان هناك شيئاً يجب أن تعرفه . هل سمعت في يوم من الايام بمريم العذراء ؟ » كنت بالطبع قد سمعت عنها بعض الشيء . لم اكن اعرف ماذا كانت واجباتها ... »

وأغفى مرة اخرى ، وهذه المرة خرج من بين شفتيه شخير قصير اشبه بالنعيب . واخذت غليونه بعناية من بين أصابعه وأشعلت لنفسي سيجارة . هذا الظهور في صورة الموت ثم الارتداد عنها كان موثراً . هذه الزيارات القصيرة التي يقوم بها الى لانهاية سيكون هو عما قريب من سكانها ومعه توبي وبدْجي ومريم العذراء بلا واجبات مقررة ... وما أغرب ان يكون الانسان مهووساً بمشكلات كهذه وهو في سن لم يعد فيها ، حسب رأيي، ما يجعل منه مصدراً للازعاج اكثر من المباهاة الكلامية . (لقد كنت على خطأ — فسكوبي كان لا يكل ولا يقهر) .

وبعد مدة استيقظ مرة ثانية من غفوة أعمق ، ونفض نفسه ونهض وقد ارتخت اجفان عينيه . وسرنا معاً في الاحياء العفنة من المدينة حيث كان يعيش في غرفتين متداعيتين في شارع التتويج . وقال مرة ثانية ولقد لقط طرف تفكيره من حيث انقطع من قبل : « ومع ذلك فإنه من السهل عليك انت ان تقول انني يجب ان لا أخبرهم . ولكني لست متأكداً من هذا . » (وهنا توقف الشيخ في مدخل احد المخابز ليتنشق رائحة الخبز العربي الطازج وصاح « ان له رائحة حضن الام ! ») وكانت مشيته المسترخية تجاري سير تأملاته : « ان المصريين رائعون ، ايها الصديق ، رقيقو الشمائل . انهم يعرفونني جيداً . قد يبدون ماكرين ، ايها الصديق ، من بعض النواحي ، ولكنه مكر يشوبه الظرف والكياسة . هذا ما أقوله أنا دائماً . انهم متسامحون بعضهم مع البعض الآخر . خذ مثلاً نمرود باشا ؛ لقد قال لي منذ أيام

« اللواطية شيء – والحشيش شيء آخر » . انه بالفعل جاد فيما يتعلق بهذا الأمر . والحقيقة انني لا أتعاطى الحشيش مطلقاً خلال ساعات العمل – فهذا خليق بأن يكون رديئاً . بالطبع لو نظرنا الى المشكلة من وجهة نظر اخرى – فإن الانجليز لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً مع رجل مثلي برتبة ضابط في الامبراطورية البريطانية . ولكن ، اذا ما بدأ المصريون ينتقدون تصرفي – ايها الصديق ، فإني قد اخسر الوظيفتين والراتبين . هذا هو ما يقلقني » .

وصعدنا الدرج المتداعي بثقوبه العفنة حيث تلعب الجرذان . وقال موافقاً : « ان رائحته رديئة شيئاً ما ، ولكنك تعتاد عليها . انها رائحة الفئران . لا ، انني لا أزمع الانتقال من هذا البيت . لقد عشت في هذا الحي مدة عشر سنوات حتى الآن – عشر سنوات ، والجميع يعرفونني ويحبونني . ثم ان عبدو قريب جداً مني . »

وقرقر ضاحكاً ثم وقف على الدرج ليلقط أنفاسه وخلع طربوشه ليتمكن من مسح جبينه جيداً . ثم تدلت كتفاه كما يحصل له دائماً عندما يستغرق في التفكير الجاد كأنما ثقل الفكرة نفسه قد حل عليه ، وتنهد وقال ببطء وباسلوب من يود ان يفسر رأيه بأي ثمن ، من يود ان يصور فكرته على اوضح ما يمكن : « المشكلة في هذه الامور هي انك لا تدرك انك صاحب ميول خاصة إلا عندما تكون قد تخطيت طور الشباب الحار الدماء » . وتنهد مرة أخرى « انه انعدام الرقة ، ايها الصديق ، وجميعه يعتمد على شيء من الدهاء – فإنك تشعر بالوحدة . مثلاً من ناحيتي أنا ، فإن عبدو صديق مخلص » . وقرقر ضاحكاً وابتهج مرة ثانية « انني أسميه بُلبل أمير . ولقد ركزته انا في عمله نتيجة لعواطف الصداقة ، واشتريت له كل شيء : حانوته ، زوجته الصغيرة ، ولم أمسه مرة واحدة بالضرب ، ولن أفعل ذلك أبداً ، لأني احب الرجل حباً حقيقياً . ولكم أشعر بالسعادة لأني افعل ذلك ، فبالرغم من تقدمي في السن أعرج يومياً عليهما ، ولا يمكنك ان تتصور مقدار السعادة التي تدخلها رؤيتهما اليومية على نفسي ، ويقينا

انني أفرح لسعادتهما ايها الصديق . فإنهما ابن وابنة لي ، ويشق علي كثيراً ان اسمعهما يتشاجران . فهذا يجعلني أقلق على اولادهما . اعتقد ان عبدو يغار عليها ، ومعه حق في ذلك . فانها تبدو لي غزلة . ولكن النزعة الجنسية نفسها قوية جداً في هذا الحر — ولذا فان شيئاً قليلاً جداً من هذه النزعة يفي بالكثير ، كما كنا نقول عن شراب الرم عندما كنا في الاسطول التجاري . انك تستلقي وتحلم به ، اعني الجنس لا الرم . وهؤلاء الفتيات المسلمات ، ايها الصديق ، انهم يختنونهن . وهذا شيء بالغ القسوة فهو يجعلهن ينصرفن الى موضوع الجنس . لقد حاولت ان اجعلها تتعلم حياكة الصوف ، ولكنها غبية جداً فلم تفهم ما أريد مطلقاً ،وجعلا من الامر نكتة يضحكان عليها . ولكني لا استاء من هذا . كنت أحاول مساعدتهما فقط . لقد كلفني تركيز عبدو مئتي جنيه — جميع وفري ، ولكنه ناجح في عمله الآن — نعم ، ناجح جداً » .

كان للمنولوج هذا تأثير منعش عليه ، فسمح له ان يستدعي قواه للهجوم الاخير في صعود الدرج . ورحنا نصعد الدرجات العشر الاخيرة بقفزات نشيطة ، ثم فتح سكوبي باب شقته — كان في السابق لا يستطيع ان يستأجر الا غرفة واحدة — ، ولكنه الآن بفضل مرتبه الجديد استطاع ان يستأجر جميع الشقة الرثة .

كانت كبرى الغرفتين على الطراز العربي القديم يستعملها كغرفة استقبال وكغرفة نوم في آن واحد . وكان اثاثها عبارة عن سرير نقال لا يبدو انه يمنح شيئاً من الراحة ، وطاولة كعك قديمة الطراز ، وكان على رف المدفأة المتداعية عدد من أعواد البخور ، ورزنامة بوليس ، ولوحة القرصان غير التامة التي رسمتها كليا له . وأشعل سكوبي لمبة كهربائية وحيدة يعلوها الغبار — استحداث جديد في غرفته كان يفخر به جداً (« الكاز يتسرب الى الطعام ») — ونظر حوله بغبطة أكيدة . ثم سار على رؤوس أصابعه الى الزاوية البعيدة . لم أكن قد رأيت نزيل الغرفة الآخر : ببغاء أمازونية خضراء زاهية في قفص

نحاسي . كانت في ذلك الوقت مجللة بقطعة قماش داكن اللون ؛ وازاح الشيخ الآن هذا الغطاء باسلوب من اتخذ موقفاً دفاعياً وقال : «كنت أحدثك عن توبي لانه مر في الاسبوع الماضي بالاسكندرية على باخرة خط يوكوهاما . وحصلت على هذه منه — لقد اضطر الى بيعها — فان الطائر اللعين أثار ضجة كبيرة . انه متحدث لامع ، أليس كذلك يا رون؟ حاد كالحضاف ، الست كذلك ؟ » واطلقت الببغاء صفيراً خافتاً ونفضت رأسها ، فقال لها سكوبي بلهجة راضية «شاطرة » . ثم التفت إلي واضاف : « لقد حصلت على رون بثمن باهظ ، نعم ، ثمن مر جداً . اتريد ان اخبرك لماذا ؟ »

وفجأة ، وبدون سابق تفسير غلبه الضحك فانثنى على نفسه حتى كاد انفه يصل الى ركبته وراح يئزّ بلا صوت كما تفعل الدوامة الصغيرة ، ثم اعتدل وهو يخبط على مؤخرته دون ان يحدث صوتاً —كانت نوبـــة فجائية . وقال : « انك لا تستطيع ان تتصور الصخب الذي سببه رون . لقد احضر توبي الطائر معه الى الشاطىء . كان توبي يعرف ان باستطاعة رون أن يتكلم ولكن ليس بالعربية . والله ، كنا جالسين نتبادل الحديث والاخبار في أحد المقاهي (لم اكن قد رأيت توبي مدة خمس سنوات طوال) عندما بدأ رون يتكلم بالعربية ، هل تعرف؟ انه تلا « الكلمة » ، وهي نص مقدس جداً من القرآن . الكلمة . اليس كذلك يا رون؟ » ووافقت الببغاء على قوله بصفير آخر ، وفسر سكوبي قوله بجد واهتمام : « انها مقدسة جداً ، حتى اننا لم نع إلا وقد تجمع حولنا جمهور صاخب ، وكان من حسن الحظ اني كنت اعرف سر المشكل وادرك ما يمكن ان يحصل . كنت اعرف انه اذا ضبط من كان غير مسلم يتلو هذا النص فانه يختن حالاً ! » ولمعت عيناه « لقد كان أمراً فظيعاً أن يختن توبي إبان قضاء اجازته على الشاطىء ، لذلك فاني قلقت . (كنت فد ختنت أنا من قبل) ولكن حضور بديهتي لم يفارقني . كان توبي ينوي أن يرمي ببعض مهاجميه ارضاً ولكني هدأته . لقد كنت في بذلة البوليس الرسمية وهذا

ما هوّن الامر .فألقيت كلمة قصيرة على الجماعة وقلت بأني كنت انوي ان آخذ الكافر وطيره اللعين الى السجن واسلمهما الى المسؤولين في النيابة العامة . وارضاهم هذا واقنعهم . ولكن لم يكن هناك طريقة لاسكات رون ، حتى بعد ان غطيناه بغطائه الصغير — اليس كذلك يا رون ؟ لقد استمر اللعين يتلو الكلمة طول طريق العودة وكان علينا ان نركض لنسلم ، آه ، اية تجربة مررنا بها ! »

كان يغير ملابسه الرسمية وهو يتحدث ، وعلّق طربوشه على المسمار الحديدي الصدىء المثبت في الحائط فوق سريره ، وفوق الصليب في الفجوة الصغيرة حيث كان يضع ايضاً ابريقاً من ماء الشرب . وارتدى صدرة قديمة مهترئة من الصوف ذات ازرار من تنك ، واستمر في حديثه وهو لم يزل يمسح رأسه : « ما كان اروع رؤية توبي مرة اخرى بعد كل هذا الفراق . ولقد اضطر الى بيع الطائر بالطبع ، بعد ذلك الصخب الذي اثاره . فانه لم يجرؤ على ان يعود قاطعاً ساحة المرفأ والطائر معه . ولكني الآن بعد ان اشتريته اصبحت في شك من حكمة هذا الأمر ، لاني لا اجرؤ بدوري على اخذه خارج الغرفة لخوفي مما قد يتلفظ به » . وتنهد وتابع حديثه : « اما الشيء الآخر الذي حصلت عليه من توبي ، فقد كان وصفة لصنع شراب شبيه بالويسكي — هل سمعت به ؟ لا ؟ وكذلك انا لم اكن قد سمعت به من قبل . انه افضل من الويسكي الاصلي ورخيص جداً ، ايها الصديق . ومن الآن فصاعداً ، شكراً لتوبي ، سوف اخمّر مشروبي جميعه هنا ، انظر الى هذا » . واشار الى قنينة قذرة ، مليئة بسائل ذي لون كلون النار ، وقال « انها جعة مصنوعة في البيت ، وجيدة جداً أيضاً . لقد خمّرت ثلاث قناني — ولكن الاثنتين الأخريين انفجرتا . سوف اسميها « بيرة بلازا » .

وسألته : « لماذا ؟ هل تنوي أن تبيعها ؟ »

فقال سكوبي : « يا الهي ، لا ! انها فقط للاستعمال البيتي » ومسح على معدته ولحس شفتيه وقال « جرب كأساً » .

« لا ، شكراً »

ونظر الشيخ الآن الى ساعة يده الضخمة وضمّ شفتيه وقال : « بعد مدة قصيرة يجب أن اتلو صلاة آفي‌ماريّا ، وسأضطر الى اخراجك ، ايها الصديق . ولكن دعنا الآن نلقي نظرة على الويسكي لنرى كيف اصبح ، هل تذهب ؟ »

كنت اشعر بالفضول الشديد لمشاهدة هذه التجارب الجديدة ، فتبعته عن طيبة خاطر الى الخارج ، ثم الى الليوان الرث الذي كان يحتوي على مغطس حديدي ملبّس بالقصدير ، كئيب المنظر ، لا بد انه كان قد اشتراه خصيصاً لهذه الاهداف غير المشروعة . كان موضوعاً تحت خزانة قذرة ، وكانت الرفوف حوله مزدحمة بأدوات هذه الصناعة الجديدة ـ عدد من قناني الجعة الفارغة ، اثنتان منها مكسورتان ، والمستعملة الضخمة التي كان سكوبي يدعوها « بالميراث » ، الى جانب شمسية شاطىء مهلهلة وزوج من جزمات المطر . ولم استطع ان اردع نفسي من السؤال وانا اشير الى الجزمة : « ما الدور الذي تلعبه هذه ؟ هل تدوس العنب او البطاطا بها ؟ » وعلا وجه سكوبي تعبير كتعبير وجه عانس ، وقد عبس قليلاً وحوّل بعينيه وهو ينظر الى انفه ـ وكان هذا التعبير عنده يعني ان التعليقات الرعناء حول الموضوع الذي يتحدث عنه وقتئذ غير مسموح بها . واصغى اصغاء مرهفاً لمدة من الزمن ، كأنه يصغي الى صوت التخمّر . ثم ركع على ركبة واهنة مرتجفة ونظر الى السائل في المغطس نظرة متشكّكة ولكنها جادة ومركّزة . واشاعت عينه الزجاجية في وجهه تعبيراً آليّاً اذ حملقت في المزيج الفاشل الذي كاد يفيض به المغطس . واستنشق رائحة المزيج برصانة ووقار ، وتأفف مرة قبل ان ينهض ومفاصله تقرقع . واعترف قائلاً : « انه لا يبدو كما كنت آمل . ولكن اعطه وقتاً ، يجب أن يُعطى وقتاً » وذاق شيئاً من المزيج باصبعه وأدار عينه الزجاجية واعترف يقول : « يبدو أنه قد حمّض قليلاً ، كأنما بال فيه احد من الناس . » ولما كان عبدو وسكوبي نفسه هما الوحيدين اللذين يشتركان باستعمال مفتاح هذا المستقطر غير الشرعي فقد استطعت ان ابدو بريئاً .

وسألني متشككاً : « اتريد ان تجرّبه ؟ »

« اشكرك يا سكوبي — لا . »

فقال متفلسفاً : « حسناً ، لعل سلفات القصدير لم يكن طازجاً . لقد اضطررت إلى ان استورد الرواند من بلايتي وكلفني هذا اربعين جنيهاً ؛ وكان منظره رديئاً جداً عندما وصل الى هنا . ولكني متأكد من أن نسب المواد كانت صحيحة ، لاني مزجتها جيداً بالاشتراك مع توبي قبل رحيله . ان المزيج يحتاج الى بعض الزمن ، هذا ما يحتاجه . »

وشرح هذا الامل صدره ، فعاد الى غرفة النوم وهو يصفّر صفيراً خافتاً بعض مقاطع من اغنية شهيرة لم يكن يغنيها الا عندما يكون ثملاً من الكونياك . كانت الاغنية كما يلي :

« اريد
انساناً يصل الى حدود خيالي
اريد
انساناً يساويني في الاسلوب
لقد كنتُ عفيفاً مدة طويلة جداً
والآن سآخذها واضمّها بين ذراعيّ
توم تي توم تي توم ..... »

وكان النغم هنا يهبط ، كأنه يتدحرج فجأة من صخرة ويتلاشى ، مع ان سكوبي كان يستمر في دندنة المقطوعة ضارباً اصبعه متابعاً الايقاع .

كان الآن جالساً على سريره يحملق في حذائه العتيق البالي : « اذاهب انت الى الحفلة التي يقيمها نسيم الليلة تكريماً لماونت اوليف ؟ » قلت : « اعتقد هذا » . فنشق بأنفه عالياً وقال : « انني غير مدعو . ستكون الحفلة في نادي اليخوت ، اليس كذلك ؟ »

« نعم »

« انه الآن السير دافيد ، اليس كذلك ؟ لقد اطّلعت على هذا اللقب

الجديد في الصحف في الاسبوع الماضي . انه اصغر سناً من أن يصبح لورداً . كنت أنا مسؤولاً عن فرقة الشرف التي استقبلته لدى وصوله . وقد عزفت عزفاً خارجاً عن النغم ، ولكنه لم يلحظ شيئاً والحمد لله ! »

« لم يعد فتياً كما تتصور .. »

« ولكنْ أن يكون وزيراً مفوضاً ؟ »

« اعتقد انه في أواخر العقد الخامس »

وعلى حين فجأة ، ودون ان يبدو عليه انه قد فكّر في الأمر من قبل ، استلقى سكوبي على السرير ويده تحت رأسه وقال (بالرغم منه كما بدا لي فقد أغمض عينه اغماضاً شديداً كأنما يود حذف الموضوع الى الابد) :

« قبل ان تذهب ، لدي اعتراف صغير اريد ان اعترف به لك ايها الصديق . حسناً ؟ »

وجلست على الكرسي غير المريح وهززت برأسي موافقاً . فقال بلهجة قاطعة وهو يتنهد : « حسناً اذن : كلما اصبح القمر بدراً تستولي عليّ قوة خفيّة ، وأقع تحت تأثير احد المؤثّرات . »

ولا شك ان الشيخ كان يجد هذه الظاهرة خروجاً محيراً على طريقة التصرف المقبولة المعتادة ، فانه بدا منزعجاً باعترافه هذا . وكركر وخرخر برهة ثم تابع حديثه بصوت ذليل خافت ليس فيه ايّ أثر من آثار زهوه المعتاد : « انني لا أعرف ماذا يستولي عليّ . » ولم أفهم تماماً معنى حديثه فقلت : « أتعني انك تسير في نومك ام ماذا ؟ »، « أتنقلب الى ذئب يا سكوبي ؟ » ومرة ثانية هزّ برأسه نافياً كصبي صغير على وشك البكاء ثم قال : « انني ارتدي ثياب النساء والدولي فاردن » . وفتح عينيه بقوّة وحملق فيّ .

قلت : « أنت ماذا ؟ ! »

ونهض ، لدهشتي الشديدة ، وسار بجمود الى دولاب الملابس وفتحه ، فرأيت في داخله طقماً نسائياً مخاطاً على طراز قديم وقد أكله العث وعلاه الغبار ، وعلى مسمار بالقرب منه كانت هناك قبعة قديمة قذرة على شكل

خوذة لا بد انها « الدوليفاردن » . وقد تمّم هذا اللباس الباعث على الاستغراب الشديد زوجٌ من احذية البلاط القديمة بكعبين عاليين جداً وبوز طويل رفيع . ولم يدر سكوبي كيف يستجيب للضحكة التي لم استطع كبتها . وقهقه قهقهة ضعيفة ، وقال وهو لم يزل على شفا الدمع بالرغم من وجهه المبتسم « انه مضحك ، اليس كذلك . » كان يحاول بنغم صوته استدرار الشفقة على مصيبته : « انني لا أعرف ماذا يعروني . ومع ذلك ، فان النشوة القديمة تعاودني دائماً . »

وتغير مزاجه فجأة لهذه الكلمات ، كعادته ، وتلاشى عنه نشازه وانكساره وانهز اميّته ، وحل محلها جميعاً مرح وبهجة جديدان ، وشاع المكر لا القلق في نظراته ، وسار نحو المرآة وأنا أراقبه بعينين مدهوشتين ، ووضع القبعة على رأسه الأصلع . وفي لحظة بدّل صورته بصورة امرأة هرمة مبتذلة ، قميئة الجسم ، ذات عينين صغيرتين كأنهما زرّان ، وانف حاد كالشفرة — امرأة من الرخيصات اللواتي كن يقفن في يوم مضى على جسر ووترلو . وتجمّع الضحك والدهشة حزمة هائلة في داخلي ، دون ان يجدا لهما منفذاً أو تعبيراً . وقلت أخيراً : « بحق السماء ! انك لا تتجول في هذا الزاي يا سكوبي ، اليس كذلك ؟ » .

فقال سكوبي وهو يجلس بعجز على السرير ، وقد عادت فغمرته الكآبة وأشاعت في وجهه تعبيراً هزلياً مضحكاً (كان لم يزل يلبس الدوليفاردن) : « فقط عندما اقع تحت تأثير ذلك المؤثر . عندما لا أكون واعياً كل الوعي ، ومسؤولاً ، أيها الصديق) .

وظلّ جالساً هناك وقد بدا منسحقاً محطماً . وأطلقت صفيراً خافتاً من شدة دهشتي ، فقلدتْه الببغاء فوراً . كان هذا حقاً امراً خطيراً . وفهمت الآن سر تلك التساؤلات والافكار المفعمة بالاستقصاء الذاتي التي التهمته طول الصباح . كان سبب ذلك واضحاً ما دام انه يتجوّل في الحي العربي مرتدياً هذا الزي ... ولا بد انه كان يتابع حبل أفكاري اذ انه قال : « انني

لا أفعل هذا الاّ احياناً ، عندما يكون الاسطول في الميناء » . ثم تابع كلامه وقد عرت صوته لمسة من الرضا عن النفس « بالطبع ، لو حدث ايّ مشكل ، فاني خليق بأن أقول إنّني متخفٍّ ، ولنذكر انني من رجال البوليس . وبعد فقد كان لورنس يرتدي قميص نوم ، أليس كذلك ؟ » وهززت برأسي وقلت : « ولكنه لم يلبس قبعة الدولي فاردن . يجب أن تعترف يا سكوبي ان هذا اللباس شديد الطرافة . » وهنا غلبني الضحك .

وراقبني سكوبي وانا اضحك ، وكان لم يزل جالساً على السرير مرتدياً لباس الرأس العجيب نفسه . ورجوته قائلاً : « اخلعها ! » وبدا جادّاً متشغل البال الآن ، ولكنه لم يبدِ حراكاً وقال : « الآن اصبحت تعرف كل شيء ، افضل ما في البحار العجوز وشرّ ما فيه كذلك . لقد كنت على وشك — »

وفي هذه اللحظة سمعنا قرعاً على الباب الخارجي . وبحضور بديهة مدهش قفز سكوبي بنشاط الى داخل الدولاب واقفل بابه عليه محدثاً ضجة مسموعة . وذهبت انا الى الباب . كان يقف بالباب خادم يحمل ابريقاً مملوءاً بسائل قال انه للافندي سكوب ، فأخذته منه وتخلصت منه قبل ان اعود الى الغرفة واصرخ منادياً الشيخ ، فخرج من الدولاب وقد بدا كعادته ، عاري الرأس ومرتدياً صدرته .

وتنفس بارتياح : « تخلصنا من الفضيحة باعجوبة . من كان بالباب ؟ » فاشرت الى الابريق . « آه ، ذاك ! انه للويسكي — مرة كل ثلاث ساعات » .

قلت اخيراً وانا لم ازل مشوّش البال لما تركته في نفسي من اثر عميق ، تلك الاعترافات الرهيبة التي ادلى بها سكوبي عن تبدّل مزاجه : « يجب ان اذهب » . كنت لم ازل متردداً بين الدهشة والضحك لفكرة حياة سكوبي الثانية التي يمارسها كلما اصبح القمر بدراً — فكيف تمكن من تجنُّب الفضيحة كل هذه السنوات ؟ — قال : « دقيقة واحدة ، ايها الصديق . لقد اخبرتك بكل هذا لاني اريدك ان تؤدي لي خدمة » ، ودارت عينه الاصطناعية بجد الآن تحت ضغط التفكير ، وتهدّلت كتفاه مرة اخرى : « ان شيئاً كهذا قد يسبب

لي ضرراً لا يمكن تصوره ، ضرراً لا يمكن تصوره ايها الصديق » .
« اعتقد ان هذا محتمل » .
فقال سكوبي : « ايها الصديق ، اريدك ان تصادر ملابسي هذه . هذه هي الطريقة الوحيدة للسيطرة على المؤثر » .
« أصادرها ؟ »
« خذها من هنا . ضعها في خزانة وأقفل بابها . ان هذا سينقذني ايها الصديق. انني اعرف هذا . وإلا فانني لا املك مقاومة النزوة عندما تعتريني » .
قلت : « حسناً »
« ليباركك الله يا بني » .
ولففنا معاً ملابس ضوء القمر ببعض الجرائد ، وربطنا الحزمة بخيط . وقال بلهفة وقد امتزج شعور الارتياح الذي عراه بشيء من الشك :
« انك لن تضيعها ؟ »
قلت بحزم : « اعطني الملابس » ، وناولني الرزمة بوداعة ، واذ كنت انزل على الدرج صرخ ورائي معبراً عن ارتياحه وعرفانه بالجميل بقوله : « سأتلو صلاة قصيرة من اجلك يا بني » . ومررت ببطء قرب أحواض السفن في الميناء والرزمة تحت ابطي ، وأنا اتساءل عما اذا كنت سأجرؤ في يوم من الايام على الإسرار بهذه القصة المدهشة إلى انسان يستحق ان يشاركني فيها .
واستدارت السفن الحربية في انعكاساتها الداكنة بلون الحبر ، وتهادت غابة الصواري والحبال بهدوء بين الخيالات في مرايا المياه . وفي مكان ما كان راديو احـــدى السفن يسكب اغنية جـــاز شائعة وصلت الى الاسكندرية مؤخراً :
طير اسياس الشيخ
ليس في الكون من هو طروب
ومن هو حر
كطير اسياس الشيخ .

٣

مع غروب الشمس خلت طرق المرفأ من كل شيء الا من خيالات السفن الحربية الاجنبية ، وتركت الشمس وراءها وهجاً رمادياً مترجرجاً ـ تلاعب الضوء بلا لون او رنين فوق سطح البحر المنقّط بالاشرعة . وكانت القوارب تتحرك نحو مراسيها بالقرب من المرفأ الداخلي ، وهي تجري داخلة خارجة من بين السفن كالفئران بين جزمات الريفيّين الضخمة . وتحرك ببطء صف المدافع الامامي على البارجة جان بار ـ واهتزّ ، ثم ثبت في مكانه في صمت واجم ، مصوباً نحو قلب المدينة الوردي حيث المآذن العالية لم تزل تبرق باللون الذهبي في أشعة الغروب الاخيرة . والتمعت اسراب الحمام وهي تحوم في طيرانها كلفائف الورق التي يتراشق المحتفلون بها في الحفلات اذ ادارت أجنحتها نحو الضوء (كتابة راقية !)

وكانت ألواح النوافذ الضخمة ذات الأطر النحاسية في نادي اليخوت تشع كالماس ، وهي ترمي ضوءاً ساطعاً على الموائد الناصعة التي صف عليها الطعام ، فتشعل الكؤوس والمجوهرات والعيون بلهيب أخير مرتبك قبل ان تسدل الستائر الكبيرة ، وتكتسب الوجوه التي اجتمعت لتحيي ماونت اوليف شحوب ضوء الشموع الدافىء .

انتصار الاسلوب والنظام ، كنوز اللباقة ، الدفء ، الصبر ... الخلاعة

والعاطفية ... قتل الحب عن طريق اخذ الامور بسهولة واستخفاف ... نسيان الاحقاد والحيبات ... هذه هي الاسكندرية ، البلدة الام التي لا تعي شاعريتها ، وقد مثلتها الاسماء والوجوه التي صنعت تاريخها . اصغ .

توني امبادا ، بالداسارو تريفيزاني ، كلود اماريل ، بول كابوديستريا ، ديمتري رانديدي ، اونوفريوس باباس ، كاونت بانوبيولا ، جاك دي‌جيري ، اثينا تراشا ، جومبلاط بلك ، دلفين دي‌فرنكي ، جنرال سرفوني ، احمد حسن باشا ، بوترو دي‌بورجو ، بيير بالبز ، جاستون فييس ، حداد فهمي امين ، محمد ادم ، ويلموث بيبرفو ، توتو دي‌برونيل ، كولونيل نجيب ، دانتي بوروميو ، بينيديكث دانجو ، بيا داي تولومي ، جيلدا اميرون .. تاريخ التجارة وشاعريتها ، خطط الشرق الأوسط المنغومة التي ابتلعت فينيسيا وجنوا . (اسماء قد يقرأها العابرون ذات يوم على الاضرحة في المقبرة)

وارتفع الحديث في سحابة متكاثفة ليحيط بماونت اوليف الذي كانت هذه الحفلة انتصاراً شخصياً له . لقد وقف الآن يتحدث مع نسيم ، مضيفه ، وعلى وجهه ذلك التعبير المهذب الرقيق الذي كشف ، كما تكشف عدسة التصوير ، كل الحياء التقليدي الذي اكتسبه من تربيته الممتازة . ويقيناً ان الرجلين كانا متشابهين جداً ، إلا ان سمرة نسيم كانت سمرة صقيلة ناعمة وكانت عيناه ويداه لا تكفان عن الحركة . وبالرغم من الفرق بين عمريهما فقد كانا ندين شديدي التكافؤ حتى في ذوقهما في الاشياء ، وهو ذوق لم تنقص منه السنوات شيئاً ، مع انهما ندر ان تكاتبا مباشرة خلال المدة الطويلة التي قضاها ماونت اوليف خارج مصر . فلقد كان يكتب الى ليلى فقط لا الى ولديها . ومع ذلك ، فما ان عاد حتى اخذا يكثران من الاجتماع ، واكتشفا ان لديهما مواضيع كثيرة يحبان التحدث بها ، تماماً كما كان شأنهما في الماضي . وكنت تستطيع ان تسمع ضربات مضربيهما القويين وهما يلعبان التنس عصارى كل يوم من ايام الربيع على ملعب المفوضية ، في ساعة ينام فيها الناس عادة . وكانا يتنزهان معاً في الصحراء على ظهور الخيل ، او

يجلسان جنباً الى جنب ساعات طويلة يرقبان النجوم من المجهر الذي وضعته جوستين في القصر الصيفي . وكانا يرسمان معاً ويتصيدان معاً . ولا شك انهما ، منذ مجيء ماونت اوليف ، اصبحا لا يفترقان تقريباً . اما الليلة فان الانوار لامستهما معاً مبرزة نبالة مظهرهما ، ولكنها كانت ناعمة شاحبة فأخفت الشعرات البيضاء في فودي ماونت اوليف ، والتجاعيد الصغيرة حول عينيه المتأملتين المعبرتين عن القدرة على موازنة الاشياء والحكم عليها . لقد بدا الرجلان في ضوء الشموع كأنهما من نفس العمر تماماً ، ان لم يبدوا أيضاً من نفس العائلة .

خيالات ألف وجه ترقص أمامي بتعابيرها المبهمة (« نحن جميعنا نركض ضمن قيود محكمة » هذا ما تقوله احدى شخصيات بورسواردن في احد كتبه) . ومن بينها جميعها وجه واحد انحرق شوقاً الى رؤيته ، وجه جوستين الاسمر الصارم . ولكني ، بعد قراءة تلك الكلمات الباردة القاسية التي كتبها بالثازار ، يجب ان اتعلم ان ارى كل شيء ، حتى نفسي ، في ضوء مختلف . ترى كيف يبدو الرجل عندما يكون « واقعاً في الحب » ؟ (هذه الكلمات اذا لُفظت بالانجليزية فيجب أن تلفظ بنغم اشبه بالثغاء الخافت) Peccavi .I. ابله ! ها انذا اقف في بذلتي الوحيدة اللائقة ، مع انها هي أيضاً قد أصبحت ، لقدمها ، منتفخة ولامعة حول الركبتين ، واتطلع بعينيّ الضعيفتي البصر لعلي ألمح المرأة التي ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ انني لا احتاج الى كيتس وأمثاله ليصورني . ولست أعتقد أنني أبشع من أي انسان آخر او أقل جاذبية منه . ان غروري من النوع العادي جداً ، لا شك في ذلك — اذ كيف تسنى لي ان امضي في طريقي دون ان اقف لأتساءل لحظة واحدة لمَ اختارت جوستين ان تحيد عن دربها لتمنحني عطاياها ؟

ما الشيء الذي كنت أستطيع انا ان امنحها اياه خيراً من سواي ؟ هل تريد هي حقاً حديثي التعالمي وغزلي غير المجرب — وهي التي تملك في قبضتها ان تساوم جميع رجال الاسكندرية ؟ « وسيلة للخداع ! » انه ليجرحني

ان افهم هذا او ان اهضمه ؛ ومع ذلك فان فيه كل قوة الحقيقة الخشنة ؛ ويفسر عدة اشياء لم استطع ان افسرها من قبل — كالمال الذي تركه بورسواردن لي . فقد تركه ، كما اعتقد الآن ، نتيجة لشعوره بالذنب بسبب ما الحقته جوستين بميليسا من أذى في « حبها » لي — بينما كانت هي ، من ناحيتها ، تحميه من بطش نسيم الممكن . (ما ألطف منظر نسيم في ضوء الشموع وما اهدأه) . قال مرة وهو يصعد زفرة قصيرة : « ليس في مدينتنا اسهل من تدبير موت انسان ما او اختفائه . »

احاديث الف متحدث يبحثون بعضهم عن البعض الآخر كما تسعى الجذور نحو الرطوبة — اما معاني الحياة فقد تخفّت تحت الابتسامات المشرقة ، وفي الايدي التي تضغط العيون ، وفي الضغينة ، وفي الحمى والرضا — (كانت جوستين هذه الأيام تتناول طعام الفطور بصمت ، وهي محاطة بخدم سود طويلي القامة ، وتتناول طعام العشاء في ضوء الشموع مع الضيوف من نخبة القوم . كانت قد بدأت هذه الحياة من لا شيء — من الشارع العام — واصبحت اليوم زوجة لاوسم رجل من رجال المال في المدينة . فكيف حدث هذا كله ؟ انك لن تستطيع أن تتكهن بماضيها وانت تراقب تلك الغانية الرشيقة السمراء بنظراتها غير المروّضة وبتلك الابتسامة التي تكشف عن اسنانها البيضاء الرائعة ...) . ومع ذلك فان مجرد حديث عادي واحد قد يحتوي على بذرة حياة بأكملها . بالثازار مثلاً ، وقد التقى بكليا وهي واقفة ازاء ستارة من البروكار الاحمر وفي يدها كأس من البيرنو قال : «كليا ، ان عندي ما أود قوله لك » . وعبّ وهو يتكلم من شقرة شعرها الدافئة ولون جلدها العسلي الذي كان بلون السكر المحروق تقريباً لكثرة ما عرّضت جسمها لشمس الربيع : « ماذا ؟ » كانت عيناها البريئتان الزرقاوان بلون أزهار الترنجان تحتلان مكانهما كجوهرتين جميلتين من صنع صائــغ أمضى حياته في صنعهما . « تكلم يا عزيزي » . رأس من الشعر الاسود (كان يصبغه) ، وصوت خفضه الآن ولكنه احتفظ فيــه بنغمة النقيق

التهكمي المعتاد . قال بالثازار : « لقد جاء ابوك ليراني . انه قلق لعلاقة غير مشروعة قيل إنك قد انشأتها مع امرأة اخرى . انتظري — لا تتكلمي ، ولا تظهري بمظهر من أوذي » . فقد كانت كليا تبدو الآن كأنه يضغط رضّاً في جسمها ، وقد اتخذ فمها الحزين تعبيراً طفولياً ، يتوسل اليه ان لا يستمر في التدخل . « انه يقول انك بريئة ، وطيبة القلب ، وان الاسكندرية لا تسمح لابرياء النفوس ب ... »

« ارجوك يا بالثازار ! »

« ما كنت لأتكلم لو لم أتأثر لذلك الجزع الأكيد الذي انبعث من اعماق قلبه — انه لم يكن يخشى من فضيحة ما : من يعبأ بالاشاعات ؟ ولكنه قلق عليك ، يخاف ان يصيبك الاذى . »

وقالت كليا بصوت خافت مضغوط كأنه رزمة من الأفكار ضغطت بالآلة الى جزء من مئة من حجمها الطبيعي :

« انني لم أختلِ بجوستين منذ سنة . أتفهم هذا ؟ لقد انتهت علاقتي بها عندما انتهت اللوحة . فاذا كنت تريدنا ان نبقى صديقين ، انت وأنا ، فانك لن تشير الى هذا الموضوع مرة اخرى » . وابتسمت ابتسامة مغتصبة . ففي هذه اللحظة جاءت جوستين تختال نحوهما وهي تبتسم ابتسامة دافئة مشرقة . (انه من الممكن جداً ان نحب اولئك الذين نجرحهم اكثر من الجميع) . ومرت تتمايل في ضوء الشموع كطائر بحري كبير ، الى ان وصلت حيث أقف انا وهمست تقول : « لن استطيع ان اجيء الليلة ؛ نسيم يريدني ان ابقى في البيت . » انني لم أزل اشعر بشدة خيبتي لكلماتها ، خيبة عجزت عن فهم ما قالته . وتمتمتُ قائلاً : « يجب أن تأتي . » أنّى كان لي ان اعرف انها قبل ذلك باقل من عشر دقائق كانت قد قالت لنسيم وهي تعرف كرهه للعبة البريدج : « يا حبيبي ، هل استطيع ان اذهب والعب البريدج مع آل سيرفوني — هل تحتاج الى السيارة ؟ » لا بد ان هذه الأمسية كانت من تلك الأمسيات النادرة التي وافق فيها بورسواردن على ان يلتقي بها في

الصحراء — لقاءات كانت تهرع مسرعة اليها ، كمن يسير في نومه . لماذا ؟ لمـــاذا ؟

كان بالثازار يقول في هذه اللحظة : « لقد قال ابوك : « انني لا استطيع ان احتمل مراقبة هذا الأمر ، ولست أعرف ما افعل ، انه اشبه بمراقبة ولد صغير ينط قرب آلة ضخمة غير مؤمنة بحاجز ! » وطفرت الدموع الى عيني كليا ثم تلاشت ببطء واستمرت ترشف من كأسها ثم قالت : « لقد انتهت العلاقة . » وتحولت عن الموضوع وعن بالثازار في نفس اللحظة ، وبدأت الآن ، تحادث الكونت بانوبيولا ، وآثار الحزن بادية حول فمها ، وانحنى لها الكونت متودداً كما يفعل ببغاء سكوبي الاخضر عندما يريد ان يجثم في قفصه . وسرّها ان ترى ما لجمالها من تأثير واضح عليـــه ، كأنه سيل من السهام الذهبية . ومرت جوستين نفسها مرت ثانية وفي مرورها امسكت بزند كليا . وسألتها كليا باسلوب من يسأل عن طفل مريض : « كيف تسير الامور ؟ » وعلا وجه جوستين طيف من عبوس ، وهمت بصورة درامائية : « آه ، يا كليا — ان الامر سيىء للغاية . اية غلطة فظيعة ! ان نسيماً رائع — وما كان يجب ان اقدم على هذا الأمر . فأنا ملاحقة اينما ذهبت . » وتبادلتا برهة نظرات العطف والحنان . كان هذا لقاءهما الاول منذ شهور عديدة . (في عصارى ذلك اليوم ، كان بورسواردن قد كتب : « بعض كلمات سريعة عن هـــذا المساء لا تخلو من محبة اكتبها وانا في فراش مرضي » . غير أنه لم يكن في الفراش ، بل في مقهى على الشاطىء ، وكان يبتسم وهو يكتب .) رسائل اعلنت واخرى بقيت مكنونة في القلب ، تتقاطع وتتشابك ، حاملة تيارات حياتنا ، ومخاوفنا ورياءنا واحزاننا . كانت جوستين تتحدث عن زواجها الذي كان يبدو للعالم الخارجي واضح الشكل والمعنى — قالب الجبس لكمال حسدته انا نفسي عندما تعرفت عليهما لأول مرة .

« زواج العقول المخلصة » هذا ما فكرت فيه ؛ ولكن اين هو ذلك

« الحيوان الرائع ذو الرأسين ؟ » عندما بدأت تدرك لأول مرة غيرة نسيم القطيعة ، غيرة الرجل العاجز روحياً ، ريعت وفزعت وادركت انها قد وقعت خطأ في مصيدة . (كانت كليا ترقب كل هذا كما تراقب لائحة الحمى لمريض مصاب — وقد راقبته مدفوعة بشعور الصداقة الخالصة دون ان يكون عندها اية رغبة في تجديد الحب الذي شعرت به لهذه اليهودية المشوشة التفكير العاجزة عن فهم نفسها .)

اما جوستين فانها نظرت الى المشكلة بطريقة اخرى ، بطريقة بدائية ، فقد فكرت في نفسها قائلة انها حتى الآن قد حكمت على رجالها برائحتهم ! وهذه كانت المرة الاولى التي اهملت ان تستشير احساسها . لقد كان لنسيم نقاء هواء الصحراء الخالي من كل رائحة ، الصحراء في الصيف ، جافة ومليئة بالألغاز . نقيّ ! لكم كانت تكره النقاء ! ثم بعد ذلك ؟ نعم ، لقد شعرت بالاشمئزاز من الصليب الذهبي الصغير الذي استكن بين الشعرات النامية على صدره . لقد كان قبطياً مسيحياً . هكذا تفكر النساء في سريرة نفوسهن . ولكنها ، لخجلها من هذه الأفكار ، ضاعفت عنايتها بزوجها ومظاهر ولعها به ؛ مع انها كانت ، حتى في غمرة القبلات ، تتوق في اعماق سريرتها الى هدوء الترمل وسلامه ! اتراني اتخيّل هذا جميعه ؟ لا أظن ذلك .

كيف حصل هذا كله ؟ اننا لكي نفهمه يجب ان نعود الى الوراء خلال تعليقات بالثازار الوافية التي نسجها حول مخطوطتي ، لنصل الى تلك اللحظة في الزمن عندما قوطعت اللوحة التي كانت ترسمها كليا بقبلة . انه يبدو غريباً ان انظر اليها الآن ، تلك اللوحة غير الكاملة ، وهي موضوعة على رف الموقد القديم الطراز في هذا البيت في الجزيرة . كان قد خطر لها خاطر لم يصل بعد الى الشفتين . ثم ، برقة ، وقعت شفتاها حيث كان يجب ان تقع الفرشاة الرطبة . قبلات وضربات الفرشاة . كان يجب ان تكون ميليسا المسكينة موضوع كتابتي ! .

ما اشد ما هو منفّر هذا الموضوع جميعه — الموضوع الذي اسماه بورسواردن « قبلة الاخدان الخالية من الطعم » ؛ وما أبرأه ! كان في القفازين الاسودين اللذين كانت تلبسهما جوستين فرجة صغيرة مفتوحة تبدو عندما تزررهما — على شكل قلب . وكانت تلك القبلة البريئة المضحكة تنطق فقط بالاعجاب والشفقة ، شفقة كليا التي اثارها ما كانت ترويه لها جوستين عن قصة فقدها لطفلتها — ابنتها التي كانت قد سرقت منها عندما كانت تلعب على ضفة النهر . « زنداها ، زنداها الصغيران ، لو أنك رأيت كم كانت جميلة ووديعة — سنجاب صغير . » في بحة الصوت ، في العينين الحزينتين وفي الشفة المتدلية قليلاً ، والغمازتين على الخدين ، ثم في اليد الممدودة وقد ضمت الابهام الى السبابة لتصور استدارة ذينك الزندين الصغيرين . وتناولت كليا يدها وقبلت الفرجة في القفاز الاسود . كانت في الحقيقة تقبل الطفلة ، الام . ومن هذا العطف الهائل المنبثق عن براءتها ولد ذلك الحب العقيم الفتاك . انني اسرعت كثيراً في السرد ، ولكن كيف سيتسنى لي ان اوضح مشاهد لا أتخيلها انا نفسي إلا بكل صعوبة ؟ تينك المرأتين ، الشقراء ، والبرونزية ، في المرسم الذي غزته ظلال المساء في سان سابا ، بين الخرق وانابيب الدهان ومجموعة اللوحات الدافئة التي غطت الحيطان — صور بالثازار ، وداكابو ، وحتى نسيم نفسه اعز اصدقاء كليا ! انه من الصعب ان اولف بينهم جميعاً في لون منسجم تبدو خطوطه الخارجية واضحة .

كانت جوستين في هذا الوقت ... وهي التي جاءت من لامكان ، قد نجحت بحيلة اعتبرها اهل الاسكندرية ماهرة . كانت قد تزوجت من ارناووطي . وهو رجل اجنبي ، ولكنها عادت فنالت احتقار المجتمع اذ تركته في النهاية يطلقها ويهجرها . اما عن مصير الطفلة فلم يكن الناس ليعبأوا به اجمالا ؛ فجوستين لم تكن من سيدات المجتمع ... ولقد اضطرها الفقر الى أن تمثل كنموذج لتلامذة الفن في الاتيلييه لقاء بعض القروش للساعة الواحدة . وقد مرت كليا يوماً في رواق الاتيلييه الطويل اذ كانت جوستين ماثلة أمام

احد الرسامين ، وكانت قد سمعت بها ولم ترها من قبل ، ففجأها جمال وجهها الاسكندراني الاسمر ، وتعاقدت معها على المثول امامها لترسم لوحة لها . وهذا يفسر كيف نمت أحاديث جوستين الطويلة والرسامة تعمل صامتة ؛ فإن كليا كانت تحب ان يتحدّث الاشخاص الذين ترسمهم بحرّية على شرط أن يظلوا ماثلين بلا حراك . كان هذا يمنح تقاطيعهم تعابير مستمدة من اسرار حياتهم الداخلية ، ويملأ نظراتهم بمعان لا واعية لافكارهم — وهو الجمال الحقيقي الذي يبدو الوجه ميتاً من دونه .

لقد كانت براءة كليا السمحة ضرورية لروئية الفراغ الذي عاشت فيه جوستين احزانها الخاصة — ثمار حقيقية لعقل في خلاف مع نفسه : ذلك لاننا نحن نخلق شقاءنا ومصائبنا التي تحمل بصمات اصابعنا . لقد كانت تلك القبلة محاولة فجة لامتلاك لغز التجربة الحقيقية — كما يأمل المتضرع بلمسه لأحد الاولياء ان تنتقل اليه البركة التي يفتقر اليها . ولم تكن القبلة نفسها تتوقع أن تقابل بقبلة مماثلة — ان تكرر نفسها كانعكاس فراشة في المرآة . فلو انها كانت مصممة سلفاً لكانت حقاً بادرة غالية الثمن ، وهذا ما برهنت عليه على كل حال ! لقد صارع جسد كليا ليحرر نفسه من غلاف براءته ، كما يصارع طفل او تمثال من أجل الحياة بين المولّد او اصابع النحّات . كان افلاسها منبعثاً من ريعان الشباب النضر ، واما افلاس جوستين فلا عمر له ؛ وكانت براءتها مجردة من اية حماية ، حالها كحال الذاكرة نفسها التي لا سلطان عليها . ولقد وجدت نفسها في تطلعها الى جوستين واعجابها بحزنها الهادىء اسيرة ، لم يبق لها الا مرارة حب لم تسع هي اليه .

كان « قلبها أبيض » ، كما يقول التعبير العربي المعبر . واذ راحت ترسم رأس جوستين الداكن وكتفيها ، فانها شعرت فجأة كأن ضربات الفرشاة المتتالية اصبحت ترمز الى مداعبات لم تحلم بها قط ، ولم تكن تظن انها تسمح بها ابداً . واذ اصغت الى صوت جوستين القوي العميق يتحدث عن هذه الاحزان ، احزان مرغوبة لأنها تنتمي الى عالم التجربة الحيّ المتحرك ، فانها

حبست أنفاسها وصكّت بأسنانها ، وهي تحاول الآن ان تفكر في دلائل تربية جوستين الراقية ، وبوادر التهذيب العفوية لديها ــ اليدان في حجرها ، الصوت الخافت ، التحفظ الذي يدل على القوة الحقيقية . ومع ذلك ، فحتى كليا نفسها كانت عاجزة عن اي شيء إلاّ مجرد الشفقة على جوستين عندما كانت تقول اشياء كهذه : « انني لا خير بي ، فلست استطيع ان امنح الآخرين شيئاً الاّ ان اسبب لهم الحزن ، كما كان يقول ارناووطي . انه اعادني الى رشدي وعلّمني انْ لا شيء مهم الا اللذة ــ التي هي عكس السعادة ، والجانب المأساوي منها كما أظن . » تأثرت كليا بهذا لانها كانت تدرك ان جوستين في الحقيقة لم تعرف اللذة قط ــ فان الانسان يجب ان يكون كريماً سمحاً ليتذوّقها . اما الانانية فانها قلعة ، صاحبها لا يتحسس الا بذاته ، وهذا الشعور بالذات يلتهم كل شيء حولــه كأنه محلول مفتت أكّال .. ان اللذة الحقيقية تكمن في العطاء ، لا شك في ذلك .

« اما ارناووطي فانه كاد يفقدني صوابي بأسئلته الفاحصة ، وما خسرته كزوجة ربحته كمريضة ــ فان اهتمامه بما اسماه « حالتي » فاق كل حب شعر به نحوي . ثم جعلني فقداني للطفلة اكرهه بعد ان كنت أرى فيه من قبل رجلاً حساساً رقيق الشمائل . لعلك قرأت كتابه « Moeurs » لقد اخترع جزءاً كبيراً منه ــ اخترعه لكي يرضي غروره وينتقم مني كما قال ، للطريقة التي جرحت بها كبرياءه برفضي ان (اشفى) . ان الانسان لا يستطيع ان يبث الروح في العظام . فان قلت لرجل فرنسي : « انني لا أستطيع أن اضاجعك الا اذا تخيلت شجرة نخيل » ، فانه سيخرج ويقطع اول شجرة نخيل يراها . »

كانت كليا انبل من ان تحب الا حباً مشبوباً ، وفي الوقت نفسه كانت قادرة كل القدرة على ان تحب انساناً لا تحدثه الا مرة في السنة . فان نهر قلبها العميق الهادىء كان يختزن صوره ، ويعكسها ابداً في التيار الجاري ، ويتركها تغوص أعمق الى الذاكرة ، وفي هذه القدرة فاقتنا جميعنا . ان البراءة

الحقيقية لا تستطيع أن تقوم على التفاهة ، وعندما تقترن بسماح القلب وكرمه ، فان هذا الاتحاد يجعل منها اشد الصفات قابلية على ان تُجرح وتؤذى .

كانت هذه التجربة الفجائية قاتلة ، تشبه في توترها ومرارتها تلك السورات العاطفية المضحكة التي تشعر بها التلميذات نحو معلماتهن — ولكنها كانت في منحاها الآخر تحمل طبيعة جوستين الناضجة العنيفة ، خطوط صورة جهنمية لحب مترع بالخبرة كانت جوستين تواجه به دائماً اولئك الذين يقفون امامها — في هذه التجربة شعرت كليا حقاً بآلام الشيخوخة النامية . شعرت بجسدها وروحها يخوران أمام رغبات يعرفان انهما لا يستطيعان تحقيقها ، يعرفان انها ستمزقهما . وفي داخل نفسها شعرت باختلاجات احساس جديد عليها : احساسها بأن شيئاً حيوياً في اعماقها قد انفصل وتجمد كما ينفصل المح عن سائر البيضة . هذه هي الطرق الغريبة التي ينمو بها الناس .

تلك العزيزة المسكينة ! لقد كانت ستعاني نفس التوترات والاختلاجات التي نعانيها جميعنا — فتشعر بجسدها كأنه حوض للكلس الحي سقي بالماء لكي يحرق جثة المجرم التي يغطيها . عالم اللقاءات السرية ، عالم مليء بنوازع تدفع الانسان كأنها مكواة ، وبالشكوك — هذه جميعها هبطت عليها فجأة . وقد كان تشوش عقلها عظيماً حتى انها كانت تجلس وتحملق في جوستين الجديدة ، وتحاول ان تتذكر هيأتها الحقيقية وراء الغشاء الجديد الذي غشاها وبدلها ، السد الذي تختم به افروديت عيون المحبين المريضة ، ذلك السد المقدس السميك الذي لا تنفذ منه الرؤية .

كانت تمضي نهارها في حمى الى ان تحين لحظة لقائها مع محبوبتها . ففي الرابعة كانت تقف أمام باب المرسم المغلق وترى بعين خيالها الزاوية واضحة حيث تجلس جوستين بانتظارها ، تدخن وتقلب صفحات مجلة « فوج » وقد وضعت ساقاً على ساق . ومرة دهمتها فكرة طارئة : « ادعو الى الله ان لا تكون قد أتت ، ان تكون مريضة ، او ان تكون قد رحلت . لكم ارحب باللامبالاة والفتور وما اشد لهفتي اليهما . » وكانت تدهش لهذه

الافكار ، فان مشاعر الاشمئزاز تلك كانت تنبعث بالضبط من نفس المنابع التي نبعت منها رغبتها في سماع ذلك الصوت الأبح النبيل مرة أخرى — وتنبثق من توقعها ان ترى محبوبتها مرة اخرى . وكانت هذه الازدواجية في المشاعر تحيرها وترعبها بفجائيتها .

وطالما كانت تنتابها الرغبة في ان ترحل لكي تصبح اشد ارتباطاً بصاحبتها . الغبية المسكينة ! لقد عانت كل لون من الوان خداع النفس التي تشكل علاقة الحب ، لم يوفّر عليها منها شيء . وحاولت ان تعود الى تذوّق لذّات اخرى ، ولكن لتكتشف فقط انه لم يكن لديها لذات اخرى . كانت تعرف ان القلب يتعب من الرتابة ، ان العادة واليأس هما ضجيعا الحب ، فانتظرت صابرة كما تفعل امرأة طاعنة في السن ، لكي يتخطى الجسد نوازعه واحاسيسه ، ويخلص نفسه من علاقة لم تكن هي تسعى اليها . ولكنها انتظرت عبثاً ، ففي كل يوم كانت تغوص فيها اعمق وابعد . ومع ذلك فانها قد ادت لها خدمة واحدة قيّمة — لقد برهنت لها ان علاقات كهذه لا تستجيب الى متطلبات طبيعتها الحقيقية ، تماماً كما يشعر الرجل في قرارة نفسه منذ الساعة الاولى بأنه قد تزوج امرأة لا تصلح له ، ولكنه لا يملك ان يفعل شيئاً ازاء هذه الحقيقة . لقد عرفت انها اصبحت امرأة اخيراً ، امرأة تنتمي الى الرجال — وهذا منح تعاستها شعوراً بالارتياح .

ولكن تشويه الواقع كان مثيراً وشيقاً لها ، فقد كانت تدرك ان بعض التشويش في المشاعر يحمل قيمة كبيرة الى الفنانة فيها . وفي سيرها نحو الرسم كانت تشعر فجأة كأنها قد تجردت من مادة الجسد واصبحت خيالاً ، صورة مرسومة على الخيش . ويصبح تنفسها مؤلماً ، يستولي عليها بعد لحظة شعور كثيف بالسعادة والعافية فتحس كأنها قد اصبحت خفيفة بلا وزن ، وكأن ثقل حذائها وحده هو الذي يثبتها على الارض ، ولكنها معرضة الى أن تطير في أية لحظة عن سطح الأرض وتخترق غشاء الجاذبية ، عاجزة عن التوقف . كان هذا الشعور نفاذاً يخترق أعماقها ، حتى انها اضطرت ذات

مرة الى أن تقف وتتمسك بأقرب جدار ، ثم تسير حذاءه وقد انحنت انحناء شديداً كما يفعل انسان على ظهر سفينة في الزوبعة . وكان يتبع هذا أحاسيس اخرى مزعجة — كشعورها بكلابة حارة حول جمجمتها ، تضغطها ، ثم شعورها بخفق الأجنحة في اذنيها . واذ كانت تقبع في الفراش وهي نصف حالمة ، كانت تشعر فجأة كأن قروناً قاسية تخترق دماغها وتكبل تفكيرها ؛ وقد رأت في غمامة من نور أحمر نحاسي عيني إله الضوء عند الفرس ، حمراوين دمويتين . كانت ليلة رطبة تضيئها فجوات من الضوء في الاحياء العربية ، وخرج فيها المهرجون بجدائلهم الطويلة المدهونة بالزيت وثيابهم المزينة بالبهرج والبرق ؛ وجوه ملائكة سوداء ، الرجال — النساء ، الوافدين من الضواحي . (انني انقل هذه الكلمات من مذكرات مريضة كان بالثازار يعالجها — انهيار عصبي بسبب « الحب » — اترى كان حباً متبادلاً ام غير متبادل ؟ ولكن ما أهمية هذا الأمر ؟ ان اسباب الحب والجنون متماثلة الا من حيث الدرجة ، وهذا الوصف لا ينطبق على كليا وحدها بل علينا جميعنا بلا شك .)

ولم تتحدث جوستين إلى كليا عن الماضي وحده ، ولكنها حدثتها ايضاً عن الحاضر الذي كان يثقل كاهلها ، مليئا بقرارات يجب أن تُتخذ . اما مشاعر كليا نفسها فلم تكن جوستين لتفهم لها معنى . فكما قد تجهل البغي ان ضيفها شاعر قد يخلدها في مقطوعة شعرية لن تقرأها أبداً ، فإن جوستين بممارستها لهذه اللذات الجنسية العنيفة ، لم تكن واعية بأنها قد تؤثر في كليا لسنوات عديدة ، وتضعف قوتها على منح حب كامل غير منقسم على نفسه — حب كانت كليا معدة بطبيعتها ومزاجها لان تمنحه أكثر من أي شيء آخر ، سنوات صباها . ومع ذلك فان تلك المخلوقة البائسة لم تقصد ان تسبب أي ضرر ، بل كانت مجرد ضحية رغبة ارضاء الآخرين — رغبة كامنة في نفوس جميع الشرقيين ، فأحبت أن تمنح هذه الصديقة الذهبية تلك الكنوز التي جمعتها بتجربتها الخاصة ، كنوزاً كانت حتى الآن لا تحمل لها هي معنى

حقيقياً بعد . ولقد منحتها كل شيء ، لجهلها بقيمة كل شيء ، فأية مخلوقة حديثة العهد بأهواء النفس ! لقد كان باستطاعتها ان تستجيب لأي حب (انى كان هذا الحب) ، ولكن بغبطة الصداقة وحدها ، فلم يكن جسدها يعني لها شيئاً بالفعل . كانت غريرة . وكان تواضعها عظيماً . هذا النوع من العطاء منفر وغير ناجح ، انه بسيط بساطة العربي ، وفج كعادات الشرب عند الفلاحين . انه عطاء ولد منذ زمن طويل ، قبل أن تتكون فكرة الحب في نفس الاوروبي المجزأة – تلك الفكرة التي كانت معرفته بها (او اختراعه لها) ستجعله اكثر المخلوقات عرضة للأذى ، ولانواع من الجوع لا يقتلها الا الشبع الذي يعجز في الوقت نفسه عن اروائها ؛ لقد غدت أدباً مفعماً بالاشواق والتطلعات ، كان لولاها خليقاً بأن ينتمي الى الدين ، قطب فعاليته الحقيقي . كيف يقول الانسان هذه الاشياء ؟

أترى كان أمراً ذا قيمة – ان امرأة شوشتها سورات مشاعرها ، امرأة معذبة اغرقتها مناحي شخصيتها المتعددة المرعبة التي لم تدركها قط ، ترمي بنفسها كجندي يخاف الموت ، الى قلب المعركة لكي تجرح اولئك الذين أحبتهم وأعجبت بهم أكثر من الجميع – كليا ، انا ، وأخيراً نسيم ؟ هنالك من ولدوا ليمنحوا الخير والشر اكثر من سواهم – انهم اولئك الذين يحملون بلا وعي منهم امراضاً لا يستطيعون لها شفاء . وانني أعتقد انه من المفيد ان ندرسهم ، فلعل في مقدورهم ان يقووا نوازع الخلق عند الآخرين ، بقدر ما ينشدون وينشرون من فساد وفوضى . انني لا اجرؤ على القول بأن جوستين كانت غبية او عديمة الشعور . ولكن كل ما أستطيع قوله هو انها لم تكن تدرك ما يجري في أعماقها (آلة التصوير المظلمة الموجودة في القلب) . ولم يكن بمقدورها ان تضع اطاراً محكماً لصورتها المرعبة التي تكشف عن افتقارها الى المعنى والمضمون في عالم الافعال العادية . كانت الهاوية التي تحيط بها ذات ميزة واحدة – افلاس في القيم ، عجز عن اعطاء المعنى للاشياء ، من شأنه أن يقتل الفرح الذي هو فضيلة نفس اكتشفت طريق السعادة العظيم ،

فلا يخجلها عريها . انه من السهل علي ان انتقل الآن اذ اصبحت ارى حقيقة معضلتها ومعضلتي بوضوح اكبر ، ولا شك انها كانت تشعر بالخجل المرير للحيلة التي كانت تلعبها عليّ وللخطر الذي كانت تعرضني له . ففي احدى المرات اذ كنا جالسين في مقهى الباب نشرب كأساً من العرق ونتحدث ، انفجرت باكية وقبلت يدي قائلة : « انك رجل طيب ، في الحقيقة انك رجل طيب ، وانني آسفة جداً . لمَ ؟ لدموعها ؟ لقد كنت أتحدث عن جوته . أي احمق انا ! أي غبي ! لقد ظننت انني اثرتها بالاسلوب المنطقي الحساس الذي كنت اتحدث به . وكم قدمت لها من هدايا ، وهذا ما فعلته كليا ايضاً من قبل وهذا ما كانت تفعله الآن . والأمر الغريب ان ذوق كليا المترف في اختيار الاشياء ذات القيمة والجمال ، قد فارقها لأول مرة — تلك الفنانة الحساسة الرفيعة الموهبة — فكانت تهديها احلاقاً ودبابيس من نوع عادي جداً يلائم الذوق الاسكندراني ! انني عاجز عن فهم هذه الظاهرة ، الا اذا كان الحب يعني ان العاشق يصبح مسلوب اللب ...

ولكن أنى لي ان اعرف على وجه التأكيد ؟ ان هذا يذكرني بتعليق جاف لبالثازار حول هذا الأمر . لقد كتب في الهامش : « ان الانسان ينزع الى التحدث باسلوب وعظي عن هذه الأمور — ولكن من يستطيع ان ينهر نفسه اذا ما مد يده ليقطف تفاحة ناضجة متدلية فوق جدار دفأته الشمس ؟ ان اغلب النساء ممن لهن مزاج جوستين ونشأتها لا يجرؤن على تقليدها حتى ولو كان لهن مطلق الحرية ليفعلن ذلك . او ليس مرهقاً للروح ان تحتمل وطأة الاحلام والتوعكات لكي يجد الطبيب جبيننا حاراً دائماً ؟ لست أدري . انه من الصعب أن يعزل الانسان مزية اخلاقية عن غيرها في أثناء ممارستها للفعل الحر . ثم ان هناك نشوة اضافية ممتعة في مغازلة الإنسان لمن هو أقل معرفة وخبرة منه . انها تنبثق من ادراكه بانه يضلله ، ويرميه في وحول الهوى والرغبات — تلك الوحول التي تنبعث منها أيضاً القصائد والنظريات عن الله . لعله من الحكمة ان لا يعطي الانسان حكماً قاطعاً » .

غير انه كانت تقبع ، خارج نطاق هذا كله ، مشكلات اخرى تنتمي الى الحياة اليومية كانت جوستين تشعر ازاءها بالحاجة الى من يطمئنها : « انني دهشة وفزعة قليلاً لان نسيماً ، الذي لا أكاد اعرفه ، عرض علي الزواج . هل لي أن اضحك ، يا غاليتي كليا ، ام اخجل ، ام الامرين معاً ؟ » ولشدة براءة كليا فانها ابتهجت لهذا الخبر ، فقد كان نسيم اعز اصدقائها ، ووجدت فكرة هذا الزواج فكرة منعشة وحلاً لكل شيء ، لان مكانة نسيم الرفيعة ورقته سيكونان سنداً يحمي جوستين من تعاستها الحقيقية . ان الانسان عندما يحتاج الى من ينقذه من الفوضى التي خلقها هو حول نفسه ، لن يجد أروع من أن يمر فارس في تلك اللحظة بالقرب منه . ووضعت جوستين يديها على عينيها وقالت بصعوبة : « وللحظة قفز قلبي من بين ضلوعي وكدت اقول « نعم » ، آه ! كليا يا عزيزتي ، انك ستخمنين لماذا . انني احتاج الى ماله لأبحث عن الطفلة — فلا شك انها في مكان ما في مصر ، وحيدة ، تتعذب عذاباً فظيعاً ، وقد تكون مضطهدة » . وبدأت تبكي ثم توقفت فجأة وقالت بغضب : « ولكي احمي نسيم واحمي نفسي من اي كارثة قد تنجم ، قلت لنسيم (انني لن استطيع ابداً ان احب رجلاً مثلك : انني لا استطيع ابداً ان امنحك لحظة سعادة ، اشكرك والوداع) » :

« ولكن هل انت متأكدة من هذا القرار ؟ »

« أن اتزوج رجلاً لثروته ، والله لن افعل ! »

« جوستين ، ماذا تريدين ؟ »

« اولاً الطفلة . ثم بعد ذلك اريد ان اهرب من عيون العالم الى زاوية هادئة استطيع فيها ان اصبح سيدة نفسي : فهناك مناح كاملة من شخصيتي لا افهمها : وانني احتاج الى الوقت الكافي لفهمها . اليوم كتب نسيم الي مرة اخرى . ترى ماذا يريد ؟ انه يعرف كل شيء عني » .

ومرت هذه الفكرة في عقل كليا : « ان اخطر شيء في العالم هو حب

يبنى على الشفقة . » ولكنها طردت الفكرة وسمحت لنفسها مرة اخرى بأن ترى خيال هذا الرجل الرفيق الحكيم ، الذي لا يعرف المداهنة ولا المواربة ، يواجه تيار مصائب جوستين الجارف ويدرأها عنها . اترى اظلمها ان عزوت اليها رغبة اخرى يحققها هذا الحل ؟ (وهي ، أن تتخلص من جوستين ، وأن تتحرر من المطالب التي ترهق بها قلبها وعقلها . كانت قد توقفت كلياً عن الرسم .) ان لطف نسيم – ذلك الرجل الطويل الاسمر الذي كان يتجول بتحفظ في اروقة المجتمع – كان يحتاج الى مثل هذه المهمة ليحقق ذاته ؛ فكيف يمكن لفارس اصيل ان يتصرف كفارس إن لم تكن هناك حصون وعذارى يائسات فيها ؟ ولقد تشابهت همومهما في كل شيء – الا في الحاجة الى الحب .

قالت كليا « ولكن المال ليس مهماً » . ويقينا انها كانت تعرف ان قولها هذا ينطبق تماماً على نسيم . فهو نفسه لم يكن يعبأ بالثروة الواسعة التي كان يملكها . ولكن يجب ان يضيف الانسان انه قد ندت عنه بادرة نحو جوستين اثرت فيها وغمرت مشاعرها . التقيا اكثر من مرة ، بصورة رسمية ، كشركاء اعمال ، في ردهة فندق سيسيل لكي يبحثا في أمر هذا الزواج ، ببرود السماسرة الاسكندرانيين اذ يدبرون مشروعاً يتعلق باسهم شركات القطن . هذا هو اسلوب المدينة . نحن عقلانيون ، ودنيويون ، وقد اقمنا فارقاً واضحاً بين حياة الاهواء والعواطف وبين الحياة العائلية . هذه التمييزات والفوارق جزء من التركيب الشامل لحياة اهل البحر المتوسط ، وهي عريقة في القدم ومألوفة كل الالفة . قال لها وقد تضرج وجهه بحمرة الحياء وانحنى رأسه : « قد يكون صعباً عليك ان تتخذي قراراً بشأن الزواج لعدم تكافؤنا بالثروة ، ولذا فاني اودّ ان اقدم اليك هدية بمناسبة عيد ميلادك تمكنك من ان تفكري كانسان مستقل كل الاستقلال – كأمرأة ، يا جوستين . هذه المادة الكريهة التي ترحف الى افكار كل شخص في المدينة وتسمم كل شيء ! دعينا نتحرر منها قبل ان نقرر شيئاً » . ووضع على الطاولة حوالة صغيرة خضراء كتب

عليها « ثلاثة الاف جنيه » . وقال بسرعة اخيراً وهو يتلعثم من لهفته : « آمل ان لا يكدرك هذا » . فقالت « لا — انه ككل شيء تفعله ، ولكن ماذا عساي ان افعل وانا لا احبك » . ؟

« بالطبع يجب ان لا تحاولي ان تحبيني ابداً »

« إذن فما هو نوع الحياة التي سنعيشها ؟ »

ونظر نسيم اليها بعينين منفعلتين خجولتين ثم ارخى نظرته الى الطاولة كمن يتلقى توبيخاً قاسياً . وقالت هي بعد فترة من الصمت : « اخبرني . ارجوك ان تخبرني . انني لا احب ان استفيد من ثروتك ومركزك ثم لا اعطيك شيئاً مقابل ذلك يا نسيم » . فأجاب برقة : « اذا كنت تهتمين بان تحاولي ، فاننا لا نحتاج الى ان يخدع الواحد منا الآخر . هذه الحياة ليست طويلة جداً . ومن واجب الانسان نحو نفسه ان يبحث عن وسيلة للسعادة » .

وسألته جوستين فجأة وقد شعرت بالاشمئزاز من لهجته ، بالرغم من انها اثرت فيها تأثيراً عميقاً جداً : « هل كل ما في الأمر هو انك تريد ان تنام معي ؟ هذا بامكانك . نعم . آه ! انني اود ان افعل اي شيء من اجلك يا نسيم — اي شيء » .

ولكنه انكمش على نفسه وقال : « انني اتكلم عن تفاهم تحتل فيه الصداقة والمعرفة مكان الحب حتى يجيء هذا كما ارجو . بالطبع سأنام معك — واكون انا العاشق وتكونين انت الصديقة . ومن يدري ؟ لعلك ستحبينني بعد سنة . وعلى كل حال ان جميع الزيجات الاسكندرانية مغامرات تجارية . يا الهي يا جوستين ، اية حمقاء انت ! الا ترين انه قد يحتاج الواحد منا الى الآخر دون ان ندرك هذا تماماً ؟ انه امر يستحق التجربة . وقد يقف كل شيء في الطريق ، ولكني لا أستطيع التغافل عن انك انت هي المرأة التي احتاج اليها اكثر من أي امرأة سواها في طول المدينة وعرضها . ان الرجل هنا يستطيع ان يحصل على أي عدد يريده من النساء . ولكن أن يريد الانسان لا يعني انه يحتاج . فقد اريد غيرك ولكنني احتاج اليك انت ! غير انني لا اجرؤ

ان اقول نفس الشيء عنك . ما اقسى الحياة وما اشد ما هي مضحكة . »
لم يقل لها احد شيئاً كهذا من قبل – لقد عرض عليها شراكة اعدت ببرود شديد ، ولكنها كانت مع ذلك نقية في نواياها . ولذا فقد استحقت الاعجاب .
قالت ببطء : « انك لست ذلك النوع من الرجال الذي يغامر بكل شيء في ضربة واحدة . »

واجاب : « ان اصحاب البنوك عندنا بالرغم من المعيتهم فيما يتعلق بالمال ، اشتهروا بضعفهم تجاه النساء » . ووضعت يدها على زنده : « يجب ان يفحصك طبيبك يا عزيزي . فاية مخاطرة في ان تتزوج امرأة قالت بانها لن تستطيع ان تحبك ابداً . آه ، لا ! »

لم يقل شيئاً البتة فقد ادرك ان كلماتها لم تكن موجهة اليه ، بل كانت جزءاً من مناقشة داخلية طويلة مع نفسها . كم بدا جميلاً وجهها الفاتر . انها لم تكن تصدّق أبداً ان الانسان قد يقدرها لذاتها – ان كان لها ذات حقيقية بالفعل . وفكر انه كان حقاً اشبه بمقامر وضع كل شيء يملكه على البكرة الدائرة . وكانت هي تقف الآن على شفا قرار كمن يسير في نومه على صخرة عالية . اتراها ستستيقظ قبل ان تقفز ام تستمر في حلمها ؟ ولكونها امرأة فقد شعرت بأنه من الضروري ان تضع شروطاً لها ؛ ان تغوص الى اعماق سريرتها كلما امعن هذا الرجل في التطفل عليها برقته المغرية المستمرة .
وقالت : « نسيم ، استيقظ » وهزته بلطف .

قال بهدوء : « انني مستيقظ . »

وفي الخارج كانت السماء تمطر رذاذاً فوق الميدان الكبير ، بنخلاته التي قضمتها رياح البحر . كان اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو اليوم الاول من ايام عيد الاضحى ، وكانت جماعات من الاهلين يتجمّعون للموكب الكبير بجلابيبهم الملونة ، وهم يحملون اعلاماً حريرية كبيرة ومباخر ، شعائر الدين الذي يؤمنون به ، وقد راحوا ينشدون مقاطع من الاوراد ، اوراد الجنس النوبي المنسيّ الذي يبعث بعثه الكبير من جديد كل سنة في جامع النبي

دانيال . كان الحشد متألقاً وقد زينته الالوان البدائية . ويموج الهواء بأنغام الصنوج ، بينما كان ينطلق ، في فترات السكون التي كانت ترين هنا وهناك فوق الصراخ والنشيد ، صوت قرع الطبول المفاجىء بعد ان يُحمّى جلدها ببطء ويشتد فوق مجامر النار المشتعلة . وكانت الخيول تئن بينما خفقت الاعلام الصغيرة على رؤوس الرماح كالاشرعة في مساء رصّعه المطر . ومرت عربة مليئة ببغايا المدينة العربية وهن يرتدين الاثواب الملونة وقد انطلقت منهن الصرخات والزعقات الحادة ، كما انطلق غناء الشبان المصبوغي الوجوه ليواكب ضربات الصنوج وطنطنات العود : كان المشهد جميعه بهياً رائعاً كحيوان استوائي :

وقالت جوستين بحماقة : « نسيم ، ان عندي شرطاً واحداً فقط — هو ان ننام معاً هذه الليلة . » وتقلصت تقاطيع وجهه وصك باسنانه اذ قال بغضب : « يجب ان يكون عندك شيء من الذكاء يعوض عن افتقارك الى التربية الراقية — اين ذكاؤك ؟ »

« انني آسفة » وقد رأت الآن انها قد ازعجته فجأة ازعاجاً شديداً . « لقد شعرت بالحاجة الى الاطمئنان . » وشحب لونه تماماً الآن .

ثم قال وهو يعيد الحوالة الى محفظته : « لقد اقترحت شيئاً مختلفاً كل الاختلاف . انني دهش لعدم فهمك . بالطبع اننا نستطيع ان ننام معاً اذا كنت ترغبين في ان تجعلي من ذلك شرطاً . لنأخذ غرفة في الفندق هنا ، الآن ، في هذه اللحظة . » كان يبدو رائعاً عندما يجرح احساسه على هذا الشكل ، وفجأة بعث في اعماقها ادراك جديد هو ان هدوءه لم يكن ضعفاً ، وانه كان هناك نوع غير عادي من الحساسية كامن تحت هذه الأفكار المشوشة والكلمات المتأنية الرصينة ، لعلها لم تكن حساسية منطوية على الخير . وتابع كلامه برقة اكبر : « وماذا يمكن ان يبرهن الواحد منا للآخر بالمعاشرة او بعكسها ، بعدم المعاشرة اطلاقاً ؟ » ورأت الآن كم كانت كلماتها خارجة عن سياق تفكيره كلياً ، فقالت : « انني خجلة خجلاً مريراً لتبذلي . »

دون ان تعنيه في الحقيقة ، وانما كان منها انصياعاً لعالمه وله نفسه ــ لعالم كان يُعنى بالمسلك الرفيع وكانت هي حتى الآن اخشن من ان تستطيع التمتع به ، لعالم كان في وسعه ان ينمي العواطف التي يمليها الذوق الرفيع ، لعالم لا يمكن ان يرفضه الانسان الا بعد ان يصبح شديد الالتحام به . لا ، انها لم تكن تعني كلمات الاعتذار تلك ، ذلك لانه بالرغم من ابتذال الفكرة وفجاجتها ، فانهـــا كانت تدرك بانها كانت عـــلى صواب فيما يتعلق بهـــذا الشرط المنبثق من حدسها ، لان الشيء الذي اقترحته انما هو بالنسبة للنساء المفتاح الحيوي لكينونة الرجل ، ولمعرفته ، لالمعرفة صفاته الممكن تحليلها او استنتاجها ، ولكن لمعرفة نكهة شخصيته . فما من شيء يمكن ان يعرّف الواحد منا على حقيقة الآخر الا عملية الحب الجسدي . لقد اسفت اسفاً مريراً لقلة الحكمة التي جعلته يحرمها من الفرصة الملموسة لترى لنفسها ما كان يكمن تحت جماله واغرائه ، ولكن كيف يستطيع الانسان ان يلح ؟

قال : « حسناً ، فان زواجنا يجب ان يكون علاقة مرهفة ، ومسألة سلوك رفيع الى ان ــ »

« انني آسفة . فلم اعرف في الحقيقة كيف اعاملك بشرف وكيف اتجنب ما يسبب لك الخيبة » .

وقبلها في فمها قبلة خفيفة ونهض واقفاً : « يجب ان اذهب اولاً واحصل على موافقة والدتي واخبر اخي . انني سعيداً جداً ، مع اني غاضب جداً منك الآن » .

وخرجا معاً الى السيارة وشعرت جوستين بانها موهنة القوى ، كأنها قد انتزعت من اعماق ذاتها وهجرت في منتصف المحيط ، « لست اعرف ما اقول بعد . »

« لا شيء ، يجب ان تبدئي بالعيش . » قال ذلك اذ بدأت السيارة تبتعد ، وشعرت هي كأنها تلقت صفعة على فمها . فذهبت الى اقرب مقهى وطلبت قدحاً من الشوكولاطه الساخنة شربته بيدين مرتجفتين . ثم سرحت

شعرها وجددت زينة وجهها . كانت تعرف ان جمالها كان لمجرد الاعلان ، وبشيء من الاحتقار حفظته دائماً ندياً . لا ، في مكان ما من نفسها كانت امرأة حقيقية .

وصعد نسيم في المصعد الى مكتبه وجلس الى طاولته وكتب الكلمات التالية على بطاقة : « يا عزيزتي الغالية كليا ، لقد وافقت جوستين على الزواج بي . ولم اكن لاتزوجها لو اني ظننت انه سيبدل من صفة حبها لك او حبي انا لك ، او يتدخل فيه ... »

ثم خطر له بأن كل ما يكتبه لكليا قد يبدو كريهاً ، وشعر بالرعب فمزق البطاقة وطوى ذراعيه . ثم بعد لحظة طويلة من التفكير تناول التلفون وأدار القرص طالباً رقم كابوديستريا . وقال بهدوء : « داكابو ، انك تذكر خطتي للزواج من جوستين ؟ كل شيء على ما يرام . » واعاد السماعة ببطء الى مكانها كأنها تزن طناً ، ثم جلس يحملق في انعكاس وجهه في خشب الطاولة المصقول .

٤

والآن ، بعد ان حقق غايته الكبرى في اقناع جوستين ، تلاشت عنه ثقته بنفسه وتركته يواجه احساساً جديداً عليه ، هو احساسه بالخجل الشديد ، وبالنفور القوي من ان يواجه امه ويجابهها بنواياه . وقد دهش هو نفسه لهذا الاحساس، فقد كان دائماً على علاقة حميمة بها وعلى ثقة متبادلة معها تربطهما عاطفة ودية عميقة لا تحتاج الى التعبير عن نفسها بالكلمات . وان شعر يوماً بالتردد والخجل من احد فمن اخيه لا منها ، اخيه الفج الخالي من اللباقة — والآن؟ انه لم يكن يخشى استياءها — فقد كان يعلم انها ستوافق على رغباته حالما يفصح عنها . فما هو الرادع الذي كان يقلقه؟ لم يستطع ان يعرف . ومع ذلك فقد تضرج وجهه اذ فكر فيها الآن ، وامضى طول ذلك الصباح في القيام بأعمال آلية عصبية ، تناول رواية ثم ما لبث ان طرحها جانباً ، مزج لنفسه كأساً من المشروب ثم هجره حالاً ، بدأ بالرسم ثم رمى بالفحم جانباً وخرج الى حديقة البيت الكبير ، وقد فارقه شعور الارتياح كلياً . كان قد خابر مكتبه ليقول بانه متوعك المزاج ، وبعد ذلك اخذ يعاني من عسر الهضم كما كان يحدث له دائماً عندما يكذب .

ثم شرع في طلب رقم البيت الريفي القديم حيث كانت تعيش ليلى مع نيروز ولكنه عاد فغير فكره وطلب من عاملة التلفون ان تعطيه رقم كراجه .

وقالوا له ان السيارة ستعود عند الظهر وقد غسلوها وبدلوا زيتها .

وتمدد وغطى وجهه بيديه . ثم خابر سليماً ، سكرتيره ، وطلب اليه ان يخابر اخاه ويقول له انه قادم الى كرم ابو جرج لتمضية عطلة آخر الاسبوع . يا للسماء ! ما الذي يمكن ان يكون طبيعياً اكثر من هذا ؟ وقال موبخاً نفسه بحرارة : « انك تتصرف كوصيفة خطبت » . ثم خطر بباله ان يأخذ معه رفيقاً يخفف من وطأة اللقاء — جوستين ؟ محال ، وتناول رواية بورسواردن وعثر فيها على هذه العبارة : « ان الحب اشبه بحرب الخنادق — فانت لا تستطيع ان ترى العدو ولكنك تعرف أنه هناك ، وانه من الحكمة ان تبقي رأسك تحت سطح الارض . »

ودق جرس الباب ؛ واحضر له سليم بعض الرسائل ليوقع عليها ثم ذهب بصمت الى الطابق الثاني ليحزم له حقيبته ومحفظة اوراقه . لقد كانت هناك اوراق يجب ان يأخذها الى نروز ليراها — اوراق تتعلق بالآلة الرافعة التي يحتاجون اليها لتجفيف الصحراء المتاخمة لمزارعهم واستصلاحها . لقد كان التفكير بشؤون العمل انجع علاج لحالته .

كانت ثروة الحصناني موزعة في اتجاهين اثنين ، ومنقسمة الى مجالين مختلفين ولكل من الاخوين مجاله ومسؤوليته . فنسيم كان يدير المصرف ويشرف على فروعه حول البحر المتوسط ، بينما عاش نروز حياة ملاّك قبطي ، لا يبرح ابداً كرم « ابو جرج » حيث امتدت اراضي الحصناني فتاخمت حدود الصحراء ، وراحت تأكل منها بالتدريج سنة بعد سنة . كانت المساحات المزروعة بالخرّوب والبطيخ والذرة تتوسع باستمرار بعد أن ينضج ملحها .

وعاد السكرتير ذو الوجه البازيّ ليقول : « ان السيارة هنا ؛ هل اسوقها انا يا سيدي ؟ » وهز نسيم برأسه سلباً وصرفه بهدوء قبل ان يقطع الحديقة مرة اخرى ، وقد اسند ذقنه الى يده . وتوقف قرب بركة الزنابق ليرقب الاسماك — تلك الدمى الغالية الثمن المتصلة النسب بعهد قدماء الاباطرة اليابانيين ، والباقية دلالة على عصر مترف . وكان قد استوردها بثمن باهظ —

ليجد انها كانت تموت بالتدريج من مرض مجهول — اهو الوحشة والشوق الى بلادها ؟ كان بورسواردن يمضي ساعات طويلة يرقبها . ولقد قال انها ساعدته على التفكير في الفن !

كانت السيارة الكبيرة الفضية اللون واقفة أمام الباب ومفتاح البنزين في موضعه منها . ودخل الى السيارة وهو مستغرق في التفكير ، وساقها ببطء خلال المدينة ، متفحصاً حدائقها وساحاتها ومبانيها بهدوء ، متلكئاً عن عمد منه ، متردداً خائر العزم ، وهو يحاول كلما تذكر المكان الذي يقصده أن يطرد من عقله كل الافكار التي تتعلق به . وعندما وصل الى البحر اتجه الى « الكورنيش » الملتمع في ضوء الشمس ليرقب ، لحظةً من الزمن ، البحر الهادىء والجو الخالي من الغيوم والسيارة توهم لشدة بطئها ، انها واقفة . ثم غير سرعتها على حين غفلة وبدأ يسوقها بتصميم . انه في طريقه الى البيت . وما لبث ان حاد عن طريق الشاطىء الى طريق داخلي ، تاركاً المدينة بنخيلها المطقطق في رياح الربيع ، ومتجهاً نحو اراضٍ قاحلة ، تشابكت فيها الشقوق والصدوع ، وجفّت قيعان بحيراتها ومستنقعاتها . هنا تنتهي الطريق المعبدة ويمتد الدرب الترابي الأسمر بمحاذاة السدود — تلك السدود التي اقيمت فوق مستنقعات سوداء ونما على جانبيها القصب المتشابك ومزارع الذرة بصفوفها المتوازية المتقاطعة . وثار الغبار بين عجلات سيارته واقتحمها مغطياً كل شيء بطبقة من الرمل الناعم . وغشي زجاجَ السيارة الامامي غبار كأنه الثلج فأدار المسّاحتين كي يتمكن من الرؤية .

وتبع دروباً صغيرة متعرجة كان يعرفها عن ظهر قلب ، الى أن وصل ، بعد ساعة او أكثر ، الى لسان من الأرض تحيط به المياه الزرقاء . وترك السيارة في ظل بيت متهدم ، لعله بقايا مبنى جمرك قديم أنشىء يوم كان السفر في النهر ما بين دمياط والخليج مزدهراً ، أما الآن فإنه يتأكّل يوماً بعد يوم وينحل ويتصدع تحت شمس مصر المحرقة ، وقد نسيه اصحابه .

واقفل باب السيارة بعناية وسار في ممر ضيق مخترقاً ارضاً زراعية مما

يستأجرها الفلاحون زرعت بصفوف سقيمة من الفول والبطيخ المعفر بالغبار ، وقد احاطت بها نباتات الذرة الهندية الخشنة الّتي راحت اوراقها تخشخش في النسيم،وخرج منها الى مرفأ صغير حيث كان ملاح شيخ ينتظره بقارب قديم متفكك . وما لبث ان رأى في الحال الحيول تنتظره على الضفة الثانية ونروز بقامته القصيرة واقفاً قربها . واذ رأى نروز نسيماً مدّ ذراعه ملوحاً بحماسة في حركة عسراء تدل على الغبطة . وقفز نسيم الى القارب وقلبه يخفق .

« نروز ! » . كان الاخوان لا يتشابهان أبداً في بنيتهما وهيأتهما . وتعانقا الآن بمودة ، ولكن شعور نسيم كان ممزوجاً بمعاناة صامتة منبثقة من احساس بالخجل جديد عليه .

كان الاخ الاصغر اقصر من نسيم ولكنه اعرض منكباً، وكان يرتدي قميصاً ريفياً أزرق من الطراز الفرنسي مفتوحاً عند العنق ، وقد رفع كميه الى اعلى ليكشف عن يدين قويتين وساعدين مفتولين يغطيهما شعر أجعد داكن ، وقد تمنطق بحزام قديم للفشك من النوع الايطالي تدلى على ردفيه ، وادخل اطراف سرواله التركي المنتفخ في جزمته القديمة المغضّنة المصنوعة من جلد ناعم . واندفع نروز معانقاً أخاه عناقاً متحمساً ثم تراجع بسرعة ، كمصارع يرتد عن خصمه بعد التحامه معه في صراع عنيف . ولكنه عندما رفع رأسه لينظر الى نسيم استطعت ان تلمح حالاً ذلك الشيء الذي سيطر على حياة نروز وتحكم بها كأنه نجمة داكنة . كان اشرم الشفة العليا كأنه قد تلقى ضربة هائلة : وقد ولد على هذا الشكل ولم يتداركها اهله فيخيطوها في الوقت المناسب . وكانت تكشف عن طرف سن بيضاء وانتهت بلسانين ورديين صغيرين من اللحم وكانا مبتلين دائماً . وكان شعره أجعد داكناً تتدلى منه خصلة على جبينه : اما عيناه فرائعتان : تكادان تشبهان عيني كليا بزرقتهما وبالبراءة المشعة فيهما . ولا شك ان بشاعته جميعها كانت تستمد روعة من تينك العينين . وقد اطلق شاربين خشنين اشعثين على الشفة العليا ، كمن يطلق عرائش اللبلاب فوق حائط بشع . ولكن العاهة كانت اشد ظهوراً حيث

كان الشعر خفيفاً ؛ وكانت لحيته القصيرة ستاراً هزيلاً ، فقد بدت وكأنها اطلقت منذ اسبوع واحد فقط . لم يكن لها شكل واضح خاص بها، بل كانت تشوش امتداد عنقه الشبيه برقبة الثور وعظام خديه البارزة . وكانت ضحكته غريبة خجولة تخرج مهسهسة من بين شفتيه . وكان دائماً اذا ما ضحك يحني رأسه الى الأرض ليخفي شفته . كانت جميع حركاته نابية منفرة — ذراعان وساقان مقوسة وقد كساها الشعر كالعنكبوت — ولكنها كانت توحي بقوة هائلة يسيطر عليها صاحبها كل السيطرة . كان صوته عميقاً وباعثاً للنشوة ، فيه شيء من سحر صوت المرأة ذي الطبقة الوسط (Contralto) في الغناء .

كانا يحاولان ان يكون معهما بعض الخدم او الاصدقاء عندما يلتقيان — ليخفّف ذلك من خجلهما ؛ وهكذا فان نروز قد احضر اليوم علياً ، وكيله ، مع الخيل للقاء القارب . وانحنى الخادم الشيخ ذو الاذنين المثلّمتين واخذ حفنة من التّراب من عند قدمي نسيم ، وضغط بهما جبينه قبل ان يمد يده لمصافحته ، ثم اشترك وقد عراه الخجل ، في العناق الذي بادره به نسيم . فإن نسيماً كان قد أحبّ علياً منذ طفولته . وقد فتن نروز بهذه البادرة الرشيقة الاليفة التي بدرت عن أخيه — وضحك مغتبطاً وقد احنى رأسه الى الارض .

وقال نسيم بصوت خافت وهو يمرّ باصابعه على فوديه : « وليلى ؟ »

فقال نروز بنغمة اشبه بتلك التي تنبعث من قوس شُدّت حديثاً : « انها بخير هذين الشهرين الاخيرين والحمد لله . »

كانت امهما احياناً تمر في فترات من التشويش العقلي تستمر اسابيع لتعود فتسترد عافيتها العقلية مرة اخرى . كان مرضها انفصالاً عن العالم الواقعي ونبذاً له ؛ وقد ألفه الجميع ولم يعد يدهش له احد الآن . وكانت هي نفسها تشعر كل مرة بقرب مُداهمته لها فتستعد له . وفي اوقات كهذه كانت تمضي اليوم بطوله في الكوخ الصغير في آخر بستان الورد ، تقرأ وتكتب ، على الاخص تلك الرسائل الطويلة « لماونت اوليف » التي كانت ترسلها الى مقره في اليابان او فنلندا او البيرو ، فيقرأها بذلك الحنان الفائض . كانت تبقى

وحدها ولا رفيق لها الا حية الكوبرا ، تنتظر الساعة التي يهجرها فيها العفريت أو الروح التي تلبستها . واستمرت هذه العادة سنوات طويلة ، منذ موت أبيهما ومرضها بعد ذلك . ولم يكترث اي من الابنين لهذه التغيرات التي كانت تطرأ على مجرى الحياة الطبيعية في البيت الكبير . وقال نروز ثانية بذلك الصوت المثير : « ان ليلى في حالة عقلية رصينة – وهي سعيدة جداً بعودة ماونت اوليف . انها تبدو اصغر من عمرها بكثير . »

« فهمت »

وامتطى الاخوان صهوتي جواديهما وسارا ببطء فوق شبكة الجسور والسدود التي قادتهما فوق البحيرة ، وقد احاطت بها الأراضي المزروعة . لقد كان نسيم يحب عبور هذا الطريق دائماً لانه كان يعيد اليه ذكريات طفولته الباكرة – وقد كانت تلك السنوات اغنى الف مرة بتنوعها وجمالها مـــن السنوات القليلة التي أمضاها في البيت في أبيقير حيث انتقلت ليلى لمدة من الزمن بعد وفاة والدهما . وصرخ : « ستكون جميع المضخات هنا في الشهر القادم . » وقهقه نروز فرحاً . ولكن جزءاً من عقل نسيم كان يسرح عائداً الى كنوز طفولته غير المنسية وقد ايقظت ذكراها هذه الجسور على النهر بامتداداته المتعرجة التي تفصل بين مساحات الاراضي المزروعة . فهنا كانت مصر الحقيقية – مصر القبطية – بينما كانت المدينة البيضاء ، كأنها طيف معفّر بالغبار – مملوءة بخيالات مزعجة هجينة ، غزتها من بلاد غريبة عنها – من اليونان وسوريا وتونس .

كان النهار رائعاً وكانت قوارب النقل تتنقّل بين حقول الفول في اتجاه روافد النهر ، بسواريها الطويلة المحدودبة الدقيقة كالشوك ، واشرعتها المثلثة المنحنية كالأقواس . وفي مكان ما كان احد الملاحين يغني على ايقاعات طبل صغير وقد اختلط صوته بتنهدات السواقي وبالاصوات البعيدة المنبثقة من ضربات النجّارين في القرية وهم يصنعون عجلات بدائية للعربات او محاريث قصيرة النصال ، كان يحرث بها الفلاحون المزارع المستأجرة في

ضفاف النهر المغمورة بالطمي .

وكانت طيور الرفراف الزاهية تتصيد في المياه الضحلة كأنها الصواعق ، فتنزلق أجنحتها بصمت في الماء ، بينما كانت طيور البوم الصغيرة البنية اللون تطير هنا وهناك بين الضفاف وقد نسيت عاداتها الليلية ، او تستكن معاً زوجين زوجين بين الاشجار .

كانت الحقول قد بدأت تمتد الآن على جانبي القافلة الصغيرة ، خضراء ومعطرة بزرعها الغني من البرسيم والفول . غير ان الطريق كانت لم تزل تمعن في الامتداد على ضفة النهر حتى ان خياليهما سارا معهما في الماء . وكانت القرى الصغيرة تنتشر هنا وهناك ببيوتها المبنية من الطين النيء وسطوحها المنبسطة الملتمعة بأكوام الذرة الهندية التي اضفت عليها لوناً أصفر . كانا يمران بين الفينة والفينة بقوافل الجمال تسير نحو قوارب العبور ، او بقطيع من الجواميس السوداء الضخمة وهي تغطس مناخرها اللامعة في نضيفي المجاري الضحلة المتفرعة من النهر الطافحة بالقاذورات ، وتهش الذباب عن جلودها الملساء بذيول سوداء صلبة . كانت قرونها المعقوفة الهائلة تذكر الانسان بلوحات قديمة منسية .

واذ سار نسيم نحو املاك الحصناني كان يتأمل بغبطة في الحياة حوله مستغرباً اسلوبها البطيء الهادىء ـــ نساء يمخضن اللبن في جلود الماعز المعلقة على قائمة ثلاثية الأرجل من القصب ، او يسرن في صف واحد نحو النهر حاملات جرارهن ، ورجال في جلابيب من القطن الازرق يعملون على النواعير وهم يغنون ؛ ونساء التففن من الرأس حتى الكاحل في الأثواب السوداء الخفيفة التي تفرضها التقاليد وقد علاها الغبار وعلق عليها الخرز الأزرق ليدرأ عن صاحباتها العين الشريرة . ثم كل تلك التحيات الودية البدائية التي يتبادلها المارة على الطريق ، وقد اجاب عليها نروز بصوته الجهوري الذي بدا منتمياً الى اللغة والى المكان . كان يصرخ بابتهاج « نهارك سعيد » . او « سعيد مبارك » ، اذ كان المارة يحيون مبتسمين . وفكر نسيم ، بمعاني

العبارات وهو يبتسم ويهز برأسه محيياً ، وقد غلبت عليه روعة هذه التحيات القديمة التي لم يكن الانسان يسمعها الا في الحي العربي من المدينة « ليكن يومك مباركاً كأمسك . »

والتفت وقال : « نروز » ! فسار اخوه قربه بجنان وهو يقول « هل رأيت سوطي؟ » ، وضحك خافضاً رأسه الى الارض وقد بدت سنه خلال الشق في شفته . كان يحمل سوطاً فاخراً مصنوعاً من جلد فرس البحر ، وقد لفه لفاً رخواً على مقدمة السرج البارزة : « لقد وجدت السوط الممتاز الذي اريده ، بعد ثلاث سنوات من التفتيش . ارسله الي الشيخ البدوي من اسوان . هل تعلم ؟ » ورفع تينك العينين الزرقاوين اللامعتين الى اعلى لينظر بغبطة شديدة في عيني اخيه الداكنتين . وقال وقد انتشى كطفل صغير : « انـــه افضل من المسدس ، على كل حال انه افضل من مسدس عيار ٩٩ ، . لقد كنت اتمرن عليه باجتهاد كبير — اتريد ان ترى ؟ »

ودون ان ينتظر جواباً احنى رأسه وسار بجواده خبباً الى حيث كانت بضعة من الديوك تنقب في الأرض العارية قرب كوخ احد الرعيان . وارتعب احد الديكة وكان يركض اسرع من البقية فطار عن الأرض من تحت حوافر حصانه ؛ واوقف نسيم حصانه ليرقب ما يحدث ، وارتفعت ذراع نروز ، وانبسط السوط الطويل ببطء في الهواء ثم هوى صارماً بضربة نكدة وهو يحدث صوتاً فجائياً كليلاً . ونزل الفارس الضاحك على اثرها ليلتقط المخلوق المبتور المشوه وهو لم يزل دافئاً يرتعش وقد تهشم رأسه وأوشك جناحاه أن ينفصلا عن جسمه . واحضره الى نسيم وقد علت وجهه امارات الانتصار وراح يمسح يده ببطء على سرواله وقال : « ما رأيك ؟ » . وتناول نسيم السوط العظيم وتأمله بإعجاب بينما رمى اخوه الديك الميت الى وكيله ، وهو لم يزل يضحك ، وعاد فامتطى صهوة جواده وعادا يسيران الآن جنباً الى جنب ، وكأن الرقية التي عاقت اتصالهما الكامل من قبل قد تلاشت . وتحدث نسيم الآن عن الآلات الجديدة التي كان قد بعث في طلبها ، واستمع الى

حديث نروز عن صراعه مع القحط وأجرف الرمال . كان بامكانهما ان ينسيا نفسهما في مواضيع حيادية كهذه ويصبحا طبيعيين . واذ وحدت بينهما هذه المواضيع وحدة حميمة اصبحا اشبه بعاشقين أعميين لا يستطيعان ان يعبرا عن نفسيهما الا عن طريق اللمس : موضوع اراضيهما .

كانت المزارع حولهما قد اصبحت اغنى الآن وقد زرعت بأشجار الطرفاء والخروب ، وبالرغم من انهما كانا يمران ، هنا وهناك ، ببقايا ممتلكات هجرها اصحابها ، ولعلهم كانوا افقر أو أكسل من ان يصارعوا الصحاري التي حاصرت تلك الأراضي الخصبة من جهات ثلاث . كانت البيوت القديمة المتداعية ، وقد هجرها اصحابها وغزتها النباتات المختلفة ، تحملق في المياه بنوافذ سقطت اطاراتها وابواب تداعت اخشابها . اما بواباتها الامامية التي كادت تخفيها النباتات المتسلقة فقد كانت صدئة تؤدي الى حدائق ذات جمال بري أشعث ، حيث البرك المرمرية والتماثيل النخرة تشهد بمجد زائل . وكان باستطاعة الانسان الآن ان يلمح على جانبي الطريق الاراضي المشجرة التي شكلت السياج الخارجي لاملاك العائلة ـــ النخيل والاقاقيا والجميز ، التي كانت تقدم حمايتها المقلقلة لحياة خليقة بأن تفنى لو تركت بلا ظل ولا ماء فتؤول مرة ثانية الى الصحراء . ويقيناً إن الانسان كان ليحس بوجود الصحراء هنا ولو لم يرها ـــ صحراء لا طعم لها كخبز القربان .

هنا جزيرة قديمة فيها قصر خرب ، وهناك ممرات ملتوية وقنوات من المياه الجارية حيث كانت النقالات النهرية الضيقة تتسلم حمولتها من التبن . كانا يقتربان من القرية الآن . وكان هناك جسر مرتفع بُني فوق الضفاف الطينية تتوجه غابة من النخيل ، وبالقرب منه صف من القوارب الملونة وقفت تنتظر رفع الحاجز . من هنا ، من هذا المكان المرتفع كان يستطيع المرء ان يلمح للحظة قصيرة الأفق الصحراوي الأزرق المغنط ، وقد ترامت على اطراف هذا الجزء المكتنز بالخيرات ـــ مزارع خضراء ومياه .

وعند احد المنعرجات وجدا بانتظارهما زمرة من الفلاحين هبوا لملاقاتهما

صائحين : « اي شرف للقرية ! » « لقد حلت البركة . » وساروا معهما وهما يسيران مبتسمين . وتقدم وجهاء القرية نحوهما ، واكبّ البعض على ايديهما بالتقبيل ، كما قبّل البعض الآخر مهماز ركاب نسيم . وهكذا اجتازا القرية المطلة على مياهها الزمردية ، تهيمن عليها المآذن الرشيقة الشبيهة رؤوسها بثمرة التين ، ومجموعة القباب الباهرة الشبيهة بخلايا النحل ، المبنية على طراز الكنيسة القبطية زمن اجدادهم . من هنا ، انعطفت الطريق مرة اخرى خلال الحقول الى البيت الكبير ذي الجدران الحائلة اللون ، المتأكّلة ، المتهالكة مما تفاعل الجو عليها ، تغطيها هنا وهناك رسوم طبعها الجهلاء رقىً وتعاويذ لتبعد العفاريت عن المكان : تلك الرقى والتعاويذ المألوفة — صورة كف طبعت هنا باللون الاسود ، او عبارة « بسم الله ما شاء الله » ، كتبت هناك وكأن سكان البيت الكبير ، ارضاء لرغبة اولئك الريفيّين الاتقياء ، قد اقاموا على زوايا الجدران طواحين هواء خشبيّة صغيرة على شكل رجال باذرع دوّارة لتفزع العفريت وتقصيه . كان هذا منزلهما الريفي في كرم « ابو جرج » .

كان امين، كبير الوكلاء ، ينتظرهما عند البوابة الخارجية ، فاستقبلهما بالتحيات البدائية التي تتطلبها العادات ، وقد أحاط به عدد من الصبية الخجولين ليمسكوا بالحصانين ويساعدوا راكبيهما على الترجّل .

وكان باب الساحة الكبير قد فتح على مصراعيه ليدخلا مباشرة الى الساحة التي بني فيها المنزل ، وكان مؤلفاً من طبقتين — الطبقة الاولى للضيافة تطل من جهتين على الاقواس المعقودة في الطبقة الارضيّة ، وعلى باحة فيها مستودعات للحبوب ، وغرف للاستقبال ، ومخازن واصطبلات . ولم يعبر نسيم العتبة قبل ان يتفحص الرسوم الحائلة اللون التي تزيّن الحائط في الجهة اليمنى ، والتي تصور في سلسلة من الاشارات الشبيهة بالاشارات الهيروغلوفية ، الرحلـة المقدسة التي قام بها نسيم لكي يستحم في نهر الأردن : حصان ، وسيارة ، وسفينة ، وطائرة ، صورت جميعها هنا تصويراً فجاً . وتمتم بعض النصوص الدينية فتبسمت جماعة الخدم الصغيرة تبسم الرضا وقد ادركت ان سكناه الطويلة في

المدينة لم تنسه اساليب الحياة في الريف . ولم يكن لينسى قط أن يفعل هذا ؛ فقد كان اشبه بجواز سفر له . وكان نروز سعيداً أيضاً بهذه البادرة التي تظهر ذوق اخيه الرفيع المهذب — فهي لم تقرب اخاه تقريب الود والمحبة الى نفوس هؤلاء الخدم فحسب ، ولكنها ايضاً قوت مركزه هو معهم كسيد البيت الآمر .

وكانت في الجانب الآخر من الباب مجموعة مماثلة من الرسوم تظهر انه هو ايضاً ، الاخ الاصغر ، قد ادى فريضة الحج المقدس المفروضة على كل قبطي يتمسك بمبادىء الدين .

وكان على كل من جانبي البوابة الرئيسية برج حمام — تلك الاعمدة غير الرشيقة المبنية من أباريق الفخار ثبتت بالطين بعضها الى بعض تثبيتاً عشوائياً ، هذه الابراج مألوفة في بيوت مصر الريفية ، وهي التي تقدم ألذ اطباق الطعام لمائدة السيد . وكان رف من الحمام يخفق باجنحته ويهدل كل النهار فوق عقود الساحة . هنا في هذه الساحة كان كل شيء ينبض بالحركة : حارس الليل الزنجي ، الخفراء ، الوكلاء ، المشرفون ؛ وقد تقدموا جميعهم واحداً إثر واحد ليحيوا الاخ الاكبر والوريث الاول . وقُدم اليه قدح من النبيذ وطاقة من الزهر ، بينما وقف نروز قربه يبتسم وقد ملأه الشعور بالاعتزاز .

ثم سارا في خطوات شعائرية خلال الرواق بنوافذه ذات الزجاج المتعدد الألوان الذي اظهرهما للحظة قصيرة اشبه بمهرجين في تمثيلية هزلية ، ثم خرجا منه الى حديقة الورد بعريشتها البرية غير المشذبة وممراتها المتعرجة ، وسارا نحو البيت الصيفي الصغير حيث جلست ليلى تقرأ سافرة . واذ اقتربا من البيت نادى نروز باسمها لينذرها بقدومهما واضاف : « خمني من اتى ! » وارخت المرأة برقعها حالاً على وجهها وادارت عينيها الرصينتين الداكنتين نحو الباب الذي شعت عليه الشمس وهي تقول : « لم يحضر الصبي الحليب اليوم ايضاً ، ليتك تخبره يا نروز فعقله ليس في رأسه . ان الحية يجب ان تطعم بانتظام والا ساء مزاجها » . ثم تعثر صوتها كما ينحرف طائر في قلب الهواء وتحول الى ما يشبه تنهدة غنية منغومة وهي تلفظ باسم « نسيم » . واعادت الاسم مرتين اذ

تعانقا برقة مرتعشة حتى ان نروز ضحك وهو يبلع ريقه ، وذاق فرحة حب اخيه لليلى ومرارته هو في ادراكه ان نسيماً هو ولدها الاثير — الابن الجميل . انه لم يكن يغار من نسيم ؛ ولكنه كان يشعر بالألم القلبي اذ يسمع هذه النبرة المنغومة في صوت امه — نغماً لم تستعمله قط في حديثها معه . لقد كان هذا هو الحال دائماً .

وقال « سوف اكلم الصبي » . ونظر حوله باحثاً عن الافعى . ان المصريين يعتبرون الافعى زائرة تجلب الحظ السعيد الى البيت ، فلا يقتلونها فيجلبوا عليهم سوء الحظ . وما كانت مناجاة ليلى الطويلة لنفسها في البيت الصيفي الصغير لتكون لولا هذه الكوبرا الكسول التي تعلمت ان تلعق الحليب من الصحن كأنها قطة .

وجلسا وهما متشابكا الايدي وبدأ نسيم يتحدث عن الشؤون السياسية ، وتانك العينان الذكيتان الفتيتان الداكنتان تنظران بثبات الى عينيه . وكانت ليلى بين الفينة والفينة تهز برأسها بقوة وتصميم موافقة على ما يقول ، بينما وقف الابن الاصغر يرقبهما بشوق ظامىء وهو ممتلىء اعجاباً بالاسلوب المختصر الذي كان نسيم يوجز به الافكار ويعبر عنها — اسلوب هو ثمرة انغماسه الطويل في الحياة العامة . وشعر نروز بتلك الكلمات التجريدية تقع على اذنه فتخدّر مسامعه وقد شحنت بمعانٍ كان يخمنها نصف تخمين ، ومع انه كان يعرف انها تعنيه كما تعني الآخرين ، فانها بدت له ، كأنها تنتمي الى عالم متميز نادر الوجود يسكنه سفسطائيون ورياضيون — مخلوقات خليقة بان تستجلي وان تعبر عن التشوفات الغامضة والرغبات المبهمة التي شعر بها تنبع في اعماقه كلما ذكرت مصر او املاك العائلة . ومصّ مفصل سبابته وجلس قربهما ، منقلاً بصره بين أمه واخيه .

وختم نسيم حديثه قائلاً : « والآن فان ماونت اوليف قد عاد ، وللمرة الاولى سيصبح ما نحاول ان نفعله امراً مفهوماً . ليلى — انه سيساعدنا اذا تسنى له ذلك . انه سريع الفهم . »

وكان لاسم ماونت اوليف اثر كبير عليها ، فقد ارخت عينيها ونظرت الى يديها البيضاوين المرتكزتين امامها فوق رسالة لم تنته – عينين زينتا بالكحل ببراعة فائقة حتى ليصعب على المرء ان يلحظ أثر الدموع فيهما . ومع ذلك فلم يكن فيهما دموع الآن – بل التمعتا بعواطف المودة . اترى كانت تفكر في الرسائل الطويلة التي كتبتها بذلك الولاء والاخلاص خلال فترة افتراقهما الطويلة ؟ ولكن نروز شعر بالغيرة المفاجئة تثور في نفسه لذكر الاسم – ذلك الاسم الذي كان اشبه بحجر قبر دفنت تحته ذكريات خبيثة تنتمي الى فترة مختلفة من الزمن عن سكرتير المفوضية الشاب الذي كانت امه ... (لم يستعمل قط كلمة « حب » ولكنه ترك مكاناً فارغاً في فكره حيث يجب ان تكون) ، كما دفنت تحته ايضاً ذكريات اخرى عن الزوج العليل المقعد في الكرسي ذي العجلات الذي راقب ما يجري دون اية شكوى .

كانت روح نروز ترتعش مشاركة سورة العاطفة التي كان يعانيها ابوه كلما ذكر اسم ماونت اوليف . وبلع نروز ريقه الآن وتحرك بقلق وحرج اذ راقب امه تطوي الرسالة بيدين مرتجفتين وتضعها في غلافها ، ثم سألت نسيماً : « أبإمكاننا ان نأتمنه ؟ » وكانت خليقة بأن تلطم نسيماً على فمه لو أنه أجابها « لا » . فقد كان كل ما أرادته من سؤالها هذا هو أن تسمعه فقط يلفظ الاسم مرة اخرى . كان سؤالها مجرد استثارة لذكر الاسم لا غير . وقبّل نسيم يدها ، وراقب نروز بلهفة ابتسامة اخيه الشبيهة بابتسامة رجال البلاط اذ اجاب : « اذا لم يكن بامكاننا ان نأتمن ماونت اوليف فمن نأتمن ؟ »

عندما كانت ليلى صبية كانت جميلة وغنية وكانت ابنة لامرأة تعنى بشؤون الادب . وقد تربت في دير واختلطت كثيراً بالمجتمع ، وكانت من أوائل النساء القبطيات اللواتي هجرن الحجاب ؛ هجرته وبدأت تدرس الطب ضد ارادة والديها ، غير أن زواجها الباكر برجل يكبرها كثيراً وضع حداً لهذا الانطلاق الى المجالات الواسعة حيث كان يمكن لمواهبها ان تنمو وتترسخ فعاليتها . كان مزاج الحياة المصرية ايضاً معادياً جداً لحرية النساء ، فتنازلت

عن مهنة المستقبل لكي تتزوج من رجل اعجبت به كل الاعجاب ، ولكي تعيش معه تلك الحياة الرتيبة في القرية . ومع ذلك ، فتحت كل هذا كانت النار لم تزل مشتعلة — وقد احتفظت ليلى بأصدقائها واهتماماتها ، وزارت اوروبا مرة كل بضع سنوات ، واشتركت بمجلات دورية في اربع لغات ؛ وقد نما عقلها في الوحدة والعزلة ، واغتنى بكتب لم يكن بامكانها ان تبحث في معانيها الا في رسائل إلى اصدقاء يعيشون في اماكن نائية ، ولم يكن باستطاعتها ان تقرأها الا في عزلة بيت «الحريم» . ثم كان ما كان من قدوم ماونت اوليف وموت زوجها بعد ذلك ، ووقفت طليقة على حافة عالم جديد تتنفس بحرية ، ولا مسؤولية لها سوى ولدين في طريقهما الى التكامل والنضج ، وترددت سنة ما بين اختيار لندن او باريس مقراً لسكناها ، وفي أثناء ذلك حدث ما أفقدها كل شيء . فان جمالها ، الذي لم تكن قد انتبهت له بصورة خاصة من قبل ، كما هو الحال مع كل من كان جميلاً ، عاث فيه على حين غفلة مرض الجدري فاذاب ملامحها الوسيمة ولم يترك لها الا عينيها الرائعتين — عيني ساحرة مصرية : واصبح النقاب الاسود البشع ، الذي كان يبدو لها من قبل رمزاً للذل والخنوع ، ملجأ تخبىء تحته اطلال جمال كان يعتبر رفيعاً نادراً في صباها . ولم تعد لديها الشجاعة الآن ان تطوف عارضة هذا الوجه المذاب في عواصم اوروبا ، وان تجابه التعازي الصامتة في وجوه اولئك الاصدقاء الذين قد يتذكرونها كما كانت من قبل . وهكذا فانها وجدت نفسها وقد نكصت على عقبيها ، فقررت ان تبقى في مكانها ، وان تنهي حياتها هنا في املاك العائلة ، في عزلة قدر المستطاع . ولم يكن لها منفذ الآن الى العالم الخارجي سوى القراءة وكتابة الرسائل — ولم يكن عندها من هم الا تربية ولديها . وارغمت نوازع اهوائها وعواطفها الآن على الجريان في هذا الحقل الضيق ؛ وكان عليها ان تسيطر على عالم كامل من العلاقات الجديدة ، فحولت ارادتها في هذا الاتجاه كأنها رجل . ولقد واجهت مصاعب كثيرة — الصحة السيئة ، والضجر ، والوحدة — واجهتها جميعها الواحدة بعد الاخرى ، وتغلبت عليها

جميعها في هذه العزلة التي عاشتها كأمبراطورة عزلت عن عرشها ، تطعم حيتها ، وتكتب رسائلها التي لا تنتهي وتودعها كل الحيوية والتألق لحياة قنعها النقاب الآن فلم يكن ممكناً ان تنطلق الا من تينك العينين الفتيتين الداكنتين.

ولم يعد يراها احد في المجتمع الآن ، فأصبحت شبه اسطورة بين اولئك الذين يتذكرونها في ايامها الماضية ، والذين كانوا يلقبونها « بعصفور الجنة الأسمر » . اما الآن فقد كانت تجلس طول النهار الى طاولة من خشب الصنوبر غير المصقول ، تكتب بذلك الخط المعبر عن عمق تفكيرها ، وتغمس ريشتها في محبرة ذهبية . لقد اصبحت رسائلها هي حياتها نفسها ، و في كتابتها لهذه الرسائل بدأت تعاني من ذلك الاحساس الغريب بالواقع المشوه الذي يشعر به الكتّاب عندما يعالجون اشخاصاً حقيقيين . فعن طريق رسائلها الطويلة لماونت اوليف مثلاً ، كانت قد ابتدعت في نفسها بنجاح كبير صورة جديدة له حتى انه لم يعد يمثل لها الآن انساناً حقيقياً بل شخصية من اختراع خيالها . كانت قد نسيت هيئته تقريباً ومدى تأثير وجوده معها بلحمه ودمه ، فلمّا وصلت برقيّته تقول انه يتوقع ان يكون في مصر خلال اشهر قليلة ، لم تشعر في البدء الا بالحنق لهذا التطفل الفعلي على الصورة التي رسمها خيالها . وتمتمت في البدء بغضب : « انني لن اقابله » ؛ وعندها فقط بدأت ترتجف وغطت بيديها وجهها الذي عاث فيه الدهــر .

وقال نسيم اخيراً : « ان ماونت اوليف يريد ان يراك ، متى استطيع ان احضره ؟ ان المفوضية ستنتقل الى المسكن الصيفي ، ولذا فانه سيكون في الاسكندرية طول الوقت . »

فقالت وقد شعرت بالغضب مرة اخرى لتطفل هذا الطيف الاسطوري المحبوب : « يجب أن ينتظر حتى اصبح انا مستعدة لأراه بعد كل هذه السنوات » . ثم سألت بلهفة متشوقة تبعث الشجن : « هل اصبح هرماً الآن ـــ وهل شاب شعره ؟ وهل رجله على ما يرام ؟ ايستطيع ان يسير ؟ تلك الوقعة التي وقعها وهو يتزلج على الثلج في النمسا .. »

واصغى نروز الى هذا كله بقلب مهموم نكد وقد اشاح بوجهه . كان بامكانه ان يتتبع تلون المشاعر في صوتها كما يتتبع الانسان لحناً موسيقياً .

واجاب نسيم : « انه يبدو افتى مما كان – كأنه لم يكبر يوماً واحداً » ، ولدهشته اخذت امه يده ووضعتها على خدها وقالت بصوت متقطع : « آه – انك فظيع ، فظيع ، اذهبا كلاكما . اتركاني وحدي الآن ، ان هناك رسائل يجب ان اكتبها . »

منذ ان مرضت ذلك المرض الذي حرمها اعجابها بنفسها لم تسمح قط بوجود مرايا في جناح « الحريم » ؛ ولكنها في خلوتها ، كانت تكحل عينيها – كنزها الوحيد الباقي – وتجملهما سراً ، وتجرب عليهما ضروباً من التجميل ، ونظرات مختلفة تكيفها بحيث تلائم مختلف المعاني – محاولة ان تلبس ما تبقى من جمالها معاني عديدة مختلفة كاتساع عقلها المتوثب . كانت أشبه برجل اصابه العمى فجأة وراح يتعلم القراءة بالعضو الوحيد الذي بقي له : بيديه .

وسار الرجلان الآن عائدين الى البيت القديم – إلى غرفه الباردة المليئة بالغبار ، وقد علقت على جدرانها السجاجيد العريقة في القدم والبسط المطرزة ، وازدحمت هي بالاثاث الضخم القديم الطراز – نوع من الطراز العثماني الذي يراه الانسان في بيوت مصر القديمة . وكان نسيم يشعر بخيوط فؤاده مشدودة مكدودة اذ يتذكر بشاعة ذلك البيت وقطع الاثاث القديمة التي تملؤه ، وعاداته الرتيبة المحافظ عليها كل المحافظة . وكان المشرف على ادارة البيت قد اوقف جميع الساعات عن الدوران حسب التقاليد . وكان معنى هذا بلغة نروز : « ان اقامتك معنا قصيرة جداً ، فدعنا لا نترك ما يذكرنا بمرور الساعات . لقد خلق الله اللانهاية ، فدعنا نتخلص كلياً من طغيان الزمن . » هذه المجاملات ، العريقة الموروثة كانت تذكي العاطفة في قلب نسيم . حتى أن اجراءات النظافة البدائية – لم يكن هناك حمامات – بدت له منسجمة مع روح الاشياء حوله ، مع انه كان يحب الماء الساخن . وكان نروز نفسه ينام عارياً صيفاً وشتاء ، ويستحم في الباحة – حيث يصب احد الخدم الماء عليه من

ابريق . وكان من عادته ان يرتدي في داخل المنزل عباءة زرقاء قديمة وخفاً من الطراز التركي ، ويدخن نرجيلة في طول غدارة .

واذ اخرج الاخ الأكبر ثيابه من حقيبته ، جلس نروز على طرف الفراش وراح يدرس الأوراق التي ملأت المحفظة وقد ركز اهتمامه تركيزاً قوياً هادئاً . فقد كانت الاوراق تتعلق بالآلات التي كان يود استخدامها في محاربة الصحراء الميتة ، وفي توسيع رقعة الأراضي المستصلحة للزراعة . وكان يرى بعين خياله مجموعة كبيرة من الاشجار والنباتات تقتحم بثبات قلب الخلاء — خروب ، وزيتون ، واعشاب ، وعنّاب ، وفستق حلبي ، وخوخ ومشمش تنشر حولها الوان الخصب الخضراء في تلك المساحات الرملية البَراح التي خنقها ملح البحر . ونظر باشتياق متحرق الى صور المعدات في الكراسات اللامعة التي احضرها نسيم معه ، وراح يمر عليها باصبعه بحب ولهفة ويسمع في اذن خياله صوت تدفق المياه الحلوة من المضخات ، وكيف ستغسل الأرض من الأملاح المميتة ، ثم تحييها لتغذي جذور اشجاره الظامئة . جبل مريوط ، ابو صير — لقد جمحت أفكاره محلقة كطائر الخطاف فوق الكثبان الى صحراء النطرون نفسها — وقد تغلب عليها جميعها في عقله .

وقال نروز : « على ذكر الصحراء ، هل تذهب معي الى خيام أبي قار غداً ؟ لقد وعدت بحصان عربي أصيل واريد ان اروضه بنفسي . ستكون رحلة لطيفة . » وابتهج نسيم بالفكرة وقال : « نعم » فقال نروز « ولكن علينا ان نرحل باكراً ، ونستطيع ان نمر بمزارع الزيتون لترى التقدم الذي احرزناه ، هل تجيء ؟ ارجوك ان تأتي ! » وشد على ذراع اخيه وتابع حديثه : « مذ بدأنا باستعمال الشملالي التونسي لم تحدث عندنا اصابة واحدة : آه يا نسيم ، ليتك تبقى هنا . ان مكانك هنا في هذا المكان . »

وكان نسيم ، كالعادة ، قد بدأ يتمنى نفس الشيء . في تلك الليلة تعشيا على الطريقة القديمة — طريقة مختلفة اختلافاً كليّاً عن البذخ المتطرف المألوف في اسلوب الموائد الاسكندرانية — فقد أخـــذ كل منهما فوطته عن المائدة وخرج

الى الباحة ليقوم ، حسب الاسلوب الدقيق المرعي هناك ، بعملية غسل الأيدي التي تسبق وجبة الطعام في الريف . وقد وقفا جنباً الى جنب وراح يصب الماء على أيديهما خادمان ، فغسلا أيديهما بصابون اصفر اللون ثم بماء الزهر[1]. وبعد ذلك عادا الى المائدة حيث كانت اداة الأكل الوحيدة الموجودة ملعقة من الخشب لكل منهما — يتناولان بها الحساء — اما بقية الطعام فبأيديهما — كانا يقسمان الارغفة الرقيقة المستديرة ويغمسان الخبز في اطباق اللحم المطهي . وكان من عادة ليلى دائماً ان تتعشى وحدها في جناح النساء ، وقد أوت الى فراشها باكراً في تلك الليلة فتعشى الاخوان وحدهما من دونها . واكلا على مهل ، منتظرين فترات غير قصيرة بين طبق وطبق . ومثّل نروز دور المضيف فكان يضع قطعاً منتقاة من اللحم في صحن نسيم ، وقسم بأصابعه القوية الدجاج والديك الرومي ، مبالغة في الاكرام لضيفه . واخيراً ، بعد أن قدمت الفاكهة والحلوى ، عادا الى حيث ينتظر الخدم وغسلا ايديهما مرة ثانية .

وفي أثناء ذلك كانت المائدة قد نظفت ونقلت من مكانها لاخلاء الطريق لاخراج الارائك القديمة الطراز من الغرفة الى الشرفة . وكانت أدوات التدخين قد اعدت من قبل — نراجيل طويلة مع تنباك نروز المفضل وطبق فضي مليء بالحلوى . وجلسا هنا صامتين مدة من الزمن يشربان القهوة . وكان نسيم قد خلع خفه وطوى ساقيه تحته ، وجلس وذقنه على يده متحيراً كيف يقص اخباره — اخبار الزواج التي كانت تنهش زوايا عقله ، ومتسائلاً في نفسه عما اذا كان لزاماً عليه ان يكون صريحاً فيما يتعلق بالدوافع التي حفزته الى ان يختار لنفسه زوجة من غير دينه . وكان الليل حاراً وساكناً ، ورائحة أزهار المانوليا تهب على الشرفة مع النسائم الناعمة التي كانت ترتجف لها الشموع وترقص ، كان عجزه عن البت بأمره ينهش أعماقه .

وتحت وطأة جو نفسي كهذا ، كان كل وعد بالترويح والتسلية التي تلهي

---

(١) زهر البرتقال .

العقل عن همومه يبدو مريحاً ، ولذلك فقد سره ان اقترح نروز ان يرسل في طلب مغني القرية ليعزف لهما ، وهذه كانت عادة طالما تمتعا بها في صباهما . فما من شيء اكثر ملاءمة لصمت الليل الثقيل في مصر من انغام الكمنجة البسيطة المؤثرة . وصفق نروز بيديه وارسل في طلب المغني الشيخ ، فما لبث هذا ان جاء من جناح الخدم حيث كان يتعشى كل ليلة —صدقة يمنحها له اصحاب البيت ، وهو يسير بالخطوات البطيئة المستسلمة التي تفرضها شيخوخة طاعنة في السن وعمى وشيك الوقوع . كان بطن كمانه مصنوعاً من نصف جوزة هند؛ وقفز نروز واجلسه على اريكة في نهاية الشرفة . وسمع وقع اقدام في الباحة وصوت مألوف هو صوت المعلم الشيخ محمد شباب الذي صعد الدرج وهو يبتسم بوجهه المتغضّن ، وشد بقبضته على يد نروز . كان له وجه القرد الاشعر ، وكان يلبس كعادته بذلة غامقة اللون شديدة النظافة ، وقد وضع في عروة سترته وردة . كان رجلاً شديد التأنق محباً للذائذ والمتع — وكانت زياراتــه للبيت الكبير هي تسليته الوحيدة ، فقد كان يعيش أغلب ايام السنة مدفوناً في اقاصي الدلتا ؛ اما الآن فقد أحضر معه بلبلة نرجيلته وهي بلبلة قديمة اثيرة لديه ، بقيت في حوزته مدة ربع قرن . وقد ابتهج لسماع شيء من الموسيقى ، واصغى بحماسة الى القصائد المشحونة بالعواطف العنيفة التي غناها الشيخ ، أغانٍ تناولت حياة العرب المتواضع عليها وانطلقت مفعمة بوحشة الصحراء العنيفة . وكان الصوت الذي اوهنته الشيخوخة يتكسر هنا وهناك كأنه ورقــة شجر يابسة ، ويرتفع وينخفض في هواء الليل . لقد انطلق مرتعشاً وتابع الحان الاغاني المرتجفة الشبيهة بالطرق الملتوية المتعرجة التي تسير عليها تلك الأفكار والعواطف وقد اوشكت على النسيان والاندثار . واطلق الكمان الصغير شكاواه وعاد بهم الى ايام الطفولة . والآن ، انطلق المغني فجأة يغني اغنية الحجيج العاطفية التي تعبر بروعة أخاذة عن حنين المسلم الى مكة وحبه الشديد للنبي — وخفق اللحن في قلب الاخوين حبيساً كطير مضطرب الأجنحة . ومع ان نروز كان قبطياً ، الا انه كان يردد كلمة : « الله — الله ! » بنشوة من المديح .

وصاح نسيم اخيراً « يكفي ، يكفي . اذا كنا سنستيقظ باكراً فيجب أن ننام باكراً ، الا تظن ذلك ؟ »

ونهض نروز بسرعة ، وهو لم يزل يمثل دور المضيف ، وصاح يطلب الماء ويأمر باشعال القناديل ، ثم سار أمام اخيه الى غرفة نوم الضيوف . وانتظر الى ان غسل نسيم وجهه ويديه وخلع ملابسه وصعد الى السرير القديم الطراز ثم حياه تحية المساء . واذ وقف في مدخل الغرفة قال نسيم باندفاع مفاجيء : « نروز – ان عندي ما اود قوله لك » ثم غلبه حياؤه فأضاف : « ولكـن بامكاننا ان نرجيء الحديث عنه الى الغد . اننا سنكون وحدنا ، اليس كذلك ؟ » وهز نروز برأسه وابتسم : « ان الصحراء عذاب شديد لهؤلاء الخدم ولذا فاني اطلب اليهم العودة دائماً لدى وصولنا الى حافة الصحراء . »

« نعم » . كان نسيم يعرف جيداً ان المصريين يعتقدون بان الصحراء خلاء لا يسكنه الا الارواح والشياطين وغيرها من رسل ابليس الهائلـة .

ونام نسيم واستيقظ ليرى اخاه بكامل ملابسه واقفاً قرب سريره ، وقد حمل اليه القهوة والسجائر وقال : « لقد حان الوقت . اعتقد انك تنام الى ساعة متأخرة في الاسكندرية ... »

فقال نسيم : « لا . من الغريب اني اكون عادةً في مكتبي في الساعة الثامنة »

فقال نروز هازئاً مداعباً :

« في الثامنة ! آه يا أخي المسكين . » ثم ساعده بارتداء ملابسه . وكانت الخيل بالانتظار فركبا وخرجا الى فجر يغشاه الضباب الازرق الكثيف المتصاعد من البحيرة . وكان الهواء نقياً بارداً يكاد يكون جليدي البرودة ، غير أن الشمس كانت قد بدأت تتخلل الطبقات العليا من الهواء وتجفف الندى عـلى مئذنة الجامع .

وتقدم نروز الآن في الدروب المتعرجة الملتوية ، وعلى السدود ، دون ان يخطيء الطريق مرة ؛ فقد كانت هذه الأرض جميعها تعيش في عقله كخريطة كبيرة مفصلة ، رسمها استاذ في فن صناعة الخرائط . كان يحملها دائماً في

عقله كأنها خطة حربية ، ويعرف عمر كل شجرة ، ونسبة المياه في كل بئر ، ومذرى الرمال بدقة متناهية ، كانت قد ملكت عليه تفكيره .

ودارا ببطء حول المزرعة الضخمة وهما يحاولان تقدير مبلغ التقدم الذي احرز فيها ويبحثان باهتمام في المشاريع التي سيقوم بها نروز حال وصول الآلات الجديدة وتركيبها . واذ وصلا الى بقعة مهجورة قرب النهر وقد احاط بها القصب من جميع جهاتها قال نروز : « انتظرني لحظة . » وترجل ثم خلع عن كتفه جعبة الصيد الجلدية القديمة وقال وهو يبتسم بحياء : « لدي ما يجب ان أخفيه هنا . » وراقبه نسيم بفتور اذ قاب الجعبة ليقذف بمحتوياتها الى مياه النهر الباردة . ولكن نسيماً لم يكن مهيأ النفس لرؤية رأس انسان متقلص الجلد ، ذي شفتين منفرجتين تكشفان عن اسنان صفراء ، وعينين حولاوين يتدحرج من الجعبة ويغطس ببطء مختفياً في اعماق المياه الخضراء . وسأل قائلاً : « ما هذا ، بحق الشيطان ؟ » وضحك نروز ضحكته المهسهسة وهو ينظر ارضاً ثم اجاب : « عبد القادر — رأسه » . وركع واخذ يغسل الجعبة في الماء ، فخضها بقوة الى اليمين والى اليسار ثم قلبها كما يقلب الانسان كماً وعاد الى حصانه . وكان نسيم مستغرقاً في التفكير ، فقال له : « اذن فقد اضطررت الى قتله : لقد كنت اخشى ذلك . »

وادار نروز عينيه اللامعتين الى اخيه لحظة واجاب بجد : « لو ان المشكلات استمرت مع العمال البدو لكنا خسرنا الف شجرة في السنة القادمة : لقد كان الخطر الكامن اعظم من ان يهمل . والى جانب هذا فقد كان ينوي ان يسممني » :

ولم يقل نسيم شيئاً ، وسارا صامتين الى ان وصلا الى اطراف المزرعة حيث اخذ الزرع يخف شيئاً فشيئاً — هذا هو الخط الأمامي حيث كانت المعركة مع الصحراء تدور في الوقت الحاضر — منطقة مستطيلة الشكل متعرجة الاطراف كحافتي جرح . وكانت الاراضي المزروعة تقتحم اطراف الصحراء هنا وهناك على طول الطريق ، وتتغلغل في الأراضي الرملية بينما تنزح الرمال الى القسم المزروع حتى تسممت الأرض واصبحت صورة للخراب الموحش .

هنا ، لم يكن ينمو سوى القصب العملاق أو نبات البردي او بعض العليق ؛ ولم يكن ممكناً أن تعيش الأسماك في هذه المياه الاجاج . اما الطيور فقد هجرتها ؛ لقد قبعت في مجراها الراكد الذي هيمن عليه هواؤه القذر ، رهيباً ، مرهقاً وصامتاً كل الصمت — هذه هي النقطة التي التقت فيها الصحراء مع الأرض المزروعة في عناق الموت . لقد سارا الآن بين قصب البردي الباسق الملتمع في الشمس بسيقانه المصبوغة والمغطاة بطبقة من الملح . ولهث الجوادان وتعثرا في المياه الراكدة التي كانت تتراشق حول اقدامهما ثم لا تلبث أن تتبلور حالاً حيث تقع بقعاً بيضاء من الملح . وكانت برك المياه الطينية الآسنة مغطاة بطبقة من الملح تكسرها حوافر الجوادين اذ تغطس فيها فتنبعث الروائح الفظيعة من الطين الاسود تحتها ومن جيوش الذباب والبعوض اللاذع الذي ينطلق منها فجأة . ولكن نروز حتى في هذا المكان كان ينظر حوله باهتمام ، وعيناه مشرقتان ، فقد خُيل اليه انه تم له زرع هذه الارض البلقع بالخروب والاحراج الخضراء — تخيل انه قد تغلب عليها . وامسكا كلاهما بانفاسهما الآن ولم يتكلما اذ راحا يقطعان هذا الحاجز الاخير النتن وما تلاه من مساحات التربة يتثنى سطحها تثني جلد المومياء المتجعد ، واخيراً وصلا الى تخوم الصحراء ووقفا في الظل بينما راح نروز يبحث في جيوبه عن الطباشير الزرقاء . ومسحا شيئاً من الطباشير تحت أجفانهما — كما كانا يفعلان دائماً منذ أيام طفولتهما . وعقد كل منهما كوفية على رأسه كما يفعل البدو ؛

ثم : الهبات الاولى من هواء الصحراء ، وعري المساحات الشاسعة ، صافية كنظرية هندسية ، ممتدة الى حدود السماء ، غارقة في صمتها وجلالها لا تأهل الا بما يخترعه خيال الانسان ليكسو به عري المسافات المعادية لاهوائه والتي يرهق نقاؤها العقل ؛

وأطلق نروز صرخة ، وأخذ الجوادان يعدوان عدواً مندفعاً وثاباً على الكثبان ، وقد تيقظت احاسيسهما ، وامتلآ بشعور جديد بالحرية والانفتاح حولهما ، وراحت عفرتاهما وشراريبهما تهتز وسرجاهما يصكان . وجريا

بهذه السرعة بضع دقائق بينما راح نسيم يقهقه مغتبطاً متحمساً . فانه لم يكن قد طارد هذا الطراد العنيف منذ زمن بعيد .

ولكن الاخوين عادا فكبحا جماح جواديهما وسارا ببطء شرقاً على أرض معشبة حيث اينعت الزهور البرية وترنحت الفراشات متنقلة بين الكثبان القاحلة ونماذج الحياة النباتية القاسية الدكناء ، وقعقعت حوافر جواديهما على حصباء الارض . وسارا خلال وديان حجرية تملؤها الاحجار الكلسية الضخمة الحادة الاطراف . وتمتد سلاسل الصخور الوردية المصفحة لتملأ الآفاق المألوفة . وكان نسيم منهمكاً في ذكريات تلك الليالي من ايام صباه عندما كان يخيم هنا تحت سماء بيّضتها النجوم ، في خيمة تعول فيها الرياح ويلتمع الصقيع على حبالها التماع الماس ، وقد نصبت تحت نجمة النسر الواقع . وامتدت الصحراء حولهم كغرفة خاوية . كيف ينسى الانسان اعظم تجاربه ؟ لقد كانت جميعها هناك اشبه ببيان يستطيع الانسان ان يعزف عليه في أي وقت يشاء ولكن السنوات تمضي دون ان يلمسه . لقد اطربته رؤى ذكرياته الداخلية وتبع نروز على غير هدى . كان يرى نفسه ونروز في قلب ذلك الانفساح الهائل اشبه بحمامتين تطيران في السماء الخالية .

وتوقفا قليلاً في ظل صخرة ضخمة — واحة ارجوانية من الظلال — وهما يلهثان سعيدين ، وقال نروز : « اذا صادفنا ذئباً صحراوياً فسأقتله « بكرباجي » هذا » . ومر بيده على السوط العظيم بمحبة .

وانطلقا في سيرهما مرة اخرى وسار نروز بأخيه في درب متعرج مستطلعين طريق القوافل القديمة العريقة في القدم — « المسرب » الذي سيقودهما الى قصور العطش حيث كان سيلاقيهما رجال الشيخ قبل الظهيرة . كان نسيم يعرف يوماً هذه الطرق عن ظهر قلب — طرق المهربين التي كانت تسلكها القوافل بين الجزائر ومكة — « الطرق الميمونة » التي قادت مصائر الرجال خلال متاهة الصحراء ، وقد حملوا التوابل والبضائع من مكان ما في افريقيا الى مكان آخر ، او التي كانت بالنسبة للاتقياء وسيلتهم الوحيدة للوصول الى

المدينة المقدسة . وشعر فجأة بالغيرة من الفة اخيه للصحراء ومعرفته الدقيقة بها ؛ تلك الصحراء التي امتلكا معرفتها معاً يوماً من الايام ، وتبعه بلهفة .

وسرعان ما اطلق نروز صرختة خشنة واشار بيده ، وبعد لحظات وصلا الى المسرب — وهو طريق للقوافل انقشعت عنها الرمال في بعض الأماكن وكشفت الصخور الصلدة ، وامتدت الطريق في سلسلة متموجة متوازية من افق الى افق ، هنا ايضاً قاد الاخ الاصغر الطريق ، وكان قميصه الأزرق الآن قد اصطبغ باللون الليلكي تحت الابطين ، وصاح « اننا اشرفنا على الوصول » — وشيئاً فشيئاً سبحت امام انظارهما كتل عالية من صخور البازلت الحمراء وقد بدت اشبه بوجه ابي هول عذبه العطش (كوجه في النار) . وهناك كانت الجماعة الصغيرة من المستقبلين تثرثر في الظلال الداكنة التي ترميها الصخور وهي تنتظر لتأخذهم الى خيام الشيخ — كانت مؤلفة من أربعة رجال طوال نحاف ، داكني الوجوه ، تتكسر أصواتهم عطشاً ، وكانت ضحكتهم اشبه بانطلاقة الغضب العاصف . وساروا نحوهم الى عناق أذرع كالعصي الجافة ، وسماع لهجة عربية لم يألفها نسيم ، لهجة مقرقعة شائكة . كان نروز هو الذي تكلم بها وفسر ما يريده الاخوان .

وانتظر نسيم وقد شعر فجأة كما يشعر الاوروبي ابن المدينة ، كما يشعر الزائر : فقد كانت الجماعة تحمل معها كل مشاعر عالم بدوي فطري ضيق — بمجاملاته الموروثة ونزعاته — وبدائيته . ولقد دهش لما وجد نفسه يبحث في ذاكرته عن صورة لوحة لبونار او عن قصيدة لبليك — كما يبحث العطشان عن ينبوع ماء . وبهذه الطريقة ايضاً قد يلتقي المسافر بقبيلة اسكتلندية جافية فيعجب بأرجل افرادها المنتفخة وسيقانهم الخشنة الشعراء ، ولكنه يشعر بالسعادة أيضاً لان قوتهم التي تتنكر لمرح الحياة وتجافي الملذات لا تعبر عن حصيلة الثقافة الاوروبية . هنا وجد نسيم نفسه وقد اضاع أخاه فجأة ، وفارقه ؛ فان نروز انغمس في حياة هؤلاء الرعاة بنفس الحماسة التي ينغمس بها في حياة اراضيه واشجاره . كانت العضلات الضخمة المشدودة الانسجة في

جسمه الأشعر متوترة زهواً - فها هو ابن المدينة الاسكندراني - الذي يكاد يكون « نصرانياً » مزدرىً - يستطيع ان يتغلب على أي منهم في رمي الرصاص والحديث والطراد ، وقد نظروا اليه ، وهم أدرى بمعدنه ، بعين متأملة وكأنهم يعتبرونه من ارومتهم ؛ اما نسيم الرقيق فانهم قد رأوه من قبل في ازياء متعددة ، وكانت يداه المرفهتان تنمان عن سيد من سادة المدينة ، ولكنهم راعوا معه ادب الاستقبال .

كانت معرفة الأساليب المألوفة في المسلك هي المعرفة الوحيدة الضرورية الآن ، وما من حاجة الى قوة الادراك والفراسة ، فان سكان الصحراء المبهجين هؤلاء كانوا آليين . واذ فكر نسيم الآن بماونت اوليف ابتسم فجأة وتساءل في نفسه عن المصادر التي استمد منها البريطانيون مادتهم لتلك الأساطير عن عرب الصحراء ؛ فان التفاهة المتناهية كانت تميز حياتهم الضيقة المحدودة الشديدة الانضباط . فان اثاروا شيئاً في نفس الانسان فكما تفعل موسيقى القرب ، دون ان تعبر عن شيء أرقى من المستوى البدائي . وراقب أخاه يتعامل معهم مستمداً قدرته على ذلك من معرفته باساليب حياتهم . مساكين ! لقد شعر في اعماقه بقوة ذكائه الحضاري وشموله .

وركبوا جميعاً وساروا معاً الى خيام الشيخ ، جماعة صغيرة متآلفة ، قاطعين منحدرات الرمال المتموجة خلال مراع سرابية ، الى ان وصلوا الى دائرة الخيام ، الى سماوات الانسان الجلدية التي اخترعها بشر أفعمت ذكريات طفولتهم بالخوف ، حتى اضطروا قسراً الى اختراع سماء أضيق من سماواتهم ، يحفظون فيها بذرة الجنس البشري ؛ ففي هذا المخروط الجلدي ولد الطفل الاول ، واخترع لاول مرة مكان الخلوة ، الذي أصبح فيما بعد ستراً للقبلة ، يحوطها بالسرية ويصونها بالكتمان . وتمنى نسيم بمرارة لو يستطيع ان يرسم بمهارة كليا . أفكار مضحكة ، ولا محل لها هنا .

غير ان خيام الشيخ كانت تمتد على مسافة كبيرة تغطي مساحة الفي قدم مربع - وقد صنعت من شعر الماعز المنسوج في الوان اربعة من الاسود

والأخضر والبني والابيض. وكانت الشراريب الطويلة تتدلى من درزاتها فتداعبها الرياح .

وكان الشيخ واولاده ، كمجموعة من اوراق اللعب ، ينتظرونهم بالتحيات التقليدية التي كان نروز على الأقل يعرف كل الاجوبة عليها . وقادهم الشيخ بنفسه الى احدى الخيام وهو يقول : « هذا البيت بيتكما ، افعلا ما تشاءان . اننا خدمكما . » ووراءه سار السقاؤون ليغسلوا لهما ما كانت الرحلة قد قرّحته من ايد وأرجل ووجوه . واستراحا مدة ساعة على الاقل في تلك الظلال الداكنة ؛ فقد كان للنهار في أوجه . واستلقى نروز على الوسائد وقد فتح ذراعيه وساقيه وعلا شخيره ، بينما اغفى نسيم اغفاءة متقطعة ، كان يستيقظ منها بين الفينة والفينة ليرقب اخاه وهو مستسلم لنوم عميق لاجهد فيه — هو نصيب من اخضع جسمه للعمل المتواصل والحركة النشيطة . وفكر واجماً ببشاعة اخيه — وقد ظهرت اسنانه البيضاء الرائعة من الشق الوردي في شفته العليا . وفي اثناء فترة الراحة هذه كان شيوخ القبيلة يتوافدون عليهما بهدوء ، فيخلعون احذيتهم في مدخل الخيمة ويدخلون ليقبلوا يد نسيم . كان كل واحد منهم يهمس بدوره كلمة الترحيب قائلاً « محبة » .

وافاق نروز عند الاصيل ، وصاح طالباً الماء الذي غسل به جسمه ، ثم طلب بدلاً من الثياب ، فاحضرها له في الحال ابن الشيخ الاكبر . وسار بخطى واسعة الى حرارة الرمال وهو يقول لاخيه : « والآن المهرة . قد يأخذ هذا ساعتين من الوقت ؛ آمل ان لا يزعجك هذا ؛ سوف نعود متأخرين . » وكانت الوسائد قد صفّت لهم في الظل فجلس نسيم مستنداً اليها وشعر بالسعادة وهو يرقب اخاه اذ راح هذا يحث السير على الرمال اللامعة في اتجاه قطيع من الخيل كان قد جلب الى هناك خصيصاً لكي يتفحصه :

كانت الخيول الفتية تلعب رشيقة بريئة ، وقد بدا اهتزاز رؤوسها وعفراتها لنسيم « كامواج بحر خزيران » كما يقول المثل . وتوقف نروز اذ اقترب منها وراح يرقبها . ثم صرخ طالباً شيئاً وهرع نحوه رجل يحمل رسناً ولجاماً

وصاح بصوت اجش « المهر الابيض » . وردد ابناء الشيخ جواباً لم يسمعه نسيم بوضوح ، واستدار نروز مرة ثانية ، وبحذر وهدوء تسلل بين تلك المخلوقات الفتية ، وبمثل لمح البصر كان قد امتطى صهوة مهرٍ ابيض بعد ان اثبت عليه اللجام والرسن بحركة واحدة سريعة من يده .

ووقف المخلوق الاسطوري هادئاً كل الهدوء ، وقد اتسعت عيناه والتمعتا كأنما يود ان يستوعب معنى هذا الحدث الجديد الهائل ، وجود فارس على ظهره ، ثم سرت في جلده ارتعاشة بطيئة — أمواج الرعب التي تحيي دائماً التحام عالمي الانسان والحيوان . ووقف الجواد والفارس كأنما يمثلان امام نحّات وقد غرقا في افكارهما .

والآن انطلق من الحيوان فجأة صرير صرخة خوف خافتة ، وانتفض وقفز عدة قفزات غريبة وقد تقوست ساقاه الاماميتان ، وعلا جسمه جمود فبدا أشبه بلعبة آلية ، وراحت قدماه الاماميتان تضربان الارض بوحشية . ولكن هذا لم يقلقل نروز من مكانه بل مال بجسمه الى الامام وهمهم في اذني الجواد بشيء مما اجفله ، فراح في عدو متعرّج متذبذب وثّاب ، يدور ويقفز ويهجم . ودارا حول الخيام في دائرة بطيئة غير منتظمة ، الى أن عادا اخيراً الى حيث كانت جماعة من العربان تقف في مدخل الخيمة الرئيسية ترقبهما صامتة . والآن اطلق المخلوق المسكين صرير انّة ثانية خافتة ، كأنه قد ادرك ان جزءاً عظيماً من حياته الحقيقية — لعله طفولته — قد انتهى الى غير رجعة ؛ ثم انطلق فجأة في عدو طويل سريع كانت المصابرة فيه من مميزات فصيلته بين فصائل الخيول ، متوجهاً نحو قلب السماء ، كنجم واقع ؛ ثم دار حول الكثبان وانطلق وفارسه راسخ فوقه بفضل قوة ساقيه — ثابت كمن شد الى الشيء بمزلاج ، وراح حجمهما يتضاءل بالتدريج حتى غابا عن الانظار . وانطلقت صيحة استحسان عالية من الخيام ، وتقبّل نسيم الى جانب الجبن الطازج والقهوة ، مديح القوم لأخيه .

وعاد نروز بعد ساعتين بالجواد ، الذي التمع العرق على جسمه ، وغدا مثبط

العزم ، مترنحاً موهن القوى ؛ لا يملك اكثر من ان يشخر باعياء ويضرب بحوافره . لقد اخضعه اخيراً . ولكن هو نفسه كان مرهقاً الى درجة الهذيان ، دائخاً كأنه قد خرج من أتون ، تشهد عيناه المحمرتان ووجهه المختلج المتقلص بعنف العراك . وكانت كلمات التحبب التي بذلها للجواد تنطلق من بين شفتين متشققتين مفلّعتين . ولكنه كان سعيداً بالرغم من هذا كله — مشعاً بالسعادة — اذ نعق يطلب الماء ورجا ان يسمح له بالراحة نصف ساعة قبل ان ينطلقا عائدين . ولكن ما من شيء كان يستطيع ان ينهك هذا الجسم القوي نهائياً — حتى سورة النشوة التي خبرها في المعركة الوحشية الطويلة الامد . ولكنه الان اذ شعر بالماء ينصب على رأسه اغمض عينيه ورأى مرة اخرى الشمس دموية داكنة تتألق وراء اجفانه ، صورة الارهاق الكلي ، وشعر بهجير الصحراء الباهر يبخر الماء ويجففه على جلده . كان عقله خليطاً من الالوان والتصورات الحادة النفاذة التي كانت تطعنه في جميع نواحيه — وكانت حواسه جميعها قد ذابت في الحر كما تذوب علبة الدهان فصهرت الفكر والرغبة والشهوة معاً . وكان رأسه خفيفاً من الغبطة ، وشعر بان جسمه امسى شيئاً اثيرياً كقوس قزح . ومع ذلك ، فانه قبل مضي نصف ساعة كان مستعداً لرحلة العودة .

وانطلقا يرشدهما دليل آخر هذه المرة ، وسار الثلاثة مع اشعة الشمس المائلة التي كانت تلقي بظلالهم الوردية والارجوانية في فجوات الكثبان ، واسرعوا في سيرهم الى قصور العطشى . كان نروز قد اوصى بان يحضر له ابناء الشيخ المهر الابيض في يوم آخر من ايام الاسبوع . وركب جواده الآن براحة وكان يغني بين الفينة والفينة مقطوعة او مقطوعتين من احدى الاغاني . ولدى وصولهم الى قصور العطشى كان الظلام قد ارخى سدوله ، وبعد ان ودعا مضيفهما انطلقا مرة اخرى في طريق الصحراء .

وسارا ببطء وطمأنينة وهما يرقبان القمر الشاحب المبرقش وهو يشع على سكون لا يقطعه الا قعقعة حوافر جواديهما على حصباء الدرب ، او عواء احدى بنات آوى من بعيد — وهنا وجد نسيم فجأة ان حاجز الحياء القائم بينه

وبين اخيه قد ارتفع ، فاستطاع ان يقول : « نروز ، انني مزمع على الزواج واريدك ان تخبر ليلى نيابة عني ، فلست ادري لم اشعر بالحياء من هذا الامر » :

وللحظة من الزمن شعر نروز وكأنه قد تحول الى ثلج — كأنه تمثال في درع من الحديد . وترنح في السرج واصطنع غبطة جوفاء اذ اجبر نفسه على القول بصوت لاهث متقطع : « من كليا يا نسيم ؟ من كليا ؟ » ثم شعر بالدم يعود متدفقاً الى عروقه النابضة بالتوتر عندما هز اخوه برأسه نافياً وحملق فيه باستغراب ثم قال محاولاً السيطرة على كل كلمة بدقة : « لا ، لماذا ؟ انني سأتزوج من مطلقة ارناوٌوطي » . وسارا الان وسرجاهما يطقطقان ، وابتسم نروز لنفسه ابتسام الارتياح وصاح : « انني سعيد جداً يا نسيم ! اخيراً ستكون سعيداً وترزق اولاداً » .

ولكن حياء نسيم العظيم تغلب عليه الآن وروى لنروز كل ما عرفه عن جوستين وعن فقدانها لطفلتها واضاف : « انها لا تحبني الآن ولا تدّعي ذلك : ولكن من يدري ؟ اذا استطعت ان اعيد إليها طفلتها وامنحها بعض الطمأنينة والامان فقد يصبح اي شيء ممكناً » . واضاف بعد لحظة : « الا تظن ذلك ؟ » ، ولكنه لم يكن يرغب في الحقيقة ان يعرف رأي اخيه في الأمر وانما تفوه بهذه العبارة ليقطع الصمت الذي انهال بينهما انهيال تل رملي جرفته الرياح . وتابع حديثه : « اما عن الطفلة فان المشكلة صعبة . لقد بحث رجال النيابة العامة باذلين جهدهم للعثور عليها — وتشير البينات القليلة التي حصلوا عليها الى المجذوب ؛ كان في البلدة عيد ذلك المساء وكان هو هناك . لقد اتّهم عدة مرات باختطاف الاطفال ولكن الدعوى اسقطت عنه لانعدام البينات » . وشنف نروز اذنيه وشد قامته كما يفعل الذئب وسأل : « اتعني المجذوب ذاك الذي يملك قوة مغناطيسية يسيطر بها على الناس ؟ » فقال نسيم بعد تفكير : « لقد ارسلت اعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال — كبيراً جداً — لقاء معلومات اريدها منه » . وهزّ نروز برأسه متشككاً وداعب شعر لحيته القصيرة وقال : « انه ذلك المجنون . لقد كان يجيء كل سنة الى سان دميان . ولكن به جنوناً

غريباً . انهم يلقبونه بزين العابدين . وهو وليّ ايضاً » .

فقال نسيم « هذا هو الرجل » . ومال نروز الآن نحو اخيه كأنه عاد فتذكر شيئاً ، وامسك برسن الجوادين ثم عانق اخاه وهو يجزل له التهنئات التقليدية .

وابتسم نسيم وقال : « انك ستخبر ليلى ؟ ارجوك يا اخي » .

« بالطبع »

« بعد أن ارحل انا ؟ »

« بالطبع »

وبزوال التوتر وموازرة نروز السريعة له شعر نسيم فجأة بان حملاً قد انزاح عن كاهله . وأحس بالتعب الشديد الآن وكأنه على وشك النوم . وسارا بنشاط هوناً ، وقد اوشك الليل ان ينتصف ، حتى أشرفا على حدود الصحراء . وهنا فاجأ الجوادان ارنباً برياً وافزعاه وحاول نروز ان يقتله بسوطه ولكنه اخطأه في العتمة الباهتة .

وصاح وهو يعود الى نسيم « انه خبر رائع » كأن مطاردة الارنب البري فوق الكثبان المضاءة بنور القمر قد منحه ما يحتاج اليه من الوقت والانفراد ليكوّن في عقله رأياً ذا قيمة — وتابع حديثه يقول : « هل ستحضرها في الاسبوع القادم — الى ليلى ؟ لابد أني التقيت بها ولكني لا اذكر . أهي شديدة السمرة ؟ (ضوء الحباحب في الظلام لعينها ؟) كما تقول الاغنية ؟ » وضحك ضحكته الغريبة .

وتثاءب نسيم ناعساً : « آخ ! ان عظامي تصرخ من الالم . هذا ثمرة حياتي في الاسكندرية . نروز ! قبل ان اغفو هناك شيء آخر اريد ان اسألك عنه : انني لم أر بورسواردن . ماذا عن الاجتماعات ؟ »

وصدر عن نروز صوت كأنه الفحيح ، واذار عينيه اللامعتين الى اخيه وهو يقول : « نعم . انها تسير على خير ما يرام ، ان الاجتماع القادم سيكون في عيد مولد القديس دميان ، في الصحراء » . وشد عضلات كتفيه القوية وقال : « ان العائلات العشر جميعها قادمة — هل تصدق ؟ »

فقال اخوه : « ستكون حذراً وتتخذ جميع الاحتياطات لكي يجري كل شيء بشكل سري دون ان تتسرب الاخبار الى الخارج » .

فصاح نروز : « بالطبع » .

فقال نسيم : « اعني ان هذا الأمر يجب ان لا يتخذ صبغة سياسية في مراحله الباكرة . يجب ان ينمو ببطء، مع اتضاح المشكلة وجلائها . هل فهمت ؟ فانني لا اظن ، مثلاً ، انه من الضروري ان تخطب فيهم انت ، ولكن ان تكتفي ببحث الأمر معهم . ليس بامكاننا ان نغامر . وتذكر أن الانجليز ليسوا هم الوحيدين الذين اخشاهم » .

وعيل صبر نروز وحرك ساقه المدلاة ، ونكش سنه ، وفكر بماونت اوليف وتنهد .

« انني اخشى الفرنسيين أيضاً – وهم على خلاف في اهدافهم مع الانجليز : فان كنا سنستعين بالدولتين .. »

فأجاب نروز تَبَرماً : « اعرف ، اعرف » . ونظر نسيم اليه بشدة وقال بصوت حاد : « انتبه لما اقول . فالكثير يعتمد على تفهمك للمدى الذي نستطيع ان نتوغل اليه في هذه المرحلة » .

وبدا نروز منسحقاً لتوبيخ اخيه ، فتضرج وجهه وشبك يديه ونظر الى اخيه وقال بصوت اجش خافت : « انني متيقظ » . وشعر نسيم حالاً بالخجل من نفسه وامسك بذراع أخيه وتابع حديثه بصوته الخافت الحذر :

« ان الاخبار تتسرب بين الفينة والفينة تسرباً غامضاً . خذ كوهين مثلاً ، بائع الفراء الهرم الذي مات في الشهر الماضي . كان كوهين هذا يعمل لصالح الفرنسيين في سوريا ، وحين عاد كان المصريون قد عرفوا كل شيء عن مهمته . فكيف حدث هذا ؟ ليس فينا من يعرف الجواب على ذاك السؤال . ولا شك ان لنا اعداء بين اصدقائنا – في الاسكندرية نفسها . اترى الآن ؟ »

« نعم »

في صباح اليوم التالي حان موعد عودة نسيم ، وركب الاخوان جواديهما ،

وسارا سيراً بطيئاً وادعاً قاطعين الحقول الى النهر حيث كان قارب العبور بانتظار نسيم . وقال نسيم : « لماذا لا تجيء الى المدينة ابداً ؟ تعال معي اليوم ، فآل رنديدي يقيمون حفلة ساهرة في منزلهم هذا المساء ، ولاشك انك ستتمتع بها وتكون تغييراً معافياً لنمط الحياة الذي تتبعه . »

وشاع في وجه نروز تعبير انهزامي ، كدأبه كلما اقترح عليه احد رحلة الى المدينة . فقال ببطء وهو ينظر الى الارض : « سأجيء في الكرنيفال » . وضحك اخوه واخذه من ذراعه : « لقد كنت اعرف انك ستقول هذا . ولكنني اتساءل لم لا تجيء الى المدينة الا مرة واحدة في العام — في الكرنيفال ؟ »

ولكن نسيماً كان يعرف السبب ! فان خجل نروز العميق من شفته المشرومة كان هو الـــدافع الذي يميل به الى الانزواء الكامل كانزواء امه . لقد كان لباس الدومينو التقليدي الذي يلبس في سهرات الكارنيفال اللباس الوحيد الذي يمكنه من اخفاء ذلك الوجه الذي اصبح يمقته مقتاً لم يعد معه يتحمل رؤيته في مرآة الحلاقة . ولكنه كان يشعر في سهرة الكارنيفال بأنه طليق حر . وكان لديه سبب آخر لا يمكن ان يخمنه نسيم لزيارته للمدينة — انه كان يخفي في ثنايا قلبه هوى كلياً شغف لبه : لكليا ، التي لم يكلمها قط ، ولم يرها الا مرتين فقط : عندما جاءت مع نسيم الى المزرعة لتمضي الوقت في ركوب الخيل ؟ كان هذا الهوى سراً لا يمكن ان يجبره احد على البوح به حتى تحت العذاب الشديد ، ولكنه كان يحضر كل حفلة من حفلات الكارنيفال فيتجول بين المحتفلين رجاء ان يلمح مصادفة هذه المرأة الشابة التي لم ينطق باسمها علناً الا ذلك اليوم .

(لم يكن يعرف ان كليا تمقت موسم الكارنيفال وتمضي الوقت بهدوء في مرسمها ترسم وتقرأ .)

وافترقا الآن بعد عناق حار ، وانطلقت سيارة نسيم تنشر رايات الغبار في هواء الحقول الساخن وكأنها تشتاق الى بلوغ طريق الساحل مرة اخرى . وكانت احدى البوارج الراسية في الميناء تطلق احدى وعشرين طلقة تحية لأحد

الرجالات المصريـين ، فترتجف الغيـوم اللؤلؤية التي تظلل الميناء عادة في الربيع — ويتبدل لونها . كان البحر هائجاً اليوم ، وكانت اربعة من قوارب الصيد تصارع الأمواج في طريقها الى مرفأ البلدة وهي محملة بالصيد . ولم يقف نسيم الا مرة واحدة ليشتري قرنفلة من بائع الازهار في زاوية شارع سعد زغلول ، ويضعها في عروة سترته . وفي طريقه الى مكتبه توقف ليلمع حذاءه . ولم تبدُ له المدينة يوماً اجمل منها اليوم . واذ جلس الى مكتبه فكر في ليلى ثم في جوستين . ترى ماذا ستقول امه عن هذا القرار الذي اتخذه ؟

وسار نروز في ذلك الصباح الى البيت الصيفي ليؤدي مهمته ؛ وكان قبل ذهابه قد قطف طاقة من الورود الحمراء والصفراء ليملأ بها الزهريتين الكبيرتين الموضوعتين على جانبي صورة ابيه . كانت امه نائمة وقد توسّدت طاولة الكتابة ، ولكنها استيقظت على صوت الباب وهو يفتحه . وفحّت الافعى فحيحاً ناعساً ثم عادت فخفضت رأسها الى الارض مرة اخرى .

واذ رأت الورود قالت : « ليباركك الله يا نروز » . ونهضت حالاً لتفرغ الزهريتين . وبينما كانا ينسقان البراعم النضرة في الزهريتين اخبرها نروز بأنباء زواج نسيم . ووقفت صامتة هنيهةً لا يبدو عليها الاضطراب ، وإنما ظهرت على وجهها أمارات الجد كأنها تستطلع اعمق افكارها وعواطفها ، واخيراً قالت وكأنها تخاطب نفسها لا الآخرين : « ولم لا ؟ » واعادت العبارة مثنىً وثلاثاً كمن يحاول ان يتفحص نغم صوته .

ثم عضت ابهامها والتفتت الى ابنها الاصغر قائلة : « ولكنها اذا كانت امرأة مغامرة تسعى وراء ماله فانني لن ارضى بهذا الزواج ، بل سأتخذ الخطوات للقضاء عليها . على كل حال انه يحتاج الى موافقتي » .

ووجد نروز هذا مضحكاً للغاية فأطلق ضحكة لم تخل من معاني الاجلال لأمه ، فاخذت ذراعه الشعراء وقالت « سافعل هذا » .

— « ارجوك . »

— « اقسم على هذا . »

واستغرق في الضحك حتى بان سقف حلقه الوردي . ولكنها بقيت شاردة الفكر ، كأنها تصغي الى حوار داخلي . وفيما هو مسترسل في الضحك ربّتت على ذراعه شاردة الذهن ، ثم همست إليه : « اصمت » ؛ وقالت بعد سكون طويل وكأنها دهشت لأفكارها : « الغريب في الأمر اني اعني ما اقول » .

فقال وهو لم يزل يضحك : « وانت لا تستطيعين ان تعتمدي علي ، اليس كذلك ؟ » كانت كلماته تحمل بذرة الجد : « انك لا تثقين بي ولا تعتمدين علي في ان اكون حارساً على شرف اخي » . كان الضحك ما زال يملأ نفسه كما تمتلىء الضفدع بالماء ، مع ان تعبير وجهه اتخذ معنى الجدّ الآن وفكرت ليلى في نفسها قائلة : « يا الهي ، ما اشد قبحه ! » . وامتدت اصابعها الى نقابها الاسود تتلمّس من خلاله الندوب الخشنة في بشرتها ، وتضغط عليها بعنف كأنما تود لو تسوّيها .

وقالت وهي على وشك البكاء : « يا نروز الطيب » ، وأمرّت أصابعها خلال شعره . واثارته شاعرية اللغة العربية في كلماتها وهدأته : « يا قرص الشهد ، يا حمامتي ، يا نروز الطيب ! قل له (نعم) مع حبي . قل له نعم » .

ووقف صامتاً ، يرتجف كمهرة صغيرة ، ويشرب نغم صوتها ، والتربيتات التي ندر أن منحته اياها تلك اليد الدافئة القديرة .

— « ولكن قل له انه يجب ان يحضرها الينا هنا . »

— « سأقول له ذلك » .

— « اخبره اليوم » .

وسار بمشيته المنترة الى حيث التلفون في البيت القديم . وجلست امه الى طاولتها المغبرة وأعادت مرتين بصوت خافت مفعم بمعاني الدهشة : « لماذا اختار نسيم امرأة يهوديّة ؟ »

٥

هذا ما استخلصته واعدت تركيبه من متاهة التعليقات والتذييلات التي تركها لي بالثازار . انه يقول في مكان ما : « لأن يتخيل الانسان ، لا يعني بالضرورة انه يخترع . إنّ الانسان لا يجروُ على ان يدعي معرفة كل شيء والاحاطة بكل شيء عندما يحاول تفسير افعال الآخرين . انه يفترض انها قد انبثقت من مشاعرهم كما تنبت الاوراق من الاغصان . ولكن هل يستطيع المرء ان يعود الى الوراء في تفسيره وان يستدل على تلك المشاعر من هذه الافعال ؟ قد يستطيع الكاتب ان يفعل هذا اذا تحلّى بالشجاعة الكافية ، لكي يصل هذه الفجوات الواضحة في افعالنا بتأويل من لدنه ، ويربطها بعضها بالبعض الآخر ؛ فماذا كان يجري في بال نسيم ؟ هذا في الحقيقة سؤال يجب ان توجهه الى نفسك .

« وماذا كان يجري في بال جوستين ايضاً ؟ من الصعب أن يخمّن المرء ذلك ؛ ولكن كل ما استطيع قوله هو ان الاحترام الذي كانا يتبادلانه نما وتزايد بقدر ما كانت مودتهما تتناقص . لقد كانا متفاهمين على أنّ الواحد منهما لا يحب الآخر كما وضحت لك ، ولعل ذلك كان افضل ، غير اني لم استطع

أن أعثر في جميع الاحاديث التي تبادلتها معهما منفردين على سر تلك العلاقة التي فشلت فشلاً ذريعاً — فقد كان باستطاعة الانسان ان يرى مودتهما تتناقص وتغور ، كما تغور الارض ، كما يغور سطح بحيرة ، دون ان يعرف السبب ؛ غير ان اللون الخارجي ظلّ براقاً ، وقد اتقن جيداً حتى استطاع ان يخدع اغلب المراقبين — مثلك مثلاً . ولست اشارك ليلى رأيها — انها لم تحب جوستين قط . لقد جلستُ قربها في الحفلة التي اقامها نروز لتقديم جوستين الى معارفهم ايام احتفالات المولد في « ابو جرج » التي تقع كل سنة حوالي عيد الفصح : كانت جوستين آنذاك قد نبذت اليهودية واعتنقت النصرانية القبطية تلبية لرغبة نسيم — ولما كان نسيم لا يستطيع ان يتزوجها إلا سراً ، لأنها كانت قد تزوجت من قبل ، فان نروز اضطر الى الاكتفاء بحفلة يقدمها فيها الى سكان البيت الكبير من وكلاء وخدم ، والى تابعيه ، فقد كان دائماً شديد اللهفة على نسج حياتهم ضمن حياة البيت العائلية .

« واستمر نصب الخيام والشوادر الكبيرة حول البيت اربعة ايام — تلك الخيام بسجاجيدها وثرياتها وزيناتها البراقة . وتعرت الاسكندرية من ازهارها جميعها ، وخلت من شخصياتها الاجتماعية البارزة التي قامت بالرحلة الساخرة الى « ابو جرج » ، (ليس في المدينة ما يثير السخرية اكثر من عرس فخم) ، ليقدموا احترامهم وتهانيهم الى ليلى. المديرون المحليون والشيوخ ، وعدد غفير من الفلاحين ، وشخصيات بارزة من جميع انحاء البلاد توافدوا جميعهم الى المزرعة ليشتركوا في الاحتفال — بينما جاء البدو الذين يخيمون حول مزارع الحصناني وعرضوا العاب الفروسية والطراد الرائعة حول البيت مرات ومرات ، وهم يطلقون الرصاص — كأنما كانت جوستين عروساً صبية — عذراء ، تصور ابتسامات اثيناتراشا ، وآل سيرفوني ! وقد جاء الشيخ ابوقار نفسه وصعد درجات البيت على جواده الاشهب ودخل الى قاعات الاستقبال حاملا اناء من الازهار :

« اما ليلى فانها لم تحول عينيها الذكيتين عن جوستين لحظة واحدة — لقد

تابعتُها بعناية كمن يدرس تمثالاً تاريخياً . وسألتُها وأنا أتابع نظراتها « أليست بديعة ؟ » ورشقتني بنظرة سريعة كنظرة طائر ، ثم عادت ترقب جوستين باستغراق. (اننا صديقان قديمان يا بالثازار ، وبامكاني ان اصارحك بما في نفسي . لقد كنت اقول لنفسي إنها تبدو كما كنت ابدو انا يوماً ، إنها مغامرة ، كأفعى صغيرة داكنة جنحت في وسط حياة نسيم) . واحتججتُ بصراحة على هذا ، فحملقت في عينيّ لحظة طويلة ثم قهقهت قهقهة خافتة . ودهشت لما قالته لي بعد ذلك : (نعم ، انها مثلي — لا رحمة عندها في سعيها وراء اللذة ومع ذلك فانها عقيمة مجدبة — ان ما فيها من خير قد حال الى حب السيطرة ، ولكنها ايضاً مثلي في حنانها ورقة عواطفها وفي كونها امرأة حقّة للرجل . انني اكرهها لانها تشبهني . افهمت ؟ وانني اخافها لانها تستطيع ان تقرأ افكاري) . وبدأت تضحك الآن ، ونادت جوستين قائلة : (يا حبيبتي — تعالي الى هنا واجلسي بالقرب مني) . وقدمت لها ذلك النوع من السكاكر الذي تكرهه اكثر مما تكره سواه — سكاكر روح البنفسج — ورأيت جوستين تتناول حبة منه بتحفظ — فقد كانت هي ايضاً تكره هذه السكاكر جداً . وهكذا فقد جلست الاثنتان هناك ، ابوالهول المقنعة — وابوالهول السافرة ، تأكلان سكاكر روح البنفسج التي تكرهانها . وقد ابتهجت لتمكني من رؤية النساء وهن يسلكن حسب فطرتهن البدائية . غير اني لا استطيع ان اخبرك الكثير عن صحة احكام كهذه الاحكام .. فاننا دائماً نطلق مثلها بعضنا على البعض الآخر ؟

« والغريب انه بالرغم مما بين المرأتين من النفور — وهو نفور نستطيع ان نسميه نفور التجانس — فقد نشأ معه ، جنباً الى جنب ، تعاطف غريب بينهما ، شعور بالاتحاد في الجوهر . فمثلاً ، عندما جروّت ليلى اخيراً على ان تلتقي بماونت اوليف كانت جوستين هي التي رتبت هذا اللقاء سراً . وكانت هي التي جمعتهما ، وكلاهما مقنع ، في اثناء حفلة الكارنيفال ، على الاقل هذا ما سمعته :

« اما عن نسيم فقد اقول بتبسيط مبالغ فيه : انه لم يكن قد ادرك ، لشدة براءته ، ان الانسان لا يستطيع ان يعايش امرأة ان لم يكن يحبها بعض الحب — وان التملك هو تسعة اعشار الغيرة ! لقد فزع وارتاع عندما ادرك مدى غيرته على جوستين ، وكان يحاول بجهد صادق ان يعتاد شيئاً لم يألفه — على اللامبالاة ، ترى أكان هذا خطأ منه ام صواباً ؟ لست ادري .

« ومن جهة أخرى ، استطيع ان اقول ان الشيء غير المتوقع الذي ارهق جوستين نفسها كان اكتشافها ان عقد الزواج الذي اجري بكل ذلك التعقل وعلى مستوى المساومة المادية قد شدها الى نسيم اكثر من خاتم زواج . ان المرأة لا تفكر مرتين قبل ان تقدم على خيانة زوجها (اذا كان الهوى والرغبة يكمنان وراء فعلها هذا) : ولكن ان تخون جوستين نسيماً كان امراً اشبه بسرقة المال من درج سري . ما رأيك ؟ » .

ان شعوري الخاص (صبراً يا بالثازار) هو ان جوستين اخذت تدرك مع الأيام ان شيئاً خفياً كان في اخلاق هذا الرجل المنكمش على نفسه ، الكثير المعاناة ، الكثير التدليل لها ، وهو غيرة شديدة تضاعف خطرها ورهبتها لأنها لم تسمح لنفسها بأي منفذ تنطلق منه . واحياناً ... ولكني هنا اكاد اكشف عن اسرار باحت بها جوستين إليّ خلال فترة علاقتنا الغرامية التي جرحتني ذلك الجرح العميق والتي كانت تستعملني فيها ، كما اتضح فيما بعد ، تغطيةً لنشاط آخر . لقد وصفت نمو تلك العلاقة في مكان آخر . ولكن لو كان لي ان ابوح الان بما قالته لي عن نسيم بحرفه وحذافيره لحملني ذلك : اولاً على ان ادون هنا مادة قد تنفّر القارىء وتظلم نسيماً نفسه . وثانياً : انني لم اعد متأكداً من صحتها النسبية فلعلها كانت جزءاً من خطة الخديعة الكبيرة ! فحتى هذه المشاعر (« دروس مهمة تعلمناها » الخ) اصطبغت في ذهني بالشك الكبير الذي اثارته في عقلي تعليقات بالثازار . « الحقيقة هي ما كانت اشدّ تناقضاً مع نفسها ... » اية اضحوكة هذا كله !

امّا ما يقوله عن غيرة نسيم فصحيح ، لأني عشت مدة في ظلال تلك

الغيرة ولمست بنفسي عمق تأثيرها على جوستين . فمنذ البداية تقريباً وجدت جوستين نفسها ملاحقة مراقبة ، فكان طبيعياً أن يشعرها هذا بالقلق : شعوراً زاده فظاعةً ان نسيماً لم يتكلم عنه قط بصراحة ، ولكنه بقي حملاً غير مرئي من الشك يلاحق ابسط تعليقاتها ويشوهها ، ويتبعها في ابرأ نزهاتها المسائية . فقد يجلس نسيمُ بين الشموع الطويلة يبتسم لها بلطف بينما كانت تتجاوب في عقله محاكمة كاملة صامتة لها .

وغدت ابسط الافعال واشدها اخلاصاً — كزيارة للمكتبة العامة أو قائمة مشتريات أو رسالة على بطاقة — توقع في الارتباك والتشويش عيناً غيرى — غيرتها قائمة على العجز العاطفي . لقد ارهق نسيم بمطالبها ، وأرهقت هي بالشكوك التي رأتها منعكسة في عينيه — برقته البالغة اذ يضع الشال على كتفيها فكأنه يربط انشوطة حول عنقها . لقد كانت هذه العلاقة ، تردد ترديداً غريباً اصداء العلاقة النفسانية — التحليلية التي وصفها زوجها الاول في كتاب «Moeurs» عندما اصبحت في نظر زوجها وأطبائها حالة نفسية مستعصية ، اكثر منها انساناً سوياً ، وكادت تفقد عقلها من الاسئلة المرهقة التي كان يطرحها عليها اولئك الذين لا يعرفون متى يجب ان يترك المريض وشأنه . نعم ، لقد وقعت في مصيدة ، لاشك في ذلك . كانت الفكرة تتجاوب اصداؤها في عقلها كضحكة مجنونة . انني لم ازل اسمعها حتى الآن .

وهكذا فقد سارا في الحياة جنباً الى جنب ، كفرسَيْ رهان ، وقدّما الى الاسكندرية ما كان يبدو نموذجاً رائعاً لعلاقة كان الجميع يغبطونهما عليها ويعجزون عن تقليدها . نسيم الزوج العطوف المفتون ، وجوستين الزوجة الجميلة الراضية .

ويكتب بالثازار : « اعتقد انه كان يسعى وراء الحقيقة فقط . الم تصبح هذه الملاحظة مضحكة بعض الشيء ؟ يجب ان نتفق جميعنا على نبذها ! فان البحث عن الحقيقة امرغريب . هل اعطيك مثلاً ثانياً يتعلق بموضوع آخر ؟ ان وصفك موتَ كابوديستريا في البحيرة هو التفسير الذي كنا جميعنا قـد

تقبّلناه على انه حقيقة في ذلك الوقت .

« ولكن تبيّن من تقارير الشرطة ان افادات جميع الاشخاص ذوي العلاقة بالامر قد اكدت نقطة واحدة معيّنة — وهي انهم عندما رفعوا جثته من البحيرة حيث كانت عائمة وبقربها العصابة السوداء ، وقعت اسنانه الاصطناعية على ارض القارب محدثة قرقعة افزعت الجميع . والآن اصغ الى هذا : بعد الحادث بثلاثة أشهر كنت أتناول طعام العشاء مع بيير بالبز « Balbz » ، طبيب الاسنان الذي كان يعالجه . وقد اكد لي ان اسنان داكابو كانت في حالة ممتازة تقريباً ولم يكن في فمه اسنان اصطناعية يمكن وقوعها منه ، فمن كان هذا اذن ؟ لست أدري . اذا كان داكابو قد اختفى عن الانظار بعد ان رتب ان يوضع بدلاً منه شخص آخر ليخدع الناس ، فلا بد انه كانت لديه اسباب كثيرة حملته على ذلك : فقد ترك وراءه ديوناً تقدر بمليوني جنيه . اترى الآن ما اعنيه ؟

« ان الحقيقة بطبيعتها غير ثابتة . قال لي نروز مرة انه يحب الصحراء لان (الريح تذرو آثار اقدام الانسان كما تطفىء لهيب الشموع) . ويبدو لي ان هذا هو ما تفعله الحقيقة ، كيف اذن نستطيع ان نبحث عنها ؟ »

* * *

كان بومبال في ذلك النهار يتردد بين قواعد اللياقة الدبلوماسية ودهاء مدعٍ عام ريفي ، وكانت العواطف المتصارعة تتلاعب على وجهه المكتنز اذ جلس في الكرسي الذي يجلس فيه كلما أصيب بألم المفاصل ، وشبك اصابعه . وقال لي وهو يرقبني بامعان : « انهم يقولون انك الآن في المكتب الثاني البريطاني ، إه ؟ لا تخبرني ، فإني اعلم انك لا تستطيع ان تتكلم . وكذلك فاني انا ايضاً لا استطيع ان اتكلم اذا ما سألتني . انت تظن أنك تعرف انني في المكتب الثاني الفرنسي — ولكني انكر ذلك بشدة . غير اني اتساءل : أكان من الحكمة ان ادعك تسكن معي هنا في شقتي . انه يبدو ... كيف نقول هذا ؟ كقصة بوكس وكوكس ، اعني ، لمَ لا يبيع احدنا الآخر الأنباء ، ما رأيك ؟ انني اعرف أنك

لن ترضى . وكذلك انا فلن ارضى : ان روح الدعابة عندنا ... اعني اننا فقط لو كنا في ... إحم : ولكن بالطبع انت تنكر الأمر وانا انكره ، ولذا فنحن لسنا كذلك : ولكنك لا تأنف من ان تشاركني في نسائي . إه ؟ «Aut e chose» اتريد كأساً من المشروب ؟ إه؟ ان قنينة الجن هناك . لقد خبأتها من حميد : بالطبع ، انني اعرف أن شيئاً ما يحصل الآن ولست يائساً من اكتشافه . شيء ... ليتني اعرفه ... ماونت اوليف إه ؟ »

قلت تغييراً للموضوع : « ماذا فعلت بوجهك ؟ » فكان قد بدأ اخيراً يرسل شعر شاربيه . وأمسك بهما وكأنه يريد الدفاع عنهما ، فكأنما بدا له في سؤالي تهديد بحلقهما قسراً : « شارباي ، اهذا ما تعني ! حسناً ، في المدة الاخيرة وُبخت كثيراً على اهمالي وقصوري في عملي ، حتى عكفت احلل نفسي تحليلاً عميقاً ، « au fond » ، هل تعلم كم عدد الساعات التي اخسرها من اوقات عملي بسبب النساء ؟ لا يمكنك ان تخمن : ولذا فاني قدرت ان الشاربين (اليسا قبيحين منفرين ؟) سيبعدان النساء عني مدة من الزمن. ولكن عبثاً : ان الحال لم يزل على ما هو : انه دليل ، يا صديقي العزيز ، لا على سحري ، بل على المستوى المنخفض هنا . فيبدو أنهن يحببنني لأنهن لا يجدن هنا من هو أفضل مني . انهن يهوين دبلوماسياً مثلي — كيف تقول « faisandé » لماذا تضحك؟ انك ايضاً تضيع ساعات كثيرة على النساء . غير ان الحكومة البريطانية تساندك — الجنيه الاسترليني ، إه ؟ لقد جاءت تلك الفتاة الى هنا مرة اخرى اليوم ، يا إلهي ، ما اشد نحولها وما اكثر ما تحتاج اليه من عناية ! لقد عرضت عليها طعام الغداء ولكنها رفضت البقاء . ثم تلك الفوضى والقذارة في غرفتك ! انها تدخن الحشيش ، اليس كذلك ؟ حسناً ، عندما اذهب الى سوريا في الاجازة تستطيع ان تحتل المكان كله شريطة ان تحافظ على حاجز المدفأة — اليس متقناً من الناحية الفنية ، ها ؟ »

كان عنده حاجز مدفأة ضخم ذو الوان بهية اوصى بها خصيصاً للشقة ، وقد نقشت عليه هذه الاسطورة : « Legerete, Fatalite, Maternite, »

ويسترسل في حديثه قائلاً : «آه حسناً، هذا يكفي عن الفن في الاسكندرية. امّا جوستين ، تلك البربرية ، فهي أفضل لك من سواها ، اليست كذلك؟ اراهن على انها — إه؟ لا تخبرني . لم لا تشعر بأنك اسعد حالاً بسبب هذه العلاقة ؟ انتم الرجال الانجليز ! انكم دائماً كئيبون تفرطون في التحسب والتحفظ. Pas de remords, mon cher امرأتان معاً ، هل يتهيأ لأحد افضل من هذا ؟ وإحداهن عسراء ، كما يسمي داكابو السحاقيات. انك تعرف سمعة جوستين؟ حسناً ، من جهتي انني سأنبذ كل... »

وهكذا يتدفق بومبال بروح الدعابة العظيمة تلك عائماً على نهر تجاربه الضحل ، وأقف انا على الشرفة أرقب السماء تعتم شيئاً فشيئاً فوق الميناء ، واسمع صفير السفن الذي يؤكد وحشتنا هنا ، وعزلتنا عن دفء تيار الشعور والفكر الاوروبيين. هنا تنزلق جميع التيارات بعيداً نحو مكة او الى الصحراء التي لا يمكن ان تحل رموزها ابداً — وليس في هذه الناحية من البحر المتوسط موطىء للقدم الا هذه المدينة التي سكناها وانتهينا إلى كرهها وتغذيتها بمشاعر احتقارنا انفسنا.

ثم ارى ميليسا قادمة في الشارع ويغص قلبي بالفرح والشفقة اذ ادور لأفتح باب الشقة .

* * *

هذه الايام الهادئة الخاملة في الجزيرة رفيق يلائم الأفكار والمشاعر التي تعتمل في نفس رجل يسير وحيداً على شواطىء مهجورة، او يؤدي الواجبات البسيطة لعائلة لا امرأة فيها . ولكنني الآن احمل الدفتر الحافل بالتذييلات والتعليقات التي كتبها بالثازار اينما اذهب ، سواء كنت اطهو الطعام او اعلم الطفلة السباحة او اقطع الاخشاب للموقد. ولكن هذه الأساطير تعيش كامتداد للمدينة البيضاء نفسها بسماواتها اللؤلؤية التي لا يتخللها في الربيع الا المآذن ، واسراب الحمام ، تدور وتدور في غمامات بنفسجية فضية ، وبمياه مينائها السوداء التي تعكس خيال السفن الحربية وهي تدور دورانها البطيء ، لتعيّن

اتجاه الرياح ، او تبتلع خيالاتها الداكنة بلون الحبر ، وتتلامس وتتداخل تماماً كاللغات والطوائف والاجناس كلها التي تركز عليها خفارتها القلقة : فترمز الى التيقظ الغربي الذي يمثل الفولاذ قوته ــ تلك المدافع الحرون المتوعدة المصوبة الى معدن البحيرة الاصفر والى البلدة التي تتفتح عنـــد الغروب كوردة .

القِسْمُ الثَّانِي

٦

ويكتب بالثازار : « اما عن بورسواردن فلن اقول انك ظلمته — الا انه يلوح لي ان وصفك اياه لا يبعث امامي صورة الرجل التي عرفتها اصلاً :
انه يبدو لك لغزاً (لعله لا يكفي ان يحترم الانسان عبقرية الرجل — ولكن عليه ان يحبه قليلاً ، اليس كذلك ؟) ، قد يكون الحسد الذي تتحدث عنه قد اعمى عينيك عن مزاياه ، ولكنني أشك في هذا ، اذ يبدو لي انه من العسير جداً ان يحسد الانسان رجلاً مثله يجمع الى تفرد العقل وقوة التصميم تلك السذاجة البلهاء التي كان يبديها في نواحٍ كثيرة ، الأمر الذي جعله انساناً طريفاً غريباً منقطع النظير (مثلاً : كانت النقود ترعبه) : وانني اعترف بانني كنت اراه رجلاً عظيماً وكنت أعرفه جيداً — مع اني لم أقرأ من كتبه كتاباً واحداً قط ، حتى ولا الثلاثية الأخيرة التي احدثت كل تلك الضجة في العالم ، مع اني ادعي كلما كنت في جماعة من الناس اني قرأتها : لقد تصفحتها هنا وهناك ، ولست اشعر بانني احتاج الى قراءة المزيد منها :

« ولهذا فقد دونت بعض المعلومات هنا عنه ، لا لاناقضك ، ايها الحكيم ». ولكن لاجعلك تقارن بين خيالين غير متشابهين . وان كنت انت قد اخطأت.

الرأي فيه فانك لست اقل خطأ من بومبال الذي كان يعزو اليه دائماً صفة الدعابة القاتمة العزيزة جداً على قلوب الفرنسيين ، غير أن الكآبة لم تكن من صفات الرجل كما ان ضجره من الدنيا ، وهو صفة كانت واضحة فيه ، لم يكـــن مصطنعاً . اما بذاءة لسانه فتعود الى بساطته المتناهية ، والى روح الشيطنة التي لم تكن دائماً مبهجة . وانني اظن ان بومبال لم يشف جرحه قط من لقب « Le Prépuce Barbu » الذي اضفاه عليه بورسواردن ؛ وكذلك انت ، اذا غفرت لي قولي ، لم يلتئم جرحك قط ايضاً من نقد بورسواردن لرواياتك : هل تذكر ؟ « في هذه الكتب نزعة غريبة رهيبة من القسوة — من قلة الانسانية التي حيّرتني في البدء . ولكن هذه هي الطريقة التي يقنّع العاطفي بها ضعفه : ان القسوة هنا تجابه العاطفية . فالانسان يجرح الغير لانه يخاف من ان يتهافت كليّاً : » بالطبع ، انك محق في قولك انه كان يزدري حبك لميليسا — ولا بد ان اللقب الذي اضفاه عليك قد جرحك أيضاً (ملامح الوجه التي تدل على الرغبة المشبعة) : « ها هو « صاحب الملامح » يمر في معطفه القذر » انها نكتة هزيلة ، اعرف ذلك ، ولكن هذا كله ليس واقعياً .

« انني اتفحص اليوم محتويات درج مليء بالمذكرات والملاحظات لكي استمد منها مادة للتفكير فيه . ان اليوم هو يوم عطلة والعيادة مقفلة ، لا شك ان هذا العمل خطر — اعرف ذلك ، ولكن لعلي استطيع ان اجيب على سؤال لا بـــد انك وجهته الى نفسك عندما قرأت الصفحات الاولى من تعليقي على كتابك : «كيف تمكن بورسواردن وجوستين ... ؟ » اعرف .

«كان بورسواردن قد ذهب الى الاسكندرية مرتين قبل ان يتعرف الينا جميعاً ، وكان قد أمضى شتاءً كاملاً في حي الازريطة ، يؤلف كتاباً ؛ غير انه الآن عاد ليلقي سلسلة من المحاضرات في معهد الاتيليه ، وبما انني كنت مع نسيم وكليا في اللجنة فانه لم يستطع ان يتجنب التعرف على هذه الناحية من الحياة الاسكندرانية التي ابهجته وبعثت في نفسه الغم اكثر من جميع المناحي الاخرى » فهو يكتب في رسالة الى ماونت اوليف :

«يا عزيزي دافيد»

«انني ارى في جرائد اليوم انك قد انتخبت لتكون السفير الجديد. ليتني عرفت من قبل انك قادم، اذن لكنت بقيت هنا بدلاً من ان اكون الآن على وشك الرحيل. اللعنة! انني اقول لك بصراحة ان مصر ليست مكاناً يحسد المرء على العيش فيه في الوقت الحاضر بعد انتهاء الانتداب. فهناك صراع فظيع اشبه بصراع الكلاب، بين بقايا المخلفات القديمة. وليس هناك من يستطيع ان يبت في امره. واذا كنت بالفعل قادماً فانك ستضطر الى اتخاذ مقرّرات تسبب لك الصداع – في باكورة الربيع كما اعتقد؛ انني كعادتي غير مرضي عني لاهمالي الواجب ولإدلائي بالآراء اللاذعة حول الحالة الراهنة وكيف يجب أن تكون. غير انه ليس هناك ما يمكن ان اخسره في الحقيقة. اما سفارتك فمليئة بالانماط الغريبة. ايرول النبيل العمالي واغرب الحيوانات جميعها، تراه مشتعلاً بالحماسة والجهل، ودونكين الذي نمّى شعر ذقنه واعتنق الاسلام... ولكني لن استرسل في إرعابك اكثر من اللازم الآن. ان عقدي ينتهي في نيسان، وبما ان آرائي لا تلاقي ميولاً هنا فاني اتوقع ان انقل الى مكان آخر. ولو شئت الصراحة فإني لا اعبأ اذا ما نقلت. غير انه سيكون من دواعي ابتهاجي ان ارحب بك في هذا البلد الذي اصبح هدفاً لسياستنا واصبحنا نرى كل شيء فيه مقلوباً رأساً على عقب. ولكن اذا كانت ناحية العمل فظيعة فان الاسكندرية هي بين يديك كما كانت وكما ستكون الى الابد؛ بابل المطعمة بمختلف الاجناس البشرية. اما نسيم، ونيروز وامهما الشاذة التي لا يراها احد... فأستطيع ان اقول لك الكثير عنهم، ولكن ليس عن طريق الكتابة واني اذا طردت من عملي فسوف احاول ان اتصل بك عن طريق البريد الدبلوماسي. متى ستترك روسيا؟ ارسل لي بطاقة من فضلك. يجب ان احدثك قبل ان تتوجه الى هذا المكان، فهناك الكثير مما يجري تحت السطح هنا، وقد عرفته انا سراً، ولكن سفارتك الميمونة لا تعرف شيئاً عنه. المخلص

(ل. ب.)

« اما مظهر بورسواردن الخارجي فسأصفه بقدر ما استطيع ان اتذكره ؛ كان اشقر البشرة ، ذا قامة متوسطة ، ممتلىء البنية قويها وان لم يكن بديناً ، بني الشعر والشاربين — وهذان كانا صغيرين جداً — وكان يعنى بيديه عناية شديدة ، وله ابتسامة لطيفة . اما اذا لم يكن مبتسماً فقد كان يشيع في وجهه تعبير ساخر يكاد أن يكون وقحاً . وكانت عيناه شهلاوين وهما اجمل ما في وجهه . كانتا تتأملان عيون الآخرين وآراء الآخرين ببراءة حقيقية وبصفاء يكاد أن يكون مرعباً . وكان اشعث الهندام قليلاً ولكنه كان نظيف الجسم واللباس نظافة كاملة ، وكان يكره الاظافر والياقات القذرة ؛ نعم ، ولكن ملابسه كانت تبدو احياناً ملطخة بالحبر الاحمر الذي كان يكتب به .

« اني اعتقد ان روح الدعابة عنده قد فصلته عن الآخرين الى عالم خاص به ، او أنه كان قد اكتشف لنفسه عدم الجدوى من الإدلاء بالآراء فجعل من عادته ان يقول عكس ما يعتقده باسلوب مازح ؛ لقد كان ذا طبيعة ساخرة ولهذا فكثيراً ما كان يخرق قواعد الذوق السليم : ومن هذا ايضاً كانت تنبعث ازدواجيته ، والخفة الظاهرة التي كان يتحدث بها عن المواضيع الكبرى . هذا النوع من التهريج الجاد يترك آثاره البارزة في الحديث بشكل خاص غريب ؛ ولقد بقيت تعليقاته العابرة كأثر مخالب القطة في وعاء من الزبدة ، اما الاحاديث الغبية السخيفة فقد كان يجيب عليها بكلمة (Kwatz) ؛

« كان يعتقد كما اظن ان النجاح مفطور في العظمة ، فجعله عدم نجاحه (لم يكسب الا القليل جداً من انتاجه وكان كسبه جميعه يذهب الى زوجته ووليديه في انجلترا) ميالاً الى الشك في قواه الادبية . لعله كان من الانسب لو أنه ولد امريكياً ؟ لست ادري .

« انني اذكر نفسي ذاهباً لملاقاة سفينته مع كيتس وكان هذا يسير لاهثاً وفي نيته ان يعقد معه جلسة صحفية . ووصلنا متأخرين ولم نلحق به الا وهو منهمك يملأ قسيمة الدخول . وكان قد كتب ازاء كلمة « الدين » : (بروتستانت

ـ ولكن فقط بمعنى اني اعارض .) (١)

« وعندما دخلنا الى ارض الميناء اخذناه الى احد المشارب ليتمكن كيتس من اجراء مقابلته معه في هدوء . كان هذا الولد المسكين مرتبكاً اشد الارتباك ؟ فقد كان بورسواردن يصطنع ابتسامة خاصة للصحافة . ولم تزل الصورة التي التقطها كيتس له ذلك الصباح في حوزتي . كانت ابتسامته كأنها ابتسامة يبست على وجه طفل ميت . وفيما بعد صرت اعرف هذه الابتسامة واعرف انها تعني بأنه على وشك ان يقول شيئاً بسخرية فظيعة يخرق بها قواعد الذوق السليم . ولكن انتبه ! انه لم يكن يحاول ان يسلي احداً الا نفسه . وراح كيتس يزفر وينفخ بانفاسه ، ويحاول ان يبدو « مخلصاً » وان يسأل اسئلة مهمة ، ولكن عبثاً . بعد المقابلة طلبت منه نسخة من الحديث الذي جرى بينهما فطبع مجمل الحديث على الآلة الكاتبة ، واعطاني نسخة منه وقد بدت عليه الحيرة وراح يؤكد انه لم تكن هنالك اي « اخبار » حول الرجل . كان بورسواردن قد قال في المقابلة اشياء كهذه : (انه من واجب كل وطني ان يكره بلاده كرهاً خلاقاً) ؛ وكهذا : (ان انجلترا تصرخ من حاجتها الى المواخير) ؛ وهذه العبارة الاخيرة صعقت كيتس قليلاً فسأله عمّا اذا كان يشعر بان « الرخصة غير المقيدة » امر مناسب لانجلترا ؛ وعما اذا كان بورسواردن يود أن يهدم الدين ؟

« باستطاعتي الآن ، اذ اكتب ، ان ارى امام عيني الاسلوب القاسي الذي اجاب به صديقي وقد ترنح صوته بنغمة من صعق بالسؤال : (يا الهي ، لا ! انني ، ببساطة ، اود ان اضع حداً للقسوة التي يعامل بها الاطفال والتي تشكل منحى كئيباً من مناحي الحياة الانجليزية ــ وان اضع حداً كذلك لهذا الولع الذليل بالحيوانات المنزلية والذي يكاد يبلغ حدّ الفجور) . ولابد ان كيتس قد غصّ بهذا كله ، وهو ينقط ويخط بقلمه كلمات الاختزال وقد

(١) « Protestant purely in the Sense that I Protest »

اخذت عينه تدور وتدور ، بينما راح بورسواردن يتأمل الأفق البعيد . غير ان هذا الصحفي ، اذا كان قد وجد ان هذا الحديث شيء محير ومبهم ، فقد كانت دهشته مضاعفة للاجوبة التي تلقاها على بعض اسئلته السياسية ، مثلا عندما سأل هو بورسواردن عن رأيه في مؤتمر اللجنة العربية الذي كان سيعقد في القاهرة في ذلك النهار اجاب صديقي : (عندما يشعر الانجليز بأنهم مخطئون فانهم لا يلجأون إلا الى الرياء) ، (هل لي ان افهم من هذا انك تنتقد السياسة البريطانية) ؟ ، (بالطبع لا . ان سياستنا ناصعة لا يمكن ان تخطىء) . واخذ كيتس يتروّح بالمروحة وهجر الاسئلة السياسية جميعاً . وعندما سأل كيتس بورسواردن : « هل تنوي ان تكتب رواية في اثناء اقامتك هنا ؟ » اجاب : « نعم إذا حرمت من جميع وسائل اشباع الذات . »

« بعد المقابلة قال كيتس المسكين وهو لم يزل يتروح بالمروحة امام ذلك الجبين المحمّر (انه بندوق كثير الشوك اليس كذلك ؟) والغريب انه لم يكن كذلك ابداً . ولكن اين يلجأ المفكر الحقيقي في هذا العالم الواقعي اذا لم يحم نفسه من الغباء حوله بقول الاشياء التي تحمل المعاني المبطنة دائماً ؟ اخبرني . وهذا ينطبق بصورة خاصة على الشاعر . لقد قال مرة : (ان الشعراء ليسوا في الحقيقة جادين في آرائهم ونظرتهم الى الناس . انهم يعتبرون الآراء والاشخاص تماماً كما يعتبر الباشا نساء حريمه الكثيرات . انهن جميلات ، نعم . انهن للاستعمال ، ولكن لا مجال للتساؤل عمّا اذا كن مخلصات او زائفات ، وعمّا اذا كانت لهنّ ارواح . وبهذه الطريقة يحتفظ الشاعر بنداوة رؤياه وجدتها الدائمة ، ويجد أن كل شيء يحمل له اعجوبة مدهشة . وهذا ما عناه نابليون عندما وصف الشعر بانه « Science Creuse » . فقد كان محقاً من وجهة نظره الخاصة) .

« هذا العقل المعافى كان بعيداً جداً عن ان يكون كئيباً ، مع ان احكامه كانت قاسية. ولقد رأيته يتأثر تأثراً شديداً وهو يصف عمى جويس الطاغي ومرض د . ه . لورنس حتى ارتجفت يداه وشحبت وجنتاه . وقد اراني مرة

كتاباً جاءه من لورنس كتب فيه : (انني اشعر بأن فيك نوعاً من الإلحاد – يكاد أن يكون كرهاً لبوادر الرقة النامية سريعاً في الاشياء، الآلهة القائمة ..) وضحك برقة . فقد كان يحب لورنس حباً عميقاً ولكنه لم يتردد قط في اجابته بل ارسل اليه بطاقة يقول فيها : (يا عزيزي د . ه . ل . هذه ناحية عبادة الاوثان . ان كل ما في الامر هو انني احاول ألاّ اقلد عادتك في بناء تاج محل حول شيء بسيط كمضاجعة ناجحة) .

« ولقد قال يوماً لبومبال : –

« On fait l'amour pour mieux refouler et pour décourager les autres» .

واضاف قائلاً : (انني اقلق كثيراً على قدرتي العضوية ؛ كان بومبال يحتاج الى بضع لحظات حتى يفهم هذه الاشياء التي لا تبدو متوافقة فيتمتم لنفسه : « Quel malin, ce type - là » وعندها فقط كان بورسواردن يسمح لنفسه بأن يقهقه ضاحكاً – بعد ان يكون قد سجل انتصاراً شخصياً . لقد كانا زوجاً رائعاً وكانا يتنادمان على الشراب كثيراً .

« وترك موت بورسواردن تأثيراً عميقاً في بومبال ، بل وارهقه واعياه ، فاعتزل في سريره مدة اسبوعين . ولم يكن بامكانه ان يتحدث عنه دون ان تنفر الدموع الى عينيه ؛ وهذا كان يغضب بومبال نفسه فيقول : (لم اكن اعرف كم كنت احب الرجل اللعين). انني خلال كل هذا استطيع ان اسمع ضحكة بورسواردن الخبيثة . لا ، انك مخطيء في رأيك عنه . لقد كان النعت المفضل عنده « uffish » ! وهو الذي قال لي هذا .

« اما محاضراته التي كان يلقيها على الناس فقد كانت مخيبة للظن ، كما قد تذكر . وقد اكتشفت بعد ذلك السبب . لقد كان يقرأها من احد الكتب . وكانت محاضرات شخص آخر سواه ! ولكنه سر كثيراً عندما اخذته مرة الى المدرسة اليهودية وطلبت اليه ان يتكلم الى الاولاد في الجمعية الادبية . وقد بدأ بأن أراهم بعض الحيل التي يمكن اتباعها في تركيب ورق اللعب ثم هنّأ الفائز بالجائزة الأدبية وجعله يقرأ المقالة التي نال عليها الجائزة بصوت عال . بعد

ذلك طلب الى الاولاد ان يكتبوا ثلاثة أشياء في دفاترهم قد تساعدهم يوماً اذا لم ينسوها . وهذه هي :

١ ـ ان كل حاسة من الحواسّ الخمسة تشتمل على فن .

٢ ـ في مشكلات الفن يجب ان يحافظ الانسان على سرّية تامة كاملة .

٣ ـ يجب على الفنان ان يقبض على كل هبة ريح .

« ثم اخرج من جيب معطفه علبة كبيرة من الحلوى وهجموا عليها ، وهو معهم ، واختتموا بها أنجح جلسة ادبية عقدت في تاريخ المدرسة .

« وكانت له بعض العادات الطفولية ، كان ينقر انفه ، ويبهجه ان يخلع حذاءه تحت المائدة في المطعم . واني أذكر مئات الاجتماعات التي كان يسهلها مسلكه الطبيعي وروح الدعابة عنده ويجعلانها مثمرة . ولكنه لم يكن يوفر احداً . وكان بذلك يخلق لنفسه اعداء . وقد كتب مرة الى محبوبه د . ه . ل . : (يا استاذ ، يا استاذ ، راقب خطواتك ؛ فما من احد يستطيع ان يظل سائراً مدة طويلة دون ان يتحول الى طاغية) .

« عندما كان يرغب في ان يبحث في انتاج فني رديء كان يقول عنه بصوت مفعم بالاستحسان الحار : « انه مؤثر جداً » . وما كان ذلك إلاّ تظاهراً فانه لم يكن يعبأ بالفن الى الحد الذي يود ان يناقش فيه الآخرين (« كلاب يحومون حول كلبة اصغر من ان تركب ») . ولهذا فقد كان يقول عبارة « مؤثر جداً » ؛ ومرة عندما كان سكران اضاف قائلاً : (ان المؤثر في الفن هو ما يغتصب عواطف الجمهور دون ان يغذي قيمه) .

« هل ترى ؟ هل ترى ؟

« كل هذه الميزات التي اتصف بها بهرت جوستين وشتتت احاسيسها واطلقت فيها للمرة الاولى شيئاً كانت قد يئست من معرفته : الضحك . تصور كم تستطيع لمسة واحدة من السخرية ان تفعل لعاطفة من العواطف الأرقى عند الانسان . قال لي بورسواردن مرة وهو سكران : (اما عن جوستين فانني اعتبرها متعبة ، اشبه بحاجز مدخل دوار من الجنس يجب ان نمر به جميعنا

ـ نوع من فينوس اسكندرانية ماكرة ـ يا لله ! ما احسنها امرأة لو انها كانت طبيعية حقاً ولم يتملكها الشعور بالاثم ! ان تصرفها يؤهلها للبانثيون ـ غير ان الانسان لا يستطيع ان يرسلها الى هناك لمجرد توصية من مجلس الكنيسيت مفعمة بهذيان « العهد القديم » . وماذا يمكن ان يقول زويس الشيخ ؟) ورأى نظرتي التوبيخية على تعليقاته القاسية فقال ، بشيء من الخجل : (انني آسف يا بلثازار . فانا لا اجرؤ ان آخذها مأخذ الجد . سوف اخبرك بالسبب في يوم من الايام).»

«اما جوستين نفسها فقد كانت ترغب كثيراً في ان تأخذه مأخذ الجد ، ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً ان يستدرج عطفها او ان يشركها في الوحدة النفسية التي كان يستمد منها كل تلك الرصانة وذلك التماسك ورباطة الجأش .

« اما جوستين نفسها فانها كما تعلم لم تكن تستطيع ان تحتمل الوحدة .

«كان عليه كما اذكر ان يحاضر في القاهرة في عدة جمعيات منضوية تحت جمعيتنا الفنية ، ولما كان نسيم مشغولاً فقد طلب من زوجته ان تأخذ بورسواردن الى القاهرة في السيارة . وبهذه الطريقة وجدا نفسيهما معاً في تلك السفرة التي نشأ خلالها طيف مضحك لعلاقة حبية بينهما ، كصورة بارعة لمنظر طبيعي يعكسها مصباح سحري . ومن الغريب ان الذي انشأ هذه العلاقة لم يكن جوستين بل الروائي نفسه الذي كان يفوقها شيطنة . قال بورسواردن بعد ذلك :

(لقد كنا معاً اشبه ببنش وجودي[1] !)

«كان في ذلك الوقت غارقاً حتى اذنيه في الرواية التي كان يكتبها ، وقد وجد ، كدأبه ، ان حياته العادية ، كانت قد بدأت تتبع ، بصورة منحرفة ، اتجاه كتابه . وقد فسّر هذا بقوله إن أي تكثيف للارادة يحل محل الحياة (ارخميدس وماء الحمّام) ويسبب انحيازاً في حركتها ، وان الواقع الذي ينبثق من خيال الانسان يحاول دوماً محاكاة هذا الخيال . انت ترى من هذا انه

١ ـ « بنش وجودي » كوميديا دمى ، يتشاجر فيها بنش ، وهو احدب صغير ، مع زوجته جودي شجاراً يبعث على الضحك .

كان انساناً جاداً تحت كل تهريجه ، وكانت له آراء ومعتقدات شاملة . غير انه في ذلك اليوم كان ايضاً قد شرب كثيراً كدأبه عندما ينهمك في الكتابة . اما في الفترة التي لا يؤلف في اثنائها فانه لم يكن ليذوق قطرة واحدة من الخمر . واذ وجد نفسه راكباً الى جانبها في السيارة الفخمة ، امرأة جميلة داكنة تزينها عينان كبيرتان اشبه بمقدم سفينة يونانية عريقة في القدم ، فقد تملكه الشعور بأن كتابه يمر بسرعة تحت صفحة حياته فيجذبها اليه ، تماماً كأنه يمر تحت ورقة تحتوي على البرادة الحديدية للاحداث الدنيوية . انه اشبه بقضيب المغناطيس في تلك التجربة العادية التي يقوم بها التلاميذ في المدرسة: وكان ينشىء بطريقة ما حقلاً مغناطيسياً مشابهاً .

« لم يكن من عادته ان يغازل النساء مغازلة عابرة . وهو إن يكن قد اخذ في مغازلة جوستين فانه لم يفعل هذا إلا لكي يجرب تأثير بعض الاحاديث ويرى ردود الفعل لها ، وليتأكد من بعض الاستنتاجات التي توصل اليها في كتابه قبل ان يرسله الى الناشر ! وما لبث ان ندم ندامة مرة على تدليله لذاته . كان حينذاك يحاول ان يتخلص من تحكم اسلوب السرد في النثر ، فقد كان يجده مضحكاً (قال) ، (قالت) ، (ادار عينيه ، مد يده ، رفع رأسه الكسول الخ .) أتراه قد نجح في تصوير الشخصية الانسانية وابرازها دون الاستعانة بهذه العكاكيز ؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال وهو جالس هناك على الرمل : (« مسحت اهدابها وجنته » ! « Merde alors » اهو الذي كتب هذا ؟) كانت اهداب جوستين السوداء الكثيفة أشبه ... بماذا ؟ وهكذا حدث ان قبلاته كانت دافئة دفئاً حقيقياً ، ومتدفقة من اعماق قلبه ، غير انها بالرغم من حرارتها ، كانت تبصق بالشرود لأنها لم تكن موجهة اليها هي ابداً . (احدى التناقضات الكبرى في الحب . ان التركيز على المحبوب والشعور بتملكه هما سم قاتل للحب) . وقد كشف لها عن صفة من صفاتها لم تكن تعرفها – وهي انها مضحكة ، وتحدث اليها في سلسلة من العبارات المنمقة المؤثرة حتى وجدت نفسها مغلوبة على امرها ، تضحك بمرح وارتياح وانطلاق ضحكاً يكاد

يكون آثماً . لقد كان نضير البشرة معافى الشعر وكانت طريقته في الحب ناعسة وجريئة ؛ وكان ، فوق كل شيء طليقاً على سجيته ولقد اثار هذا فيها فضولاً والهاً غريباً . ثم ، تلك الأقوال التي قالها ! (بالطبع قرأت «Moeurs» وعرفتك مئة مرة كالشخصية المأساوية الاساسية فيها . انها لا بأس بها ، فهي مكتوبة بقلم اديب مفطور ، بالطبع ، وتنبعث منها رائحة الابط و « eau de javel » ولكن لا شك انك قد خلقت حول نفسك اهمية كبيرة من جراء هذه القصة ؟ ان عندك الجرأة على فرض نفسك علينا كمشكل — لعل ذلك لأنك لا تملكين شيئاً آخر تعطينا اياه ؟ هذا حماقة . او لعل السبب يعود الى ان اليهودي يحب القصاص ويعود دائماً لينال المزيد منه ؟) وفجأة اخذها من رقبتها بقوة وحزم وجذبها الى الرمال الحارة قبل ان تجد وقتاً تزن فيه مدى الاهانة ، او تعد جواباً لها في عقلها . وبعد ذلك ، اذ هو لم يزل يقبلها ، قال شيئاً مضحكاً جداً حتى ان ضحكتها اختلطت بدموعها واتحدت جميعها في عقلها ، مزيجاً من صفات يصعب على الانسان ان يتحملها . « قالت : (بحـق السماء !) وقد قررت ان تتظاهر بالغضب . لقد تسرع كثيراً معها . وفاجأها وعقلها نصف نائم .

« (ألم يكن بودك ان نتغازل ؟ الخطأ خطأي !) .

« ونظرت اليه وقد كاد ان يجردها من سلاح المقاومة ذلك الندم المصطنع في تعبير وجهه . (لا ، بالطبع لا ، نعم) . وكان في اعماقها صوت خفي يردد كلمة (نعم ، نعم) . علاقة لا تترك وراءها بصمات اصابع — شيء سهل كابحار قارب ، او كالغوص في المياه العميقة ، وصرخت : (ايها الاحمق !) ثم اخذت لدهشتها الشديدة تضحك . هل تغلب عليها بوقاحته ؟ لست أدري . انني اسجل آرائي فقط .

« وقد فسرت هذا لنفسها فيما بعد بقولها إن الجنس عنده كان اقرب الاشياء الى الضحك — ولا صفات مميزة خاصة له ، فلا هو بالمقدس ولا هو بالمبتذل . وقد كتب بورسواردن نفسه عنه يقول انه يعتقد إن الجنس شيء

هزلي وكئيب والهي في آن واحد . ولكنها كانت تعجز عن فهم هذا وعن تعريفه كما كانت تتمنى ، ولما قالت له : (انك لا تستطيع كبح جماح شهوتك ، مثلي .) غضب غضباً اكيداً وثارت حفيظته ؛ واجاب (يا ضعيفة العقل ! ان لك روح الكَتَبَة ، فبالنسبة الى محبي الشعر ، ليس في الشعر ما يميز بأنه « شعر حر . ») ولكنها لم تفهم هذا .

« وصرخ بها (كفّي عن السلوك كأنك مدبسة قديمة للخطيئة ، علينا جميعنا ان نغرز فيها الدبابيس الصدئة اعجاباً بك .) وفي دفتر مذكراته اليومية اضاف ملاحظة جافة ، قال : (ان الفراشات يجذبها لهب الشخصية ، وكذلك مصاصات دماء الرجال . والفنان يجب ان يلحظ ذلك وان يكون على حذر :) وفي المرآة لعن نفسه مراراً لهذه الهفوة ، لهذا التردّي في الانغماس الذي اوقعه في علاقة صميمية ، الأمرُ الذي تبرّم به اكثر من أي شيء آخر في الوجود : ولكنه اذ ابصر وجهها وهي نائمة استطاع ان يرى فيه الطفولة التي تسكن روحها ، وتخيل وجهها في أول ليلة من ليالي الحب — شعرٌ أشعث متهدل على الوسادة كحمامة سوداء رخيّة الجناحين ، وانامل كنوامي الكرمة الخضراء ، وثغر دافىء يعب انفاس النعاس ؛ دافئة الجسم كتمثال من العجين الخارج لتوه من الفرن ، وصاح بصوت عال « اللعنة » !

« ثم وجد نفسه معها في الفراش في فندق مكتظ بمعارف اسكندرانيين قد يلحظون طيشهما بسهولة ؛ ويحملون اشاعاتهم الى المدينة التي تركاها معاً ذلك الصباح — ولعن وشتم مرة اخرى . لقد كان لدى بورسواردن الكثير مما يحبّ ان يخفيه ويكتمه ، فانه لم يكن يكشف للناس عن هويته جميعها . وفي ذلك الوقت لم يكن يجروءُ على تشويش علاقاته مع نسيم وتمتم غاضباً : (يا للمرأة الدموية !) انني أكاد اسمع صوته .

« Ecoute . . . . ! »
« Rieen - Silence »
« Mais chéri, nous sommes seuls »

كان النعاس يداعب اجفانها .

والقت نظرة الى الباب المقفل وشعرت باشمئزاز عابر من هذا الخوف البورجوازي ، أخائف هو من الدخلاء ، من الجواسيس ، من الزوج ؟ « Qu'est - ce que c'est ? » « Je m'écoute moi — même ! » عينـــان صفراوان لا أثر للألوهةفيهما . لقد كان اشبه بإله صخريّ نحيف وقد تشعث شارباه . حيوات ماضية ؟ « Le coeur qui bat » . وباحتقار ردد اغنية شعبية.

« Tu n'es pas une femme pour moi — pas dans mon genre »

« وجعلها هذا تشعر بشعور كلب جلده صاحبه لا سيما وأنه ، قبل هنيهة ، كان يقبلها بشغف ويثير فيها انفعالات متعاقبة من اللذة والألم — وكانت قبلاته عنيفة ملحة مفعمة بأحاسيس الهوى والشهوة . (ماذا تريد ؟) قالت هذا وصفعته على وجهه لتتلقى منه حالاً صفعة لاذعة على خدها — كزبد البحر اذ يهجم فيغمرها . ثم عاد يهرج حتى لم تعد تقوى على منع نفسها من الضحك . كل هذا المشهد تراه في كتابه الثالث — والمقطع الذي يتحدث فيه عن البغي يستند الى هذه الحوادث : لقد عثرت عليه وانا اقلب الكتاب .

« هذا التعبير المخيف عن المشاعر بحركات تكذب الكلمات ، وبكلمات تكذب الحركات ، شوشها واقلقها . كانت بحاجة الى من ينصحها : أتضحك ام تبكي .

« اما بورسواردن نفسه فقد كان يشارك ريلكه في اعتقاده بأنه ما من امرأة يمكنها ان تزيد شيئاً على مجموعة صفات المرأة — ولشدة ما حصل عنده من اشباع التجأ الى الخيال الخصب — حقل التمييز الحقيقي للفنان . ولعل هذا هو ما جعله يبدو لها بارداً وخالياً من الشعور . قالت له : (في مكان ما في اعماق نفسك يكمن قسيس انجليكاني صغير كريه) ووزن هذه الملاحظة بجد وتفكير ثم أجاب بعد فترة سكون : (لعل هذا حقيقي. ولكن افتقارك الى الدعابة جعلك عدوة للذة ، العدوة الحقيقية لها . ان اقتحامك للتجربة مدروس سلفاً . اما انا فاني اصدق منك وثنية) ، واخذ يضحك . ان الصدق الخالص

قد يكون اقسى من أي شيء آخر .

« واعتقد كذلك انه كان قد تعب من كل ذلك (الوحل الذي ترشقه عجلات الحياة) ــ هكذا كتب . لقد حاول جهده ان يزيل عن نفسه اكبر كمية ممكنة منه وان ينظف نفسه . فهل كان عليه الآن ان يحتمل كل هذا التفحّص وبوادر الولع الصادرة عن جوستين ذات الشخصية الممرّغة التي كان قد ارتفع وتسامى عنها ؛ ــ (لا والله !) هذا ما قاله لنفسه . فهل بامكانك ان ترى أي احمق كان ؟

« كانت حياته متنوعة وممتلئة ، وكان قد تعاقد عدة مرات مع احد الفروع السياسية في الخارجية لشغل وظائف تتعلق بالعلاقات الثقافية ، كما استنتجت . وبفضل هذه الوظيفة تنقل في عدة بلدان وكان يتقن ثلاث لغات على الاقل . كان متزوجاً وله ولدان .

ولكنه كان مفترقاً عن زوجته ــ ولم يتحدث عنها مرة دون ان يتأتىء ــ مع اني استنتجت انهما كانا يتكاتبان بشيء من المودة وكان دائماً حريصاً على ارسال المال اليها . وماذا بعد ؟ نعم . كان اسمه الحقيقي بيرس ولكن تقارب حروف اسمه مع حروف اسم عائلته كان يضايقه . هذا ما اعتقد ؛ ولهذا فقد انتخب اسم لودفيج اسماً ادبياً له . وكان يبتهج دائماً عندما يجد ان الصحفيين الذين يُجرون معه المقابلات الصحفية يعتقدون بأنه من اصل الماني .

« وأظن ان اشد ما ارعب جوستين منه واشد ما أبهجها فيه كان احتقاره ورفضه لارناوُوطي ولكتابه«Moeurs» . انتبه الى ان هذا لم يكن يخلو من التظاهر والمبالغة فالواقع انه كان معجباً بالكتاب كل الاعجاب . ولكنه استعمله كعصاة يضرب بها جوستين ، وكان يصف زوجها الاول « بحامل مفاتيح متعب مولع بالتحليل النفسي ، تمنطق بحزام مليء بعقد نفسية صدئة » . ويجب ان اذكر ان هذا ابهجها جداً . اترى ؟ كان بورسواردن انساناً لا يعبأ بالاصطلاحات النفسية ولقد رفض ان يعتبر جوستين مشكلاً . ولا شك ان ذلك الاحمق كان يحاول ان يتخلص منها ولكن طريقته لم تكن الطريقة المثلى لذلك ! ومع

هذا فاني كطبيب استطيع ان اؤكد بأن الاهانات قد تشفي حيث لا يجدي الطب شيئاً . ويقيناً ان جوستين لو نجحت في ان تثير اهتمامه عن حق لكانت تعلمت درساً قيماً . غريب ، اليس كذلك ؟ لقد كان في الحقيقة الرجل الملائم لها من بعض النواحي ؛ ولكن ، كما لا بد لك أن تعرف ، ان من قوانين الحب ان الانسان الملائم ، يجيء دائماً إما سابقاً لأوانه أو متأخراً عنه . اما بورسواردن فقد توقف فجأة عن الاهتمام بها فلم يكن لديها متسع من الوقت لتزن قـــوة شخصيته الكاملـــة .

« ولكنه كان في تلك المدة التي اكتب عنها قد بدأ يهينها باستمرار بانكليزيته او افرنسيته الدقيقة الغريبة التركيب (كانت لديه بضعة تعابير وكلمات مبتكرة من بنات أفكاره يلذ له استعمالها — وكانت احداها كلمة« bogue » التي نحتها من كلمة « bogus » (ابن حرام) « c'est de la grande bogue ça » او (أية ابنة حرام دموية ؟) كان يهينها ليثبط عزيمتها فقط . انني لا اكاد اكتم ضحكتي عندما افكر في الأمر . فإن تثبيط عزيمة جوستين اصعب من تغيير مجرى الشمس ، اما هي فلم تكن مستعدة للعزوف عن هذه التجربة قبل أن تتعلم منها كل ما تستطيع تعلمه عن نفسها . صفة يهودية مدمّرة ! كان بورسواردن اشبه بالدكتور فوستر في ترنيمة الأطفال المشهورة .

« وبالنسبة اليها كان عزوفه الطبيعي يكسبه جدة وحيوية . ولم تكن جوستين قد عرفت رجلاً من قبل لم يرغب فيها ، او رجلاً استطاع ان يعيش بدونها ! ولذا فان آلاف الانغام والاضداء كانت خليقة بان تنطلق من معاشرتها لانسان كهذا (أنا اخترع هذا ؟ لا . لقد كنت اعرف كليهما وكنت اتحدث مـــع الواحد منهما عن الآخر .) اذن ، فقد كان بامكانه ان يضحكها — وهـــذا اخطر ما يمكن ان يحصل لامرأة ، لان النساء يعتبرن الضحك شيئاً ثميناً لا يفوقه قيمة الا الهوى نفسه . فأية ضربة قاضية ! لا ، انه لم يكن على خطأ عندما قال لخياله في المرآة : (لودفيج ، انك ابله .)

« وشرّ من هذا ، فان السخرية التي كانت تنطوي عليها قسوته كانت

تولها ، فبعد المضاجعة مثلاً ، كانت تحملها هذه السخرية على التفكير على هذا الصعيد : (ان ما يفعله بسيط للغاية كعمل بيتي أصبح عادة في المرء — كتنظيفك حذاءك على السجادة الصغيرة امام البيت؟) كان يتفوه فجأة بعبارات ساخرة كقوله (نحن جميعنا نبحث عن انسان جميل نخونه — هل ظننت انك كنت طريفة فريدة ؟) او قوله (الجنس البشري ! اذا لم يكن باستطاعتك ان تطفىء غليل شهوتك مع من تضاجعه ، اذن — اغمض عينيك وتخيل أنك تضاجع الانسان الذي لا تستطيع ان تطاله ، من يدري ؟ انه امر مشروع ، وهو كذلك سري لا يمكن ان يكتشفه احد . انه زواج العقول الصادقة !) كان يقف ازاء المغسلة ينظف اسنانه بالنبيذ الابيض . وكان باستطاعتها ان تقتله لما كان يبدو عليه من المرح والتحكم بالذات .

« وفي عودتها من القاهرة تشاجرا عدة مرات . (اما فيما يتعلق بمرضك المزعوم — هل خطر ببالك مرة انه قد يعود الى شعورك بالشفقة اللاهبة على نفسك ؟) وقد ثارت غضباً حتى كادت تصدم السيارة باحدى الاشجار . وصرخت وهي على وشك البكاء (ايها الانجلوساكسوني التعس ! ايها المستبد !)

« وفكر هو في قرارة نفسه : (ايتها السموات ! ها نحن هنا نتشاجر كأننا زوجان حديثا عهد بالزواج . وعما قريب سوف نتزوج ونعيش في ائتلاف قذر ، ويتغذى الواحد منا بأخطاء الآخر . اف ! ما أفظع التماثل الذي نراه في الزواج الكامل الممتاز ! يا بيرس ، لقد فعلتها مرة ثانية[1]) : ان بامكاني ان اعيد تركيب هذه العبارات لانه كان يكلم نفسه دائماً بلهجة الكوكني العامية عندما يكون سكران ، او عندما يكون وحده .

« وقال لها وقد غمرته السعادة (اذا حاولت ان تضربيني ، فسوف نصطدم .) وفكر في مشروع قصة قصيرة مريرة عنها . وتمتم يقول :

(كانت لم تزل غاضبة . (بم تتمتم ؟) — (انني اصلي) .

---

١ – you gone and done it a gain

« اما هي ، فبعد مضاجعته لها لم تكن تشعر ، كما كانت عادتها مع سواه ، بأنه لم يبق لها الا الاشمئزاز او اليأس ، بل كانت تشعر بالرغبة الشديدة في الضحك ؛ ومع انها كانت تثور غضباً عليه ، فانها طالما وجدت نفسها تبتسم لشيء مضحك قاله او فعله ، حتى عندما كانت تدرك بوخزة ألم انه ، كرجل ، لن يكون ملكها ابداً ، وانه لن يكون حتى صديقاً لها الا بشروطه الخاصة. لقد كان يقدم لها حرارة هوى خالٍ من الحنان ومن روح الزمالة ، غير ان قبلاته كانت مفعمة بالنشوة الخالصة ، ومعافاة كقضمة طفل جائع لتفاحة. وبالرغم من شعورها بالأسف لهذا ، فقد وجدت نفسها (لقد كانت في اعماقها امرأة شريفة صادقة) تتمنى ان لا يهجر ابداً هذا الوضع الحصين ، وان لا يتراجع عنه . كانت جوستين كغيرها من النساء تكره كل انسان تستطيع ان تتأكد من حبه ؛ ويجب ان تتذكر انها لم تعجب قط بأي إنسانٍ قبله اعجاباً كاملاً — مع ان هذا قد يبدو لك غريباً . فهنا على الأقل وجدتْ رجلاً لا تستطيع ان تقاصّه بخياناتها — لقد الفت نفسها في وضع جديد لا يحتمل ولكنه يبعث على البهجة . ان النساء شديدات الغباوة ولكنهن شديدات العمق ايضاً.

« لقد دهشت جوستين لِما استطاع ان يثير فيها من عواطف . اشياء شديدة البساطة — لقد وجدت حبها له مثلاً يغمر جميع الاشياء التي تخصه ، كغليونه القديم المصنوع من طين الخفّان بعنقه المشرّج ، او قبعته القديمة وقد ابلتها تغيرات الطقس — كان يعلقها وراء الباب فتبدو كأنها صورة له رسمت بالالوان المائية . وكانت عواطفها تغمر كذلك الاشياء التي لمسها او رماها جانباً: وبدا لها هذا نوعاً من العبودية الفكرية المثيرة للغضب . كأن تجد نفسها تربت على أحد دفاتره القديمة كأنها تربت بحب على جسمه هو ، او ان تجد نفسها تمر باصابعها على الكلمات التي كتبها على المرآة بفرشاة حلاقة (عبارة من ستندال) : « يجب ان تجابه بجرأة شيئاً من التشريح للذات اذا كنت تود ان تكتشف مبدأ مجهولاً » ، و (النفوس العظيمة تحتاج الى غذاء) .

« وعندما وجدت مرة بغياً عربية في فراشه (بينما كان هو يحلق ذقنه في

الغرفة الثانية ويصفر لحناً من الحان دونيتزيتي) ادهشها ان لا تشعر بالغيرة بل بالفضول . وجلست على الفراش وضغطت ذراعي الفتاة المنكودة الى المخدة ، واخذت تسألها بدقة عن شعورها عندما كانت تضاجعه . وبالطبع ، ذُعرت البغيّ من ذلك ذعراً شديداً . وراحت جوستين تكرر للمخلوقة الناشجة : (انني لست غاضبة . انني محتارة . اخبريني بما أسألك عنه .)

« واضطر بورسواردن ان يجيء ويحرر زائرته ، وجلس الثلاثة معاً على الفراش وراحت جوستين تطعمها فاكهة مسكرة لتهدىء من مخاوفها .

« هل أستمر ؟ هذا التحليل قد يسبب لك الألم — ولكن ان كنت كاتباً حقيقياً فانك سترغب في تتبّع الاشياء حتى نهايتها . ام لا ؟ هذا كله يريك كم كانت الامور شاقة على ميليسا .....

« فان كان بورسواردن قد نجح في اثارة غضبها الشديد ، فان ذلك يعود الى استطاعته الشعور بالاهتمام نحوها دون أن يكنّ لها عاطفة حقيقية . ولكنه لم يلعب معها دور المهرج دائماً ولم يبق دائماً بعيداً عن متناولها ؛ هذا ما اعنيه عندما اتحدث عن صدقه واخلاصه . لقد كان يعطيها قيمة فكرية بالمقابل — ويقيناً انه اخبرها بالسر الحقيقي الذي كان يكمن تحت لغز تصرفاته . ستجد ذلك في احد كتبه — انني اعرف هذا لان كليا رددته على مسمعي كأعمق تعبير عن العلاقات الانسانية . لقد قال لها ذات ليلة : (انظري يا جوستين ، انني اعتقد ان الآلهة بشر وأن البشر هم آلهة ؛ انهم يتطفلون على حياة بعضهم البعض ، فيحاول الواحد منهم ان يعبر عن نفسه عن طريق الآخر — ولهذا فاننا نرى كل هذه الفوضى الظاهرة في تفكيرنا ، وفي ايحاءات القوى المختلفة داخل ذاتنا او خارجها ... ثم (اصغِ) اني اعتقد ان عدداً قليلاً جداً من الناس فقط يدركون ان الجنس عمل نفساني لا جسماني ؛ وان المضاجعة انما هي تعبير بيولوجي عن هذه الحقيقة — وطريقة بدائية لتعريف العقول بعضها ببعض ، ولتشغيلها . ولكن اكثر الناس انما يلتزمون المنحى الجسدي ، فيظلون جاهلين للتجاوب الشعري الذي يحاول الجسد ان يعلمه بكل تلك الفجاجة . ولذا فان كل تكراراتك

البليدة لنفس الخطأ انما هي اشبه بجدول ضرب ممل ، وسوف تظل كذلك الى ان تخرجي رأسك من كيس الورق حيث وضعته ، وتبدئي بالتفكير تفكيراً مسئولاً .)

« من المحال ان اصف لك تأثير هذه الكلمات عليها : لقد صورت اقواله خطوط حياتها وافعالها بطريقة جديدة عليها كل الجدة ، فرأته على حين غفلة في ضوء جديد ، رجلاً يستطيع الانسان ان يحبه (حباً حقيقياً) ، ولكنه ، مع الاسف ، كان الآن قد قرر التخلص من علاقته بها ...

« عندما ذهب الى القاهرة للمرة الثانية صمم على الذهاب وحده — واقلقها غيابه فكتبت اليه رسالة طويلة مشبوبة حاولت فيها ان تشكر له ، باسلوب فج ، صداقته ، وكان يجهل قيمة هذه الصداقة بالنسبة اليها كل الجهل . (هذا يصدق ايضاً على كل حب) . اما هو فقد اعتبر هذا خطأ فادحاً ومجرد محاولة اخرى للتطفل عليه فارسل اليها برقية : (كانا يتراسلان عن طريقي ولم أزل احتفظ بها .)

(اولاً — لا يستطيع اي انسان ان يمتلك الفنان ، فاحذري . ثانياً — اي خير في جسد مخلص اذا كان العقل بمحض طبيعته خائناً ، ثالثاً — كفي عن النواح كامرأة عربية ، ان ادراكك خليق أن يعلو على هذا التصرف . رابعاً — اما مرض العصاب فليس عذراً ؛ يجب ان تُنال العافية وان تكتسب بمعركة . واخيراً — اذا لم تستطيعي ان تربحي فمن الشرف ان تشنقي نفسك) .

« ووجدتْه ذات مرة عرضاً في مقهى الاقطار ، وكان ثملاً جداً ؛ كنا ، انت وأنا ، قد تركنا المقهى لتونا . هل تذكره في ذلك المساء ؟ كان يميل الى إهانة الآخرين . انني اتحدث عن ذلك المساء عندما حاولتُ ان اريك كيف تحل رموز القابال ذات النقاط التسع . ولم اكن ادري وقتئذ انك كنت ستطبع كل شيء وترسله الى الخدمات السرية ! اية سخرية رائعة ! ولكني احب ان شعر بالحوادث تتسابق وتزحف الواحدة فوق الاخرى كسرطانات بحرية مبتلة في سلة . في تلك الليلة لم نكد نترك المكان حتى دخلت جوستين . وكانت

هي التي ساعدته في العودة الى فندقه ودفعته الى فراشه . وصرخت بذلك الجسم المتهاوي : (آه ! انك رجل تدعو الى اليأس !) وجواباً على هذا القول رفع ذراعيه وقال : (اعرف هذا ، اعرف هذا ! انني مجرد لاجيء من ضراس الحياة الانجليزية .آه ، ما افظع ان يحب الانسان الحياة حتى ليملك هذا الحب عليه انفاسه !) وأخذ يضحك — ضحكة تبعها الغثيان والقيء . وتركته وهو يقيء في المغسلة .

« وفي الصباح التالي ذهبت الى فندقه باكراً وهي تحمل اليه بعض المجلات الافرنسية وكان في احداها مقال عن احد كتبه . لم يكن يرتدي شيئاً الا سترة المنامة . وكانت نظارته على عينيه ، وقد كتب على المرآة بفرشاة حلاقة مبتلة قولاً من أقوال تولستوي : (انني لا اتوقف ابداً عن التأمل في الفن وفي كل نوع من أنواع التجارب التي تلقي الروح في غمرة العتمة .)

« واخذ منها المجلات دون ان يتفوه بكلمة واحدة ، وحاول ان يقفل الباب في وجهها . فقالت (لا — انني داخلة) . فتنحنح وقال : (هذا للمرة الاخيرة . انني ضجرت من زيارة الآخرين لي كما تزار قطة ميتة) . ولكنها امسكته من ذراعيه ، فقال لها بلهجة ارق : (ستتوقفين عن زيارتي توقفاً نهائياً كاملاً . هل فهمت ؟) . وكان قد اجرى بعض المقابلات في القاهرة :

« وجلست على حافة الفراش واشعلت سيجارة ، وهي تتأمله كما يتأمل الانسان نموذجاً خاصاً : (بعد كل احاديثك عن امتلاك الذات والمسؤولية ، اشعر بالفضول لأن ارى مقدار ما فيك انت من الانجلو ساكسونية — عجزك عن اتمام اي عمل تبدأ به مثلاً . لماذا تبدو وكأنك تخفي سراً ؟) كان هذا خط هجوم رائع فابتسم يقول : (سوف اعمل اليوم) .

« (اذن سأجيء في الغد) .

« (سأكون مصاباً بالانفلونزا) .

« (في اليوم الذي يليه) .

« (سأذهب الى حديقة الحيوانات) :

« (سأذهب انا ايضاً) .

« واصبح بورسواردن الآن شديد الوقاحة ؛ وعرفت هي انها قد سجلت انتصاراً ، فابهجها هذا . واصغت الى اهاناته المعسولة وهي تضرب السجادة برجلها . ثم قالت اخيراً : (حسناً ، سوف نرى) . (اخشى ان يكون مضطراً هنا الى إخلاء مجال لمهزلة العلاقات الانسانية ، وهي مهزلة جوهرية . انك تعطيها مكاناً صغيراً جداً) وفي اليوم التالي اخرجها من فندقه قسراً ، كما تُخرج قطة اليفة . ولكنه افاق صباح اليوم التالي ليجد السيارة الكبيرة واقفة خارج الفندق ، فصرخ (Merde !) . ولكي يقهرها لبس ثيابه وذهب الى حديقة الحيوانات . فلحقت به ، وامضى الصباح وهو يرقب القرود باهتمام ... ولم تكن هي عمياء عن هذه الاهانة ؛ فتبعته الى مقعد خشبي جلس عليه يأكل الفستق الذي كان قد اشتراه في الاصل ليطعمه للقرود . لقد كانت دائماً تبدو رائعة وهي غاضبة ، وكانت في ذلك الصباح ترتدي طقماً انيقاً وقد وضعت زهرة على صدرها وجلست وانفها يرتجف غضباً .

« قالت له : (بورسواردن)

« فأجاب (انك لم تصدقيني ، انت ، سيدة المجتمع الدموية المتعبة المرهقة ! من الان فصاعداً سوف تتركينني وحدي . ان نقودك لن تساعدك ابداً) .

« كان استعماله لهذه اللغة دليلاً على غباوته . وكان ابتهاجها شديداً لأنها اثارت جزعه الى هذا الحد . انت بالطبع تعرف شدة تصميمها . غير انه كان لديه سبب آخر لهذا الجزع — فتحت سطح الاهانات كانت تستطيع ان تلحظ انشغال باله وقلقه — ان ترى شيئاً لا يتعلق ابداً بعلاقتهما الخاصة . فما هو ؟

« لقد لاحظت انت من قبل انها كانت قارئة افكار لا تخطىء ؛ واذ جلست بالقرب منه ترقب وجهه قالت بلهجة اشبه بلهجة من يقرأ مخطوطة كتبت بخط رديء — (نسيم ! انه شيء يتعلق بنسيم . انك خائف ... ولكن ليس منه) . وكومض البرق استطاعت ان تكشف بحدسها ما في اعماقه فاندفعت تقول : (ان لديك شيئاً يتعلق بنسيم ، ليس بامكانك أبداً ان تقرّه وتوافق عليه . لقد

فهمت ؛ وصعّدت زفرة حارة وصاحت : (ايها الاحمق ، لماذا لم تخبرني ؟ أأتنازل عن صداقتك من اجل هذا ؟ بالطبع لا . انني لا اعبأ ان كنت تريد ان تنام معي أم لا . ولكن انت نفسك – هذا شيء مختلف . احمد الله اني اكتشفت السر) .

« ودهش جداً فلم يستطع ان يقول شيئاً . ادهشته عملية قراءة الفكر اكثر مما ادهشه اي شيء فيها فلم يأت حراكاً بل راح يحملق فيها مدة دون ان يقول شيئاً ، واستمرت هي في كلامها ؛ (آه انني شديدة الغبطة ، فان بالامكان تدبير هذا الأمر بسهولة ؛ ولن يمنعنا هذا من اللقاء – فلسنا بحاجة الى ان ننام معاً مرة أخرى اذا لم تكن ترغب في هذا . ولكن على الاقل سيكون بامكاني ان اراك) . نوع آخر من (الحب الوحشي) ، نوع ليس باستطاعتي تعريفه . كان باستطاعتها الآن ان تخترق النار من أجله .

« وكان سكوت نسيم قد شغل من عقلها حيّزاً كبيراً ، حيّزاً امتد الى جميع الجوانب كالصحراء نفسها – فأفقدها هذا السيطرة على اعصابها. وبما أن ضميرها كان بطبيعته ضميراً آثماً معذباً ، دون ان يكون لعذابه اي مبرر ، فانها كانت قد بدأت تنشيء حول نفسها حلقة من الاصدقاء تحميها ، حلقة كان وجودها البريء خليقاً بأن يمحو الشك عنها – تلك الحاشية من اللواطيين امثال توتو وأمار من ذوي الميول والأفعال المعروفة لدى كل انسان بحيث لم تكن لتثير القلق او الألم . كانت تتنقّل الآن ككوكب حرون في حياة المدينة الاجتماعية ، وقد راحت تتقبل اهتمام هؤلاء الحياديين كمحض حماية لنفسها . بهذه الطريقة يحافظ قائد الجيش على مرافق المدينة التي يرغب في حمايتها ، فيبني حولها دائرة داخل دائرة من الاسوار والخنادق . انها لم تكن تعرف بأن سكوت نسيم كان نتيجة لليأس لا للتحفّز – لانه لم يخرج قط عن صمته هذا .

« انك في مخطوطتك تكاد لا تذكر مشكلة الطفلة – لقد سبق لي ان اخبرتك باني كنت اظن أن ارناؤوطي اهمل هذه الناحية في كتاب (Moeurs) لانها بدت له ميلودرامية . يقول بورسواردن في مكان ما (ان جميع الاشياء خالية من

الصدى والرنين بالنسبة الى اولئك الذين لا أطفال لهم) : ولكن مشكلة الطفلة الآن اصبحت مهمة بالنسبة الى نسيم ، اهميتها بالنسبة الى جوستين نفسها ـــ لقد كانت وسيلته الوحيدة للحصول على الحب الذي كان يشتهيه منها ـــ او أنه كان يعتقد هذا . ولقد انقضّ على هذه المشكلة كالصاعقة معتقداً بأن هذا هو الطريق الوحيد لاختراق الدرع الحصينة التي تدرعت بها هذه الزوجة الجميلة الصامتة الحرون ـــ هذه الزوجة التي تزوجها وعلقها من زنديها في زاوية من حياته ملأتها انسجة العناكب كأنها دمية ربطت بخيطان . اني ، ايها الحكيم ، احمد الله على انني لم احب قط في حياتي ولن احب ابداً ! الحمد لله !

« ويكتب بورسواردن في مكان ما (عرفت هذا ايضاً من كليا) : (ان في الانجليزية كلمتين عظيمتين منسيتين هما : « الرفيق الحادب» « Help meet »وهي كلمة اعظم بكثير من كلمة « عاشق » ، ثم تعبير « الحنان المحب » وهو تعبير اعظم من كلمة « الحب » وحتى من « الهوى المشبوب »)

« وسمعت جوستين يوماً جزءاً من مخابرة تلفونية حملتها على الاعتقاد ان نسيماً قد وجد مكان الطفلة المفقودة ، وانه كان يعرف شيئاً عنها ولكنه لم يشأ ان يكشفه لها . فقد كانت مارة في البهو ورأته يضع سماعة التلفون بعد أن قال (حسناً اذن ، انني اعتمد على حسن تصرفك ، يجب ان لا تعرف هي أبداً) : ان لا تعرف أبداً ماذا ؟ من كانت هذه التي يتحدث عنها ؟ ان الانسان معذور اذا ما قفز سريعاً الى الاستنتاجات . ولما لم يذكر هذه المحادثة لعدة ايام ، فقد جابهته بها ـــ فارتكب عندئذ الخطأ الفادح بأن انكر وقوع هذه المحادثة كلياً ، وافهمها أنها قد سمعت خطأ حديثاً له مع سكرتيره . ولو انه قال إن المحادثة كانت تتعلق بأمر يختلف كل الاختلاف لكانت خليقة بأن تصدقه ، أما وهو يتهمها بعدم سماعها مطلقاً الكلمات التي ظلت ترن في اذنيها لأيام عديدة كناقوس خطر ، فقد أخطأ خطأً فادحاً .

« وبضربة واحدة فقدت ثقتها فيه وبدأت تتخيل اموراً كثيرة : لماذا كان يرغب بأن يحجب عنها اي نبأ اكتشفه عن طفلتها ؟ الم يكن وعده الاساسي لها

هو أن يفعل كل ما في وسعه ليكتشف مصير الطفلة ؟ فهل كان هذا المصير افظع من ان يتحدث به اليها ؟ لا شك ان نسيماً خليق بأن يقول لها أي شيء عرفه عن الطفلة اذا ما تأكد منه ؛ ما الذي جعله اذن يكتم ما عرفه عن مصيرها ؟ لم يكن بمقدورها ان تخمن السبب ، ولكنها شعرت في اعماقها بان المعاومات انما امسكت دونها كما يمسك اسير الحرب — مقابل شيء ما — ما هو ؟ المسلك الحسن ؟

« ولكن نسيماً ، وقد حطم بهذا الخطأ الأخير آخر بوادر الاعتبار التي كانت تكنه له ، كان هو نفسه في صراع مع مجموعة من العناصر الجديدة . كان قد علق آمالاً كبيرة على استرجاع الطفلة كوسيلة لكسب ود جوستين نفسها ؛ ولذلك فانه لم يجرؤ على ان يقول لها او ان يقول لنفسه — فقد كان الأمر اليماً جداً — انه ، بعد ان استنفد جميع امكاناته في محاولته العثور على الحقيقة ، تلقى مخابرة تلفونية من نروز الذي قال له : (لقد رأيت المجذوب ليلة أمس عرضاً واغتصبت الحقيقة منه . ان الطفلة ميتة) .

« وقد انتصب هذا بينهما كسور الصين المنيع ، وقطع كل تجاوب بينهما ، وأدخل الخوف على قلبها — الخوف بانه قد ينوي لها الشر : وهنا تدخل انت : »

نعم ، هنا ادخل انا مع الاسف . فحوالي هذا التاريخ جاءت جوستين لحضور محاضرتي عن كافافي ثم اخذتني معها لألتقي بنسيم الدمث الرقيق : هكذا ببساطة « كما تهوي الفأس » — لتفصل حياتي الى قسمين ! وانه لمرير ان ادرك اليوم انها كانت تستعملني لغاية مقصودة من غاياتها ، هذه الحيوانة المتوحشة ، فتجرني أمام نسيم كما يجر مصارع الثيران عباءته ، لا لشيء الا لكي تغطي لقاءاتها مع رجل آخر لم تكن هي نفسها ترغب في أن تنام معه . ولكني قد وصفت هذا جميعه من قبل بكثير من الألم وبكل ما اقتضاه مـــن تفصيل — وانا احاول ان لا اهمل اية نكهة أو أيّ جزء من معلومات قد تساعد على اعطاء الصورة الانسجام الذي تستحقه . ومع ذلك فاني ، حتى الآن ، اكاد لا اشعر بالندم على تلك العلاقة الغريبة السامية التي جرتني الى غمارها — فتعلمت

منها الشيء الكثير – بينما كانت هي نفسها ، كما اقدر ، لا تشعر بأي شيء من قوتها . نعم ، لقد اغنتني حقاً ، ولكنها حطمت ميليسا . يجب ان نجابه هذه الامور وجهاً لوجه . وانني لأعجب لمَ لم يخبرني احد بهذه الامور الا الآن ؟ لا شك ان اصدقائي كانوا يعرفون بهـا طول الوقت ، ومع ذلك فلم ينبس احد منهم بكلمة . ولكن واقع الحياة ينطبق على هذا كل الانطباق ، فما من احد يمكنه ان يتفوه بكلمة ، او ان يتدخل ، او ان يهمس بشيء ، والبهلوان على الحبل المشدود ؛ انهم يكتفون بأن يجلسوا ويرقبوا المشهد منتظرين ان يظهروا معرفتهم وحكمتهم بعد نهاية الحادث . ولكن من وجهة نظر أخرى ، كيف كنت سأتلقى أنا في ذلك الوقت ، وانا في غمرة ولهي الاعمى بجوستين ، تلك الحقائق المقيتة ؟ فهل كان اكتشافي لها كفيلاً بأن يجعلني اغير طريقي نحو غايتي ! اني اشك في هذا .

واعتقد ، ان جوستين في غمار هذا كله ، قد اخضعت لي احدى ذواتها الكثيرة – لي انا – ذلك العاشق الخجول ، معلم المدرسة الذي تعلق آثار الطباشير بأردانه دائماً .

أين يجب ان يتطلع الانسان ليجد التبريرات؟ في الحقائق وحدها كما اعتقد ؛ فانها قد تمكنني الآن من رؤية ابعاد أعمق لجوهر حقيقة هذا اللغز المسمى « بالحب » . انني ارى صورة الحب تتلوى وتتراجع بعيداً عني تراجعاً لا ينتهي ، كأمواج البحر ؛ أو تعلو فوق الاحلام والاوهام التي نسجتها منها ، وهي اكثر برودة من قمر ميت – ولكن ، كالقمر الحقيقي ، تُبقي دائماً احد وجهي الحقيقة مخفياً عني ، الجهة الاخرى لنجمة جميلة ميتة . « حبي » لها ، « حب » ميليسا لي ، « حب » نسيم لها ، « حبها » لبورسواردن – يجب ان يكون لدينا قاموس كامل من الصفات نصف بها الحب – فليس بين هـذه المحبات محبتان اثنتان تتصفان بنفس الصفات . ومع ذلك فانها جميعها تتصف بصفة واحدة غير قابلة للتعريف ، شيء مجهول واحد مشترك بينها في الخيانة ، لقد كان لكل منا ، كما للقمر ، جهة مظلمة – واستطاع ان يدير الوجه الكاذب

الخالي من الحب الى الانسان الذي أحبّه اكثر من الجميع واحتاج اليه اكثر من الجميع . وكما سخرت جوستين حبي لها لغايتها هي ، سخر نسيم حب ميليسا لغايته... الواحد منا على ظهر الآخر ، يزحف فوقه «كسرطانات بحرية في سلة . »

انه لغريب ان ليس لهذا الوحش اي تركيب بيولوجي ، هذا الوحش الذي يعيش بين الأرقام الفردية ، مع انه بعد أن بنينا حوله ما بنينا من قصص رومانطيقية ، يجب ان يعيش بين الأرقام المزدوجة : الارقام المكتملة التي يصف بها النساك الزواج !

« ما الذي يحمي الحيوانات ويساعدها على استمرار الحياة ؟ إنه صفة خاصة في المادة الحية . ان لها ، كما لأكثر الظواهر الطبيعيّة ، قطبين — القطب السلبي والقطب الايجابي . فاما السلبي فهو الألم واما الايجابي فهو الجنس ... وان القرد والانسان هما الحيوانان الاولان باستثناء الحيوانات الأليفة ، اللذان يمكن اثارة الجنس فيهما دون الحافز الخارجي ... وبالنتيجة فأعظم القوانين الطبيعية ، وهو توالي الدورات الزمنية ، مفقود بالنسبة الى الجنس البشري . والحالة العضوية الدورية التي يجب ان تثير الحس الجنسي اصبحت بلا فائدة ، ومظهراً مرضياً منحلاً » .[1] (بورسواردن يتأمل بوجوم بيت القرود في حديقة الحيوانات ؛ كابوديستريا في مكتبته الهائلة التي تحتوي على كتب في الادب المكشوف وقد جلدت تجليداً فخماً ! بالثازار وايمانه بالغيبيات ! نسيم وهو يواجه مثات الأرقام !)

وميليسا ؟ بالطبع كانت مريضة ، مريضة مرضاً شديداً بلا شك ، حتى انه ليصبح أمراً مياودرامياً ان اقول باني انا قتلتها او بأن جوستين قتلتها . ومع ذلك فما من احد يستطيع ان يقدر فداحة الألم الذي سببته لها باهمالي لحبها . واني اذكر الآن ان اماريل جاء ليراني ذات يوم ، وقد غمرته العاطفة ككلب

١ — من كتاب يوجين مارايس « نفس النملة البيضاء » .

كبير . وكان بالثازار قد ارسل ميليسا اليه للاشعة والمعالجة .

لقد كان اماريل رجلاً طريفاً على طريقته الخاصة ، يتميز باناقة مضحكة في الرجال . مسدسا المبارزة الفضيان ، بطاقات الزيارة الانيقة في علبتها الفخمة ، الثياب المفصلة حسب احدث الأزياء واكثرها أناقة . كان بيته يضاء بالشموع ، وكان يفضل الكتابة بالحبر الأبيض على الورق الأسود . وكان اروع شيء في العالم بالنسبة اليه ان يمتلك امرأة انيقة ، وكلباً من كلاب السباق ، وزوجاً من الديكة القوية التي تتقن الاقتتال . غير انه كان رجلاً لين العريكة وصائب الرأي كطبيب ، بالرغم من نقاط الضعف الرومانطيقية هذه .

وكان ولعه بالنساء ابرز ما فيه ، فقد كان يلبس من أجلهن ، ومع ذلك فإن هذا الولع بهن كان مشوباً بنعومة تكاد تكون عفة ، على الأقل في مدينـــة تعتبر المرأة فيها ، كعلف ، كطبق من اللحم ، في مدينة تطلب فيها النساء انفسهن ان يعاملن معاملة سيئة .

اما هو فقد كان ينظر اليهن كمثل اعلى ، ويبني في خياله حولهن قصصاً رومانطيقية ، ويحلم دائماً بحب مكتمل ، وبتفاهم بلغ حد الكمال مع احداهن ومع ذلك فقد كان هذا كله عبثاً . وكان يقول لبومبال او لي : « لا استطيع ان افهم هذا الأمر ؛ فان حبي ، قبل ان يتمكن من التبلور ، ينقلب الى صداقة عميقة طاغية . ان هذه المشاعر ليست لمن كان زير نساء مثلكم ، وليس بامكانكم فهمها . ولكن ما ان تحل هذه العواطف الرقيقة في القلب حتى يطير الهوى والرغبة من النافذة ، وتستهلكنا الصداقة وتشلنا . ويبدأ عندها نوع آخر من الحب ، ما هو ؟ لست أدري . نوع من الحنان ، (Tendresse) ، شيء يذوب ذوباناً ، «Fondante» وتطفر الدموع من عينيه ، « انني في الحقيقة رجل المرأة والنساء يحببنني ، ولكن — » ويهز برأسه الجميل وينفث دخان سيجارته الى السقف ثم يضيف قائلاً وهو يبتسم وقد خلا حديثه من الشفقة على الذات : « انني الوحيد بين الرجال الذي يستطيع القول انه بينما تحبه جميع النساء فما من امرأة واحدة احبته يوماً حباً صحيحاً . انني بريء من الحب (ولست

اعني الحب الجنسي بالطبع) براءة العذارى . مسكين اماريل ! »

كل هذا حقيقي . لقد كان تعلقه بالنساء هو الذي أوحى اليه بالتخصص في طب النساء . وكانت النساء يذهبن اليه كما تتوجه الازهار نحو ضوء الشمس ؛ فيعلمهن كيف يلبسن وكيف يمشين ، ويختار لهن عطورهن ويقرر لهن لـــون احمر الشفاه . وفوق كل شيء لم يكن في الاسكندرية امرأة واحدة لا تشعر بفخر اذا ما شوهدت تسير متكئة على ذراعه ؛ أو ترفض ان تخون زوجها او عاشقها من اجله ، اذا ما طلب منها ذلك ، (ولكنه لا يطلبه ابداً) . ومع ذلك ومع ذلك ... فان الخيط قد قطع في مكان ما ، وضاعت حلقة الوصل ؛ واختنقت رغباته ، رغبات الجسد الخانقة في مدينة الشهوة ، بين البائعات في الحوانيت — بين من هن دونه منزلة . لقد كانت كليا تقول « ان الانسان يشعر بأن هناك مصيراً خاصاً ينتظر اماريل . اماريل العزيز ! »

نعم : نعم . ولكن ما هو ؟ اي مصير يجثم بانتظار عاشق النساء الرومانطيقي المكرس الصبور ؟ هذه هي الأسئلة التي أسألها نفسي اذ أراه ، وقد تأنق في لبس قفازيه وقبعته ، وساق سيارته وبالتازار قربه الى المستشفى لإجراء عملية ...

ووصف لي الآن حالة ميليسا ، ولم يزد الا قوله : « لكان يساعدها كثيراً او انها تحظى بشيء « من الحب » . ملاحظة ملأتني بالخجل . ففي تلك الليلة كنت قد استدنت نقوداً من جوستين لأرسلها الى مستشفى في القدس ضد رادتها هي .

وسرنا معاً الى الشقة بعد ان امضينا بضع دقائق في الحديقة العامة نتباحث في امرها . كانت شجرات النخيل تلمع في ضوء القمر والبحر يتلألأ تحت رياح الربيع . ولقد بدا المرض الخطير ولا مكان له هنا في هذا الترتيب المنظم للامور . واخذ اماريل بكلتا ذراعي اذ كنا نصعد الدرج وشد عليهما برفق قائلاً : « الحياة صعبة » ، وعندما دخلنا غرفة النوم وجدناها متمددة عـــلى السرير في غيبوبة وقد اتجه وجهها الصغير الشاحب نحو السقف ، وبالقرب منها على الطاولة غليون الحشيش ، وأضاف قائلاً وهو يخلع قبعته : « انه دائماً ...

لا تظن اني ألومك ... لا ، اني اغبطك على جوستين ... ومع ذلك فاننا معشر الاطباء نقدّم في الحالات المشرفة على الموت آخر وصفة يائسة لامرأة مريضة – عندما تخذلنا جميع موارد العلم . عندها نقول (لو انها احيطت بالحب !) »
وتنهد وهز برأسه الجميل .

هنالك دائماً مئات الطرق يبرر الانسان بها نفسه . غير ان سفسطة المنطق المهلهل لا يمكنها ان تبدل الحقيقة ؛ وهي انني بعد أن قرأت هذه الفقرات في تعليقات بالثازار بدأت ذكرى تلك الايام تلاحقني من جديد ، وتعذبني بالشعور بالذنب ، شعوراً لم اكن قد وعيته من قبل . انني أسير الآن الى جانب الطفلة التي انجبتها ميليسا من نسيم خلال تلك العلاقة الحبية القصيرة (هل كانت « حباً » ؟ ام انه كان يحاول استعمالها ليعرف كل ما يستطيع عن زوجته ؟ لعلني اكتشف هذا في يوم من الايام) ، انني اسير الى جانب الطفلة كما قلت ، على هذه الشواطىء المهجورة وانا احس كأنني مجرم . واعيد لنفسي مرة اثر مرة ذكرى هذه الحوادث المتناثرة في حياة المدينة البيضاء ، وقد تملكتني مشاعر الندم والاسف ، مشاعر اعمق من ان أملك معها تغيير جرس صوتي عندما اكلم الطفلة . اين يبحث الانسان عن المفتاح لنموذج كهذا ؟

ولكن من الواضح انني لم اكن الوحيد الذي شعر بالذنب ، فان بورسواردن نفسه كان يشعر بذنبه لا شك في ذلك – اذ كيف يمكنني ان افسر تركه المال لي دون شرط الاّ ان انفقه مع ميليسا . على الأقل ، هذا مشكل وجد حلــه :
واني اعرف ان كليا ايضاً شعرت بخطيئة الجرح الذي كنا نسببه جميعاً لميليسا – مع انها شعرت به نيابةً عن جوستين . فقد اعتبرته ذنباً لها هي ايضاً – وذلك لشدة ما روّعها الأذى الذي كانت تسببه حبيبتها لنا كلينا دون سبب جوهري.
وقد كانت هي التي اصبحت صديقة ميليسا ، ونصيرتها وهاديتها ، وظلت اقرب الناس اليها ومحط ثقتها الى ان ماتت . كليا البريئة الكثيرة التضحيات – حمقاء اخرى في قائمة الحمقى ، فلا جدوى للمرء من الاخلاص في الحب !
لقد قالت عن ميليسا : « من الفظيع ان يعتمد الانسان على قوى لا تضمر له

الخير ، ان يلازم افكاره انسان ما ملازمة دائمة ، كلطخة على وجه الواقع :. »
واعتقد انها كانت تفكر ايضاً بجوستين المقيمة هناك في البيت الكبير ، بين الشموع الطويلة واللوحات الزيتية التي رسمها فنانون منسيون .

وقد حدثتها ميليسا عني فقالت : « وبرحيله اختفى كل شيء من الطبيعة » كان هذا وهي في ساعات النزع الأخيرة. ولكن ما من احد يحقّ له احتلال مكان كهذا في حياة غيره . ما من احد ! انك تستطيع ان ترى الآن المادة الخام التي أستند اليها في حواري الطويل المشبوب مع ذاتي قرب بحر شتوي . قالت كليا في مناسبة اخرى : « لقد كانت تحبك ، لضعفك – هذا ما كانت تجده محبباً فيك . فلو كنت قوياً لأرعبت حباً خجولاً كحبها ونفّرته ». واخيراً ، وقبل ان اطبق بعنف صفحات المخطوطة وقد امتلأت نفسي مرارة وغضباً على بالثازار ، تحضرني عبارة اخيرة لكليا محرقة كالحديد المحمّى : « قالت ميليسا : (لقد كنتِ صديقتي يا كليا واريدك ان تحبيه بعد ذهابي . نامي معه وفكري بي ، هل تفعلين ؟ لا تعبأي بكل هذه المشكلات عن الحب . الا يمكن للصديقة ان تعاشر حبيب صديقتها نيابة عنها لترضيها ؟ انني اطلب منك ان تنامي معه كما كنت خليقة بان اطلب الى الـ Panaghia ان تهبط وتباركه وهو نائم – كما هو مصور في الايقونات القديمة » . هذه هي ميليسا بذاتها ، يونانية اصيلة !

كنا نذهب أيام الآحاد مشياً على الأقدام لزيارة سكوبي كما اذكر ، وقد ارتدت ميليسا ثوبها القطني البهيج وقبعتها المصنوعة من القش ، وراحت تبتسم متحمسة لفكرة نهار كامل تمضيه بعيداً عن الملهى الموبوء بالغبار . كنا نسير على الكورنيش الكبير ونرقب الأمواج ترقص وتتغامز فوق الحاجز ، وعربات الخيل بجوذيبها السمر ، تغطي رؤوسهم الطرابيش الحمراء وهم يسوقون « عربات الحب » المزقزقة المتداعية . واذكنا نسير كانوا يصرخون : « تاكسي الحب « madam, sir » . الساعة تكلف عشرة قروش فقط ، انني اعرف مكاناً هادئاً .. » وكانت ميليسا تضحك لهذا ، وتلتفت لترقب المآذن وهي تلتمع

كاللؤلؤ في ضوء الصباح ، وطيارات الاولاد الورقية الزاهية الالوان تتدافع في رياح الميناء.

كان من عادة سكوبي أن يمضي أيام الآحاد في الفراش ، وغالباً ما كان يصاب بالزكام في الشتاء. ومن عادته ان يتمدد بين شراشف الكتان الخشنة بعد ان يجعل عبدو يدلك له جسمه « بالقرفة » (لم اكتشف قط كنه هذا الشيء) ؛ وكان ايضاً يطلب اليه أن يحمّي له قرميدة ثم يضعها تحت قدميه ليحفظ لهما حرارتهما. وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة محوكة بالسنانير. ولما كان من اولئك الذين لا يطالعون الا قليلاً ، فانه كان يحمل ، كما تفعل القبائل العريقة ، جميع ما يعرفه من الأدب في رأسه ؛ وكان ينشد لنفسه ساعات وساعات عندما يكون وحده. كان يحفظ كمية كبيرة من القصص الشعري ، وكان يطلق القصيدة ، كالرعد ، بحيوية هائلة ، ويرافق ايقاعاتها بضربات من يده. وكانت قصيدة « وداع العربي لجواده » تبعث الدموع الى عينه الوحيدة ؛ وكذلك قصيدة « القيثارة التي عزفت يوماً في قاعات تارا » ؛ وبين المقطوعات الاقل شهرة قصيدة يشبه وزنها وقع حوافر الخيل. وكان إيقاعها يستثيره إلى الاندفاع في انشادها حتى ليحفزه هذا الى ان يلقي بنفسه من الفراش الى وسط الغرفة اذ هو منـــدفع في انشادها بكل قواه. ولقد جعلته يكتبها لي مرة لكي ادرس تركيبها بدقة:

وحاصرهم اونيل حصاراً شديداً ، وذوت ارواحهم
اولئك الثلاثمئة الساكسوني الذين اقفل عليهم في المكان الضيق
الى ان سحب بانيال سيفه الطليطلي واقسم
بسيف الجندي ان ينجد بورتمور

* * *

كان جنوده الخبيرون قد جُربوا في حروب خارجية
ملامحهم لوحتها الشمس ، ومشيتهم متكبرة.
وساروا قدماً ؛ آه ! كان مثيراً ان يرى الانسان

تلك الغيمة المزمجرة تجثم فوق بيل انداي :

* * *

تلك بلاد اوين ابو ! واقتحم الايرلنديون ،
واطلق العدو وإبلاً واحداً – واختفى رجال مدفعيتهم
وهربت الدروع امام الصدور المكشوفة
وارتموا موتى او في حالة النزع بالرغم من الخوذ والدروع

* * *

وغنم الايرلنديون الثياب والنقود والاعلام والذخيرة الكثيرة
والأسلحة والمؤونة والعلف اسلابا
وقضموا الأرغفة البيضاء واكلوا اللحم الناضج
مرحى لذلك اليوم ، كيف اكلوا وكيف عيدوا !

* * *

ولشدة خيبتي لم يستطع سكوبي ان يخبرني شيئاً عن هذه القصيدة ؛ كانت قد قبعت في ذاكرته مدة نصف قرن كقطعة ثمينة من الفضة القديمة لا تخرج الى الوجود وتعرض إلا في مناسبات الاحتفالات . ومن بين كنوزه القليلة الاخرى التي عرفتها ، هذا المقطع (الذي كان دائماً ينشده بحمية) وكان ينتهي بهذه الكلمات :

« ولو جاء الناس من زوايا العالم الأربع مدججين بالسلاح
فسوف نفزعهم
اعتمد على يوشع سكوبي ليفزعهم ! »

* * *

كانت ميليسا مولعة به وكانت تجده رجلاً فائقاً للعادة ، حاذقاً بأقواله وحركاته . وهو ايضاً من ناحيته كان مولعاً بها – على الأخص لانها كانت تناديه بلقبه الكامل – البيمباشي سكوبي – فيرضيه هذا منها ويملؤه بالشعور بأهميته لديها «كموظف كبير » .

ولكنني اذكر يوم وجدناه وقد أشرف على البكاء . وظننت انه قد هيج نفسه بانشاده احدى قصائده المؤثرة (كانت من القصائد الأثيرات لديه ايضاً

قصيدة « نحن سبعة ») ؛ ولكن لا ، « لقد تشاجرت مع عبدو ــ للمرة الاولى » . هذا ما اعترف به وهو يطرف بعينه بشكل مضحك . « هل تعرف السبب ، يا صديقي ، انه يريد ان يمتهن مهنة الختان » .

لم يكن هذا بالأمر العسير على الفهم . فأن يصبح الرجل حلاقاً وجراحاً معاً افضل من ان يظل حلاقاً فقط يقص الشعر ويحلق الذقون . وكانت هذه خطوة طبيعية يتخذها رجل مثل عبدو ؛ كانت كتحصيل الانسان لدرجة الدكتوراه . ولكن بالطبع ، كنت اعرف كره سكوبي للختان .وتابع الشيخ كلامه بغضب « لقد ذهب واشترى وعاء كبيراً قذراً مملوءاً بالعلق . علق ! وبدأ يفتح عروق الناس ، هذا ما فعل . لقد قلت له : « اذا كنت تظن يا ابني اني قد جعلتك في عملك هذا لكي تقضي وقتك منهمكاً في ختان الاولاد الصغار مقابل قرش واحد لكل عملية ختان فانت مخطىء . لقد قلت له ، لقد قلت ... » وتوقف ليلتقط انفاسه ، وقد بان عليه الانفعال العميق لهذا التطور في الأمور . ولكني قلت محتجاً : « ولكن يا بحاري العزيز ، انه يبدو طبيعياً جداً بالنسبة اليه ان يرغب في ان يصبح حلاقاً وجراحاً معاً . وبعد ، إن الختان يمارس في كل مكان الآن ، حتى في انجلترا » . كان الختان الشعائري جزءاً مألوفاً جداً من الحياة المصرية ، حتى انني لم افهم لماذا استاء هو من هذه الفكرة الى هذا الحد . ولكنه عبس واحنى رأسه وصك بأسنانه الاصطناعية بصوت مسموع ثم قال بعناد : « لا ، لن اقبل بالامر » . ثم رفع رأسه فجأة وقال « هل تعرف ماذا سيفعل ؟ انه يريد ان يدرس على يدي محمود عناية الله ، ذلك الشيخ الجزار » .

ولم يكن باستطاعتي ان افهم سر قلقه ؛ ففي كل احتفال او مولد كان كشك الختان جزءاً مستتباً من الاحتفال . وقد كانت اللوحات الضخمة الملونة تلويناً كثيفاً بالألوان الشائعة في البلد تحمل صور حلاقين ــ جراحين امسكوا بمشارطهم وانهمكوا بختن الصبية البائسين المتمددين على الكراسي . كانت هذه جزءاً طبيعياً عجيباً من مشاهد هذه الاحتفالات . وقد كان رئيس النقابة هو محمود

نفسه ، وهو رجل ضخم الجسم بيضاوي الشكل له شاربان طويلان مدهونان بالزيت ، وكان يرتدي دوماً لباسه الرسمي الكامل ، حتى انه يوحي ، لولا طربوشه الاحمر ، بصورة مبهجة لطبيب من اطباء الريف الفرنسي في اجازة : كان دائماً يلقي خطبة رنانة بالعربية الفصحى عارضاً ان يختن فقراء المؤمنين بلا مقابل اذا كانوا عاجزين عن دفع الاجرة . ثم بعد ذلك ، عندما يتقدم بعض المرشحين تدفعهم الى الامام لهفة والديهم ، كان يقفز مهرّجاه الزنجيان الى وسط الحلقة وقد صبغا وجهيهما وارتديا الملابس الغريبة، ثم يرقصان ليسليا الاولاد ويلهياهم ويستدرجاهم الى الكرسي المشؤوم ، حيث كانوا ، على حد تعبير سكوبي بلغته التصويرية ، « يبترون » وقد طغى ضجيج الجماعة على صرخاتهم .

لم استطع ان ارى وجه الخطأ في رغبة عبدو في ان يتعلم كل ما يستطيع من زعيم الختانين هذا . ثم فهمت فجأة عندما قال سكوبي : « انني لا اعبأ بما يحصل للصبية — فبإمكانهم ان يفعلوا بهم ما يشاؤون . ولكن الفتيات يا صديقي ! انني لا استطيع ان احتمل فكرة تشويه تلك المخلوقات الصغيرة . انني انجليزي ، يا صديقي ، وبامكانك ان تفهم مشاعري . **لن اسمح بهذا** » ، وارتمى متكئاً على وسائده وقد ارهقته قوة صوته ثم تابع حديثه : « ولقد اخبرت عبدو بهذا في وضوح وتأكيد . قلت : ضع يدك على فتاة وسوف اجعلهم يقبضون عليك . بامكانك ان تجرب ما اذا كنت سأتردد في ذلك ؟ ولكنه بالطبع امر يكسر القلب ، يا صديقي ، لأنهما كانا صديقين حميمين لي والمسكين لا يفهم سر غضبي ، انه يعتقد اني مجنون » . وتنهد متثاقلاً مرتين : « لقد كانت صداقتهما أفضل صداقة عرفتها ما عدا صداقتي مع بدجي ، ولست ابالغ في قولي يا صديقي . لقد كانت كذلك بالفعل . والان فانهما حائران مشدوهان . انهما لا يفهمان مشاعر رجل انكليزي . واني اكره ان استعمل نفوذ وظيفتي » . وتساءلت ، ماذا عساه يعنيه بالضبط نفوذ وظيفته هذا ؟ واستمر يقول : « في الشهر الماضي فقط قبضنا على عبد اللطيف وادخلناه السجن محكوماً عليه بستة اشهر لاستعماله شفرات غير نظيفة . لقد كان ينشر مرض الزهري يا صديقي .

واضطررت الى ان افعل هذا . مع انه كان صديقاً لي . إنه واجبي ! لقد حذرته مرات لا عدّ لها ، وافهمته ان يضع الشفرات في السائل المطهر . ولكنه ابى ان يفعل هذا . ان فهمهم ضعيف جداً فيما يتعلق بتطهير الاشياء وتعقيمها ، يا صديقي . انهم يستعملون الشبة ، شبة الحلاقة للختان ، ويعتبرون استعمالها اكثر عصرية من المزيج القديم المؤلف من البارود وعصير الليمون ، تف ! ما ابعد التعقيم عن افهامهم ، ولست ادري كيف لا يموتون جميعهم من الجراثيم المختلفة ، يقيناً انني لا ادري . غير انهم خافوا كثيراً عندما سجنا عبداللطيف وتأثر عبدو لهذا تأثراً قلبياً . لقد رأيته يرقبني عندما كنت اوبخ عبد اللطيف ؛ كأنه كان يزن كلماتي » .

غير ان تأثير الزوار كان دائماً يفرج عن الشيخ كربه ويطرد عنه الاشباح التي تلاحقه . ولم يمض وقت طويل حتى عاد يتحدث في ذلك الخط الاستطرادي الرائع عن تاريخ حياة توبي مانيرينج . « كان هو الذي عرفني على الكتاب المقدس ، يا صديقي ، وكنت اتصفح التوراة امس . أتعلم أني وجدت فيها الكثير عن الختان ؟ كان « العمالقة » يجمعون القلف كما نجمع نحن طوابع البريد . مضحك ، اليس كذلك ؟ » وقهقه فجأة بخفة كضفدع كبير . « يجب ان اعترف بانهم كانوا نوعاً فريداً من الناس . اعتقد انه كان عندهم تجار يتداولون البضاعة ، وكان عندهم علب منسقة وتجارة منظمة ، اليس كذلك ؟ » ونظر ببراءة الى ميليسا التي دخلت الى الغرفة في هذه اللحظة ، ثم قال وهو لم يزل يهتز اهتزازاً بيّناً للنكتة التي شغلته . « آه حسناً ، يجب ان اكتب الى بدجي الليلة واخبره بكل هذه الاخبار » . كان بدجي من اقدم اصدقائه . « انه يعيش في هورشام ، يا صديقي ، ويصنع حفر المراحيض ؛ وقد استطاع ان يحصل على دخل منتظم منها . انه عضو من الـ (Frzs) ، لست اعرف ما يعني هذا ، ولكن بدجي يطبع الاحرف على زاوية أوراق مكاتيبه ، تشارلس دوناهو بادجيون (Frzs) . انني اكتب اليه كل اسبوع بانتظام . وهذا كان دأبي دائماً وسوف استمر على الكتابة اليه . صديق وطيد . انا لا اهجر صديقاً لي ابداً » .

ولقد كان ألى بدجي ، على ما اعتقد ، انه كتب ذلك الكتاب الأخير غير التام الذي وجدوه في غرفته بعد موته :

« صديقي العزيز ، ان جميع العالم قد انقلب ضدي منذ ان كتبت اليك في المرة الماضية . كان يجب .. »

سكوبي وميليسا ! انهما لم يزالا يعيشان في أضواء تلك الآحاد السعيدة ، مشعين بتلك الألوان التي تمنحها الذاكرة الى اولئك الذين يفنون حياتنا بالدموع او بالضحك — وهم انفسهم غير واعين لما منحونا أيّاه . ان الشيء الفظيع حقاً هو ان ذلك الهوى القاهر الذي اشعلته جوستين فيّ كان ذا قيمة كبيرة لي ، تماماً كما لو انه كان هوى « حقيقياً » . ولم تكن عطية ميليسا لي باللغز الاقل انغلاقاً — فما الذي كان بامكانها ان تقدمه ، في الحقيقة ، هذه الشاحبة المتشردة ، ابنة الساحل الاسكندراني ؟ وهل اغتنت كليا بعلاقتها مع جوستين ام افتقرت ؟ اغتنت — اغتنت ، غنى لاحد له ، على ما اعتقد . فهل نتغذى نحن اذن بالخيال ، بالاكاذيب ؟ انني اتذكر الكلمات التي خطها بالثازار في مكان ما بخطه الكبير الدقيق : « اننا نعيش بالخيال المنتقى » ، وايضاً : « ان كل شيء صادق عن كل انسان ... » هل كانت هذه الكلمات التي قالها بورسواردن قد اقتلعت من تجربته الخاصة للرجال والنساء ، ام من مراقبته الدقيقة لنا فقط ، لمسلكنا ولنتائجه ؟ لست ادري . ويحضرني الان مقطع من رواية له يتحدث فيه عن دور الفنان في الحياة . انه يقول شيئاً كهذا : « انه (اي الفنان) وهو واع لكل تنافر ، ولكل كارثة كامنة في طبيعة الانسان نفسه ، لا يستطيع ان يفعل شيئاً لينذر اصدقاءه ، ليشير عليهم ، ليصرخ في الوقت المناسب فينقذهم ، ولكنه لو استطاع ان يصرخ محذراً فان ذاك خليق بان يكون عبثاً ، لانهم هم انفسهم عناصر تعاستهم المتعمدة . ان كل ما يمكن ان يقوله الفنان على سبيل الارشاد هو : « تأمل وابك » .

هل كان وعي بورسواردن للمأساة التي لا يمكن دفعها ، للمأساة التي تكمن — لا في العالم الخارجي الذي ننحي عليه باللوم جميعاً — ولكن في انفسنا نحن ،

في الوضعية الانسانية نفسها ، هو الذي دفعه في النهاية الى الانتحار فجأة في تلك الغرفة العفنة في الفندق ؟ انني احب ان اعتقد هذا ، غير اني بهذا الاعتقاد انما ألح على دور الفنان على حساب شخصية الرجل . ويكتب بالثازار : « لقد بقي انتحاره بالنسبة إلي ، دون جميع الاشياء ، نزوة شاذة لا يمكن تفسيرها ابداً . انني لا استطيع ان اجبر نفسي على تصديق هذا الانتحار ، مهما كانت أنواع الضغط والصراع والجهد التي تعرّض لها . ولكني اعتقد اننا لاشك نعيش – الواحد منا في قشور شخصية الآخر ، ولا نستطيع ان ننظر في الاعماق تحتها . ومع ذلك فاني خليق بان اعود فأقول بان انتحاره كان خارجاً عن سياق شخصيته ؛ فلقد كان مرتاح النفس فيما يتعلق بانتاجه ، وهو الشيء الذي يعذب الفنانين اكثر من اي شيء سواه ، وكان قد بدأ يعتبره (شيئاً « غير ذي اهمية ») . انني اعرف هذا معرفة اكيدة لأنه كتب لي مرة على ظهر غلاف جواباً على سؤالي له : « ما هي غاية الكتابة ؟ » كان جوابه : (ان غاية الكتابة هي ان ننمي شخصية تستطيع في النهاية ان تمكن الانسان من تخطي الفن .)

« لقد كانت له آراء غريبة فيما يتعلق بتركيب النفس . فلقد قال مثلاً : (انني اعتبر نفس الانسان وهمية كقوس قزح – انها لا تتجسد في صفات مألوفة ، وفي احوال يمكن التعرف عليها ، الا عندما يركز عليها الانتباه . وان اصدق انواع الانتباه الصحيح هو الحب بالطبع . وهكذا فان « الناس » انما هُمْ وَهْم بالنسبة إلى الصوفي ، كما تكون «المادة» وهماً بالنسبة الى العالم الطبيعي عندما يعتبرها شكلاً من أشكال الطاقة) .

« ولم يتردد قط في أن يتكلم بكل استهانة عن اهتمامي بالغيبيات ، وباعمال القابال الذي حضرت انت اجتماعاته . ولقد قال عن هذا : « ان الحقيقة انما تدرك بالفهم المباشر – فانت لا تستطيع ان تتسلق سلماً من المفاهيم العقلية لتصل اليهـــا .)

«ولست استطيع ان اتخلص من الشعور بانه كان اكثر جداً عندما كان

وقحاً. وقد سمعته يؤكد لكيتس ان افضل بيتين في الشعر الانجليزي قاطبة هما بيتان نظمهما كوفنتري باتمور.

الحقيقة عظيمة وسوف تسود
عندما لا يعبأ احد اذا كانت ستسود او لا تسود.

« وبعد ان قال هذا اضاف : (وان جمالهما الحقيقي يكمن في ان باتمور ، عندما كتبهما لم يكن يدري مايعنيان « Sich lassen ! » وبامكانك ان تتخيل كم ازعج هذا كيتس . ولقد روى بورسواردن ايضاً باستحسان عبارة من ستاندال هي : (ان الابتسامة تظهر على الجلد الخارجي فقط) .

« فهل لنا ان نستنتج من كل هذا وجود شخص جاد تحت اهاب الشخص الماجن ؟ انني اترك السؤال لك - فان اهتمامك به مباشر اكثر من اهتمامي .

« لقد كان في الزمن الذي عرفناه فيه لا يكاد يقرأ شيئاً سوى كتب العلم . وكان هذا يزعج جوستين لسبب ما ، وقد حاسبته لانه كان يضيع وقته في هذه الدراسات . فدافع عن نفسه بقوله ان الفرضية النسبية كانت الباعث المباشر للرسم التجريدي ، والموسيقى الخارجة على السلم الموسيقي المألوف ، والادب الخارج على الشكل التقليدي . ولقد تذوقها الناس حالما فهموها. وأضاف : « اننا في تزاوج الزمن بالمكان نمتلك اعظم قصة حب في هذا العصر . وسوف ينظر احفاد احفادنا الى هذه العلاقة فيرون فيها اتحاداً شعرياً اشبه بما نراه نحن اذ ننظر الى زواج « كيوبيد » « وسايك » في تاريخ اليونان القديم . ان كيوبيد وسايك كانا حقيقة بالنسبة الى اليونان ، لا مفاهيم عقلية ؛ وهنا يقف التفكير القياسي التمثيلي ضد التفكير التحليلي ! ولكن الشعر الحقيقي في هذا العصر واخصب قصائده هو اللغز الذي يبدأ وينتهي ب :

« (هل انت جاد فيما يتعلق بكل هذا ؟)
« (أبداً)

« واحتجت جوستين قائلة لي : (ان هذا الحيوان مستعد للقيام بأنواع

الحيل جميعها ، حتى في كتبه) . كانت تفكر في الصفحة الشهيرة في المجلد الاول ، ففيها ترك نجمة ترجع بالقارىء الى صفحة اخرى في النص ، فاذا رجع اليها وجدها خالية من كل كتابة . ولقد اعتبر عدد كبير من القراء هذا خطأ مطبعياً . ولكن بورسواردن نفسه اكد لي انه كان مقصوداً : (انني احيل القارىء الى صفحة فارغة لكي اجعله يواجه طاقاته الخاصة – فالى هذه الطاقات وحدها ينتمي القارىء في النهاية) .

« انك تتكلم عن صو اب افعالنا . وفي هذا ظلم لنا ، لأننا جميعنا بشر احياء ، ولنا كل الحق ان نلجأ الى حكم الله المؤجل ان لم نلجأ الى حكم القارىء . ولذا فدعني أروي لك قصة ضحكة جوستين ! انك ستعترف بأنك أنت نفسك لم تسمعها قط ، اعني تلك الضحكة المجردة التي لم تكن ساخرة ولا مجروحة . ولكن بورسواردن سمعها في هرم سقارة ! حدث ذلك في ضوء القمر بعد يومين من عيد شم النسيم . كانا هناك بين جماعة كبيرة من المتفرجين على الآثار ، واستطاعا ان يتحدثا قليلاً في الزحام ، ذانك المتآمران . في هذا الوقت كان بورسواردن قد وضع حداً لزياراتها الخاصة له في غرفته في الفندق . ولذا فقد منحهما هذا اللقاء في الزحام وذاك التبادل لكلمات سرية مخزونة في النفس ، غبطة محرمة . وفي نهاية ذلك المساء وجدا نفسيهما في خلوة ، وقد وقفا معاً خاضعين لأبحاث الاضرحة – تلك الأبحاث الغلابة القاهرة التي توحي بشعور خاص : بالموت .

« كانت جوستين قد نسلت احد جاربيها وامتلأ حذاؤها بالرمل . وكانت تفرغه الآن . اما هو فقد كان يشعل عيدان الكبريت ويحملق حوله ويتنشق هواء المساء . وهمست بانها كانت قلقة جداً في المدة الاخيرة لانها اخذت تشك في ان نسيماً قد اكتشف شيئاً عن طفلتها المفقودة ولكنه لا يود اخبارها به . وكان بورسواردن يصغي بشرود ، ثم فرقع أصابعه التي حرقها بأحد عيدان الكبريت وقال : (اصغي الي يا جوستين – اتعلمين ؟ لقد اعدت قراءة (moeurs) مرة ثانية في الأسبوع الماضي للتسلية ، ولأنه كانت هناك فكرة

تراودني ؛ انني اتساءل عما اذا كانت كل تلك الجلبة حول فرويد وقصة اغتصابك في طفولتك صادقة — أصادقة هي ؟ لست ادري . ان بالامكان اختراعها جميعها . ولكن ، بما انك كنت تعرفين الرجل ذا الرقعة السوداء التعيسة ورفضت ان تكشفي عن اسمه الى ذلك الجيش البائس من الهواة النفسانيين الذي كان يقوده ارناووطي ، فلا شك انه كان لديك سبب مهم لهذا الرفض . ما هو ؟ انه يحيرني . لن اخبر أحداً ، انني اعدك . ام ان الامر كله كذبة ؟) وهزت برأسها قائلة (لا) .

« وسارا الى الخارج في ضوء القمر الفضي الصافي وجوستين غارقة في التفكير . ثم قالت ببطء : (لم تكن المشكلة مشكلة خجل او عدم رغبة في ان اشفى كما قالوا هم وكما قال هو عني في كتابه. بل ان السر كان يكمن في انه صديق لنا ، لك ، لنا جميعنا .) ونظر اليها بورسواردن باستغراب وفضول وقال (الرجل ذو الرقعة السوداء ؟) وهزت برأسها . واشعلا سيجارتين وجلسا على الرمال ينتظران الآخرين. ثم ، لانها كانت تشعر بأن كل ما تسره اليه كان في مأمن ، فقد قالت بهدوء : (داكابو .) ومرت فترة سكون طويلة . (يا الهي ! الشيخ نفسه !) ثم استمر يقول بكل هدوء وكأنه يقترح عليها رأياً : (لقد عرتني الفكرة بانه لو كنت انا مكانك ، ولم تكن القصة جميعها كذبة اخترعتها انت لتزيدي من جاذبيتك في اعين المولعين بعلم النفس ، لكنت ... لكنت حاولت النوم معه مرة ثانية لكي اتخلص من الشبح بهذه الطريقة . لقد عرتني هذه الفكرة فجأة .)

« هذا يفضح بالطبع جهله الكامل بعلم النفس . فلا شك ان ما اقترحه كان حرياً بان يكون خطوة مدمرة . ولكنها الآن ، لدهشته الشديدة ، اخذت تضحك — اول ضحكة موسيقية يسمعها لها ، انطلقت لا اثر للجهد فيها . وقالت والضحك يكاد يمنعها من الكلام : (لقد حاولت . لن يكون بامكانك ان تقدر مبلغ الجهد الذي كلفتني اياه هذه المحاولة ، اذ تسكعت في الطريق المعتم خارج بيته محاولة ان استجمع شجاعتي لأكبس على الجرس . نعم ، لقد

خطرت الفكرة لي أيضاً . كنت يائسة — ماذا سيقول هو ؟ لقد كنا صديقين منذ سنوات عديدة — ولم يُشر اي منا الى الحادث بالطبع . ولم يذكر Moeurs قط ولست اعتقد انه قد قرأه يوماً . لقد كنت اعتقد دائماً انه كان يفضل ان يهمل الأمر جميعه — ان يدفنه بلباقة .

« وانتابتها نوبة جديدة من الضحك اهتز لها جسمها حتى ان بورسواردن اخذ ذراعها بلهفة لكي لا تقطع حديثها . واستعارت منديله لتمسح عينيها ثم تابعت سرد القصة : (وذهبت اخيراً . كان جالساً هناك في مكتبته المشهورة ! وكنت ارتجف كورقة شجر في مهب الريح ؛ فلم اكن اعرف على اي وتر اضرب . أتجد هذا دراميا ؟ ام باعثاً على الشجن ؟ كنت كمن يذهب الى طبيب الاسنان . وفي الحقيقة كان المشهد مضحكاً يا بورسواردن . قلت اخيراً : « عزيزي داكابو ، يا صديقي القديم ، لقد كنتَ شيطاني مدة طويلة حتى اني جئت أطلب اليك ان تشفيني دفعة واحدة ؛ ان تنزع مني ذكرى حادثة فظيعة حدثت لي في طفولتي . يجب ان تنام معي ! » ليتك رأيت وجه داكابو عندئذ ! لقد فوجىء مفاجأة شديدة وقال متلعثماً : « Mais voyons, Justine, je suis un ami de Nessim ! »[1] وقدم لي كأساً من الويسكي وعرض علي قرصاً من الاسبرين — وقد تأكد لديه انني جننت . ثم قال : « اجلسي » وقدّم لي كرسياً بيدين مرتعشتين ثم جلس بعصبية امامي وقد شاع في وجهه فزع مضحك — كأنه ولد صغير اتهم بسرقة بعض التفاح : » كان جبينها الآن يؤلمها من كثرة ما ضحكت ، فشدت عليه بيدها وهي تضحك بمرح سرت إليه عدواه ، حتى انه هو ايضاً بدأ يضحك غير متعمد . وقالت : (مسكين داكابو ، لقد صدم صدمة فظيعة وارتاع عندما قلت له بأنه قد اغتصبني يوم كنت فتاة عربية صغيرة في الشارع ، طفلة : لم ار رجلاً مرتبكاً على هذا الشكل . كان من الواضح انه نسي الحادث كلياً

١ — ولكن يا جوستين انا صديق نسيم .

وانكره كل الانكار من بداءته حتى نهايته . والحقيقة انه غضب وأخذ يحتج . ليتك رأيت وجهه عندئذ ! هل تستطيع ان تخمن العبارة التي زلقت من لسانه في مجرى تبريراته لنفسه ؟ انها عبارة رائعة : «Il y a quinze ans que je n'ai pas fait ça ! » . وألقت بنفسها الآن ، ووجهها الى اسفــل ، على حضن بورسواردن ، وبقيت على هذا الوضع لحظة وهي لم تزل تهتز من الضحك . ثم رفعت رأسها مرة اخرى لتمسح عينيهــا . وقالت : « وانتهيت من شرب كأس الويسكي اخيراً وغادرت المكان ، ففرج عنه ؛ واذ كنت عند الباب نــاداني بلهجته الـتي الفتها خلال هذه السنوات الاخــيرة قائلاً : « تذكري انكما ستتعشيــان معي مساء الاربعاء الساعة الثامنة ، اللباس رسمي . » وذهبت الى البيت وانا كالدائخة ، وشربت نصف زجاجة جن . ثم أتدري ؟ لقد حضرتني فكرة تلك الليلة وانا في الفراش — لعلك ستجدها غير مناسبة ابداً وغير متوائمة مع طبيعة المشكلة : كانت الفكرة تتعلق بداكابو وبنسيانه للفعل الذي سبب لي انا ذينك القلق والمرض العقلي كل تلك السنين ، وجعلني أوذي كل اولئك الناس . قلت لنفسي : « لعل هذه هي الطريقة ذاتها التي ينسى بها الله المظالم التي ينزلها بنا اذ يتركنا تحت رحمة العالم » .) ودفعت برأسها الى الوراء وهي تبتسم ثم وقفت .

« ورأت الآن ان بورسواردن كان ينظر اليها وقد امتلأت عيناه بدموع الاعجاب . وفجأة عانقها بحرارة ، وراح يقبلها بشغف مشبوب ، شغف فاق كل ما شعر به نحوها من قبل . عندما روت لي هذا بفخر لم اعتده فيها اضافت : هل تعلم يا بالثازار ؟ لقد كان هذا افضل من أية قبلة يمنحها عاشق . لقد كان مكافأة حقيقية . ورأيت عندئذ انه لو كانت الأمور على غير ما هي عليه ، لملكتُ القدرة على ان اجعله يحبني — قد يحبني من أجل النواقص عينها التي تبدو واضحة في خلقي لكل انسان) .

« ثم جاءت بقية الجماعة وهي تسير مثرثرة بين الاضرحة و . . . لست ادري ماذا . اعتقد انهم ركبوا جميعهم السيارات الى النيل وانهوا الليل في احد

الملاهي . ولكن لماذا – بحق الشيطان – اراني اخط جميع هذه الحقائق لك ؟ جنون ! انني لن انال الا كرهك لي لاني اخبرك بأشياء قد تفضل ، كرجل ، ان لا تعرفها . اما كفنان فقد تفضل ان تتجاهلها ... هذه الحقائق الصغيرة العنيدة التي لا يريدها احد ، نشازات وجودنا الانساني التي يقحمها الانسان كما يقحم المفتاح في القفل – او السكين في الصدفة : ترى ايجد لؤلؤة في الداخل ؟ ولكن من يستطيع ان يجيب على هذا السؤال ؟ غير ان هذه النبذ المنشقة يجب أن تعيش في مكان ما كحق من حقوقها – بذور الحقيقة التي انزلقت عن اللسان . ان الحقيقة ليست تلك التي تقال في الوعي الكامل ، انها دائماً تلك التي يزل بهـا اللسان) – خطـأ الطباعة الذي يفضح التمثيلية جميعها . هل تفهمني ، ايها الحكيم ؟ ولكني لم انته ، لن تكون لي الشجاعة لأعطيك هذه الاوراق . هذا ما استطيع ان اراه الآن . وسوف انهي القصة لنفسي فقط .

« من هذه الامور جميعها سيتسنى لك تقدير يأس جوستين عندما انتحر ذلك المخلوق البائس بورسواردن . واذ اشعر بالانزعاج والغيظ منه اجدني ابتسم ايضاً ، فاني لم استطع ان اصدق حقيقة موته بعد . ولقد وجدت هي هذا الفعل ، انتحاره ، امراً غامضاً ، ومفاجئاً ، ومليئاً بالألغاز ، تماماً كما وجدته انا ؛ ولكن تلك المخلوقة المسكينة كانت قد بنت خدعتها المدروسة حول فكرة استمراره في الحياة ! ولم يكن احدٌ سواي يمكنها ان تثق به وتروي له اخبارها : اما انت فيعلم الله انها لم تكرهك وان لم تكن تحبك . لقد كنت انت في خطر كبير . وكان قد فات الوقت لتلافي الأمر بشأنك ، فلم تجد أمامها الا فكرة الرحيل ، فصممت عليه واعدت له عدته . كانت ، بعد موت بورسواردن قد تركت وحدها مع « وسيلة الخداع » التي اختارتها : ترى هل يتعلم الانسان شيئاً من هذه الحقائق المرة ؟ ارم كل هذه الاوراق في البحر يا ولدي العزيز ، ولا تقرأ ما بقي من تعليقاتي . ولكني نسيت ! فإني لن ادعك تطلع عليها ، اليس كذلك ؟ وسأتركك راضياً ومقتنعاً بنسيج فن « يعيد صنع الواقع ليظهر ناحيته المهمة » ؟ فما هي الناحية المهمة مثلاً التي كان بإمكانها ان تظهرها هي لنسيم ، وكان قد وقع

يومئذ فريسة لهموم جعلته يبدو للجميع – ولنفسه ايضاً – غير متزن العقل ؟ ان بامكاني ان اكتب الكثير عن شؤونه واهتماماته السياسية . وهي ستفسر انقلابه الفجائي الى رجل اجتماعي مولع بالضيافة ، وتفسر سر البيت المزدحم الذي تصفه انت بكل تلك الدقة – حفلات الغداء والعشاء والرقص . ولكن هنا ... ان مشكلة الرقابة تقلقني ، فلو اني ارسلت اليك هذه الأوراق ثم رميتها انت جميعها الى البحر ، فان البحر قد يحملها مرة ثانية الى الاسكندرية ، وقد يحملها مباشرة الى ايدي البوليس – فالأفضل ان لا اقول شيئاً . انني سوف اروي لك ما تمليه الحكمة فقط . ولعلني بعد زمن اروي لك الباقي .

« لقد ذكرني وجه بورسواردن وهو ميت بوجه ميليسا – فكلاهما كان يبدو كأنه قد تمتع لتوه بنكتة سارة بينه وبين نفسه ، ثم اغفى قبل ان تتلاشى الابتسامة تماماً عن زاويتي فمه . كان بورسواردن قبل موته بزمن قصير قد قال لجوستين : (انني خجل من شيء واحد فقط : هو اني قد اهملت اول شرط من شروط الفنان وهو : « اخلق فناً وجُعْ » ، انني لم اجع يوماً كما تعلمين ؛ بل ظللت اقوم باعمال صغيرة متعددة هنا وهناك . وسببت اذى للآخرين كما فعلت انت ، بل واكثر) .

« عندما وصلت الى فندقه في تلك الليلة ، وجدت نسيماً في غرفته ، وكان شديد الهدوء والتماسك ، ولكنه بدا دائخاً كأن انفجاراً هائلاً قد اصمه . كان قد حاول ان يتلفن لماونت اوليف في المسكن الصيفي على التل – لعل فداحة الواقع قد اذهلته ؟ كان في ذلك الزمن يمر في فترة الاحلام الفظيعة التي وصفها في مذكراته ، والتي اثبتّ انت بعضها في مخطوطتك . كانت تلك الأحلام اشبه بأحلام ليلى منذ خمس عشرة سنة – فقد مرت في فترة عصبية بعد وفاة زوجها ، وعالجتها انا بناء على طلب نسيم – وهنا ايضاً ، في حكمك عليه ، اراك تفرط في الثقة بما تقوله شخصياتك عن نفسها – بالروايات التي ترويها عن أفعالها وعن معاني هذه الأفعال . ولذا فانك لست خليقاً بأن تكون طبيباً بارعاً . فالطبيب يجب ان يكتشف بنفسه دواء مرضاه ، فانهم يكذبون دائماً . لست

اقول ان بامكانهم تفادي ذلك ، فانه جزء من جهاز الدفاع عن الذات الذي يجهز المرض به المريض — تماماً كما تفضح مخطوطتك جهاز الدفاع عن الحلم الذي لا يرغب في ان تغزوه الحقيقة ! لعلني مخطىء ؟ انني لا أود ان احكم على اي انسان ظلماً او ان أتطفل على مملكتك الشخصية . اترى ستجعلني هذه الملاحظات اخسر صداقتك ؟ آمل ان لا يحدث هذا ، غير اني اخشاه .

« ما الذي كنت اقوله ؟ نعم ، وجه بورسواردن في الموت ! لقد كان يحمل نفس المعنى القديم ، معنى التآمر الوقح : وكان الانسان يشعر بانه يمثل — ويقيناً انني لم ازل اشعر بهذا ، فانه لم يزل يبدو لي مفعماً بالحياة .

«كانت جوستين هي اول من اخطرني بموته — فقد أرسلها نسيم إليّ في السيارة وسلمها رسالة لم ادعها تقرأها : كان واضحاً ان نسيماً قد علم بنيـة بورسواردن او بحقيقة ما وقع قبل اي انسان منا — وانني اميل الى الاعتقاد بأنه تلقى مخابرة تلفونية من بورسواردن نفسه . على كل حال ان خبرتي الطويلـة بحالات الانتحار — لقد عالجت عدداً كبيراً من هذه الحالات مع شرطة نمرود دفعتني الى احتمال امكانية انقاذه ، واذ ظننت بانه قد يكون تجرع سماً بطيء المفعول فقد حرصت على اخذ مضخة المعدة معي وبعض الادوية المقاومة للسموم وبعض المنعشات ، واعترف باني فكرت بسرور في تعبير وجه صديقي عندما يفيق في المستشفى : ولكن يبدو اني اسأت الحكم على كبرياء بورسواردن وعلى دقته ، فقد كان ميتاً موتاً لا رجعة منه عندما وصلنا .

« وسبقتني جوستين صاعدة ركضاً على درج ذلك الفندق الكئيب الذي كان يحبه كثيراً (وقد اسماه فندق جبل الصقور — ولعل ذلك لان جماعات كبيرة من البغايا كانت ترفرف في الشارع قربه كالصقور الجارحة) .

«كان نسيم قد اقفل باب الغرفة عليه — واضطررنا الى قرع الباب ففتحه لنا وقد بدا الانزعاج على وجهه ، او هذا ما خُيِّل الي . كانت الفوضى تعم المكان ، فالادراج مفتحة ، والثياب والمخطوطات واللوحات مبعثرة في كل مكان ؛ وكان بورسواردن ممدداً على السرير في الزاوية ووجهه الى السقف ؛

توقفت لافتح حقيبتي الكبيرة – فالاسلوب المنظم هو كل شيء في الازمات – بينما ذهبت جوستين الى حيث كانت زجاجة الجن في الزاوية قرب السرير وجرعت منها جرعة كبيرة . كنت اعرف ان هذه الزجاجة قد تحتوي على السم ولكني لم اقل شيئاً ، فليس هناك ما يقال في اوقات كهذه . فعندما تصيبك الهستيريا تضطر الى تعريض نفسك الى مخاطر كهذه . ان كل ما فعلته هو اني اخرجت ادواتي وفككت مضخة المعدة القديمة التي انقذت ، اكثر من اية آلة اخرى في الاسكندرية ، حياة عدد كبير من الناس الذين لا نفع فيهم (حيوات لا يمكن ان تعاش) . وفككتها ببطء وباسلوب العارف ، كطبيب من الدرجة الثالثة ، وهو كل ما بقي لطبيب من الدرجة الثالثة ليواجه به العالم ...

«وفي هذه الأثناء جاءت جوستين الى السرير وانحنت وقالت بصوت عال : (بورسواردن ، استيقظ !) ثم وضعت كفيها على قمة رأسها واطلقت صرخة طويلة مدوية كأنها امرأة عربية – صوتاً احاط به الليل الصامت في تلك الغرفة الصغيرة الحارة – ثم بدأت تبول قليلاً قليلاً على السجادة. فأمسكت بها ودفعتها الى الحمام ، ومنحني هذا القوة التي كنت احتاج اليها لاتفحص قلبه ؛ كان صامتاً كالهرم الكبير ، وشعرت من ذلك بالغضب ، فقد كان واضحاً انه قد لجأ الى سم الزرنيخ السريع المفعول ، وهو السم المفضل عند بوليسك السري الشهير . لقد شعرت بالحنق حتى اني ضربته بقبضتي فوق اذنه – ضربة كان قد استحقها منذ زمن طويل !

«كنت واعياً طول هذا الوقت ان نسيماً أصبح فجأة دائب الحركة ، ولكني الآن صحوت واستطعت ان اسلط انتباهي عليه . كان يقلب محتويات الادراج والخزائن وطاولات الكتابة كمن أصابه هوس ؛ ويتفحص المخطوطات والاوراق ، ويرمي بالاشياء جانباً ويلتقط غيرها دون ان يبدو عليه اي أثر لبروده الطبيعي . قلت له غاضباً (ماذا تفعل بحق الجحيم ؟) واجاب (يجب ان لا يكون هناك ما يمكن ان تجده الشرطة المصرية) . ثم توقف كأنه قال اكثر مما يجب . كانت على كل مرايا الغرفة آثار كتابة . وكان نسيم قد محاها جميعها

ولكنه سها عن محو بعض الاحرف على احدى هذه المرايا ، ولم يكن باستطاعتي ان اتبين الا ... وهين ... سطين ...

«لم يمض وقت طويل حتى سمعنا القرع المألوف على الباب ، ثم ظهرت الوجوه ، وعلت الجلبة التي ترافق دائماً مشهداً كهذا المشهد في كل مكان في العالم — رجال ومعهم دفاتر ، وصحفيون ، وقساوسة — ومن بين جميع الناس جاء الأب بول : وهنا كدت اتوقع ان تنهض الجثة وترمي شيئاً الى الأرض ... ولكن لا ، لقد بقي بورسواردن ووجهه الى السقف ، في اطار استقلاله الشخصي ،

«وخرجنا معاً متعثرين ، وعدنا الى المرسم حيث كان منظر اللوحات الكبيرة ملطفاً لمشاعرنا المتألمة . وامدنا الويسكي بشجاعة جديدة تمكننا من تحمل الحياة والاستمرار فيها : ولم تقل جوستين كلمة واحدة ، لم تتفوه بكلمة واحـــدة . »

٧

واقلب الصفحات الى جزء آخر من ملاحظات بالثازار — الى المقطع الذي يقول فيه : « وهكذا فان نروز قرر ان **يعمل** » ، وقد وضع خطين تحت الكلمة الاخيرة . هل لي ان اعيد بناء ذلك المشهد الذي اراه بكل وضوح ، المشهد الذي فجرته في خيالي كلماته القليلة المكتوبة بالحبر الاخضر ؟ نعم ، انه سيتركني احلم برهة عن حي غير مطروق في الاسكندرية كنت احبه كل الحب .

ان المدينة ، وقد طافت فيها ذكرياتي هذه ، لا تعود بجذورها الى الوراء فقط ، الى قلب التاريخ البعيد ، مرصعة بالاسماء العظيمة التي دمغت كل نقطة حاسمة من تاريخها ، ولكنها تعيش أيضاً في الحاضر — بين عقائدها الحديثة واجناسها المعاصرة ؛ مئات الطوائف الصغيرة التي يخلقها الدين او العرق ، وتتحد جميعها كما تتحد الخلايا ، بنعومة ولطف ، لتؤلف إسكندرية اليوم ، تلك السمكة الهلامية الكبيرة الممتدة على طول الشاطيء ؛ وتعيش الجماعات المختلفة وتتفاهم ، وقد وحّدها بهذه الطريقة العرضية فعل الارادة الذي تمليه المدينة نفسها . وانعزلت على هذه الأكمة المشرفة على البحر ، ولا شيء خلفها يساند عزلتها الا مرآة مريوط الشبيهة بجوهرة — مريوط ، بحيرتها المالحة ،

وجفاف الصحراء من ورائها (لقد مهدت رياح الربيع وجه الصحراء الآن واحالته الى كثبان حريرية جميلة كالغيوم، لا يثبت شكلها على نموذج معين). يهود واتراك، عرب واقباط، سوريون وارمن، طليان ويونان: هؤلاء هم سكانها، تجار اصيلون، ترى الرعشة تهزهم اثر كل صفقة تجارية كما تتماوج الرياح في حقل من الحنطة، وتجمعهم معاً المهرجانات وحفلات الزواج والمعاهدات. وتفرّقهم. حتى اسماء الأماكن على طريق الترام الرملية القديمة تردد اصداءً بعيدة لاسماء منشئي المدينة - اسماء القادة القدماء الذين نزلوا الى البر هنا، من الاسكندر الى عمرو؛ اسماء منشئي هذه الفوضى المؤلفة من الشهوة والحمى، من حب المال والتصوّف. ايمكنك ان تجد خليطاً كهذا في مكان آخر على وجه الأرض؟

وعندما يهبط الليل وتضيء المدينة ثرياتها المشعة في حدائقها ومبانيها، وتتناغم مع موسيقى الطبول الغريبة الناعمة الوافدة من مراكش والقفقاس، فانها تبدو كأنها سفينة كبيرة نائمة شبكت مرساتها بقرن افريقيا - وراحت انعكاساتها، ماسية هنا، ونارية زرقاء هناك، تتلوى كقضبان صقلية في مياه الميناء الزيتية وبين السفن الحربية الراسية فيه.

اما في عتمة الشفق فقد تصبح المدينة مرجاً وردياً عجيباً، تلطخه الالوان المتقاربة كأنها تنبثق من موشور متكسر: وفي سماء الغروب اللؤلؤية تتهادى المآذن والابراج كسيقان شمار عملاق مزروع في مستنقع، وقد ارتفعت على خطوط الشاطىء الطويلة الشاحبة، وعلت فوق المقاهي البربرية حيث يرقص الزنوج على ضربات الطبل او انغام الشبابات الحزينة الرقيقة:

ويكتب بورسواردن «ان هناك حقائق بقدر ما تود أن تتخيل انت»:

كان نروز يتجنب زيارة الاسكندرية بالرغم من حبه لها حباً مشبوباً، حب رجل منفي: كانت شفته المشرومة تملأ نفسه بشعور الخجل، وتجعله يتردد في زيارة وسط المدينة لئلا يلتقي بمن يعرف. فكان يحوم حول ضواحيها لا يجرؤ على الذهاب مباشرة الى قلب المدينة الواسع المضاء حيث عاش اخوه

حياة دنيوية مليئة بالاعمال وضروب النشاط التي يحبها : واذا ما جاء نروز الى المدينة لينجز احدى المعاملات المتعلقة بالاملاك ، فقد كان يدخلها دائماً خاشعاً ، ممتطياً صهوة جواده ، ومرتدياً ملابسه العادية . وكان اقناعه بان يلبس بذلة وأن يزور الاسكندرية في السيارة امراً يحتاج الى جهد كبير ، ولم يكن ليفعل هذا إلا عندما تلح عليه الضرورة الماسة . وفي اغلب الاحيان كان يفضل ان ينجز اعماله عن طريق نسيم ؛ وكان التلفون يوفر عليه عدداً كبيراً من هذه الزيارات غير المرغوبة . ومع ذلك ، فعندما خابره اخوه ذات يوم وقال له إن عملاءه لم يتمكنوا من حمل المجذوب على البوح بما يعرف عن طفلة جوستين ، شعر فجأة بالبهجة وكأنما قد التمع في عقله ان واجب انجاز هذا العمل قد انتقل اليه الآن . وقال : « نسيم ، في اي شهر نحن الآن ؟ نعم ، مسرى : سيجيء عيد ستنا مريم قريباً جداً . اليس كذلك ؟ عندها سابحث عن المجذوب في المهرجان وساحاول ان اجبره على ان يقول لنا شيئاً » . وتأمل نسيم هذا العرض برهة حتى ظن نروز ان الخط قد قطع فصرخ بحدة : « هالو — هالو ! » وأجاب نسيم حالاً : « نعم ، نعم ، انا هنا ، انني كنت افكر ، ستكون حذراً ، اليس كذلك ؟ » وقهقه نروز بصوت ابح ووعد بان يكون حذراً ، كان دائماً يتحمس لفكرة مساعدة اخيه — ومن الغريب انه لم يفكر بجوستين نفسها ، او بما يمكن ان تعنيه لها معلومات كهذه ؛ لقد كانت مجرد قنية اقتناها نسيم ومن اجله عزها نروز واعجب بها واحبها بعمق ولكن بصورة آلية ؛ لقد كان من واجبه ان يقوم بكل ما يستطيع لكي يساعد نسيماً في ما يرغبه من مساعدة زوجته ، لا اكثر ولا اقل .

وهكذا فقد سار نروز بخطوات خفيفة مرحة وان كانت كدأبها خالية من الرشاقة (كانت رجلاه ترتفعان وتهبطان على رؤوس الاصابع ، وذراعاه تتأرجحان) — سار يقطع الميدان الداكن المليء بظلال الغروب المعتم خارج محطة الاسكندرية الرئيسية في اليوم الثاني من أيام عيد ستنا مريم . كان قد ربط جواده في صحن دار صديق له ، نجار يسكن قريباً من مكان الاحتفالات

بالعيد الديني . وكان ليل الصيف حاراً كريه الرائحة .

عند الشفق كانت تلك الارض الفارغة تكتسي اولاً باللون الذهبي ثم بالبني — ثم تتحول اخيراً الى لون بنفسجي اذ تشع الاضواء فتثقب الظلام الهابط ضوءاً اثر ضوء ، بينما تأخذ الملاءة السوداء التي تخيم على الاحياء الاوروبية في المدينة بالاضاءة نافذة بعد نافذة ، وشارعاً بعد شارع ، حتى تبدو جميعها اشبه ببيت عنكبوت رصعه الصقيع بملايين الماسات البراقة .

وارغت بعض الجمال في مكان ما وهدرت ، وحملت اليه نسائم الليل انغام الموسيقى وروائح البشر ، غنية بذكريات الاسواق والمعارض والمهرجانات التي زارها مع ابويه اذ هو صبي صغير . كان يعرف أنه لن يتميز من الجموع ما دام في ملابس العمل الملطخة وطربوشه على رأسه . وكان من عادات المدينة المميزة ان جميع سكانها ، بما في جملتهم سكان البلدة المسلمون ، يحتفلون بعيد ستنا مريم ويتمتعون به بالرغم من انه عيد قديسة مسيحية قبطية . فالاسكندرية انما هي جزء من مصر ، وجميع الالوان تجري معاً فيها جنباً الى جنب .

وكان المحتفلون قد نصبوا في الظلام مخيماً كاملاً من الاكشاك ، والمسارح والمواخير والدكاكين — مدينة كاملة اضيئت بقناديل الزيت ومصابيح الكاز و « اللكسات » وكوانين الفحم النحاسية ، واضواء الشموع وحبال طويلة من المصابيح الكهربائية الملونة الباهرة الضوء . وسار نروز بخفة الى قلب هذا الزحام ، منخراه يشربان روائح الطعام الذكية والحلوى والياسمين الذابل وعرق البشر الزنخ ، وأذناه تستوعبان همهمة الأصوات المألوفة التي ترافق المواكب الكبيرة في البلدة ؛ اما الموكب نفسه فقد كان يتلكأ في طريقه معرجاً على كل كنيسة لسماع تلاوة النصوص المقدسة حتى يصل اخيراً الى مكان الاحتفال الخاص .

كانت هذه الزينات والألعاب المنتشرة هنا وهناك — منظر الدببة الراقصة والبهلوانات ، وآكلي النيران الذين ينفثون من افواههم السنة من اللهب طولها ستة اقدام — والراقصين في اسمالهم وقلانسهم الملونة — كل ما يمكن أن يبعث

البهجة في الغريب ، كان يبعث فيه هو ايضاً بهجة مماثلة ، لا لجدته عليه ولكن لألفته له ، فقد كان جزءاً لا يتجزأ من حياته . وسار في الضوء الساطع كما كان يسير وهو صبي صغير ، متوقفاً هنا وهناك وقد شعّت السعادة من عينيه الضاحكتين ، ليحملق في احد مشاهد المهرجان المألوفة . ورأى ساحراً مرتدياً ثياباً زينت بالبهرج والترتر يسحب من كمه سيلاً لا ينتهي من المناديل المتعددة الالوان ، ويسحب من فمه عشرين صوصاً صغيراً حياً وهو يصرخ طول الوقت بصوت طائر مائي « جالي ــ جالي جالي هوب ! » ؛ ورأى القرد مانولي وعلى رأسه قلنسوة من ورق يدور مرة بعد مرة حول كشكه ممتطياً ظهر ماعز : وكانت الاكشاك الكبيرة تمتد على طرفي الطريق وقد علقت عليها دمى السكر مزينة بالترتر والبهرج اللماع في اشكال تمثل مغامرات الابطال الذين تدور حولهم قصص الدلتا المأثورة ، وغرامياتهم ــ أبطال كأبي زيد وعنتر ، وعشاق امثال يونس وعزيزة . سار نروز على مهل وبدون اكتراث ، متوقفاً قليلاً ليصغي الى رواة القصص او ليشتري تعويذة تجلب الحظ من حسين ، الواعظ الاعمى المشهور ، الذي كان يقف ثابتاً كشجرة بلوط راسخة الجذور ، وقد بدا ضخم الهيئة في الضوء الشاحب ، وراح يتلو اسماء الله الحسنى التسعة والتسعين .

ومن الظلام المحيط بالساحة تناهت الى سمعه قرقعة حوافر الخيل الحادة وقد امتطى صهواتها فرسان متبارزون . وكانت تلك القرقعة تعلو على الدمدمة المبحوحة المنبعثة من الموكب المتحرك ــ دمدمة تخترقها ايضاً بين الفينة والفينة انغام موسيقى عنيفة ــ اصوات الطبول المعدنية الكبيرة ، والدفوف ، تنطلق كوابل من نيران البنادق ــ كان قرع الطبول المصنوعة من جلد الجمال ينطلق ملحاً ومثيراً فيغرق موسيقى الناي العميقة المتموجة ثم يصمت فجأة لتنتعش هذه من جديد . وانبعث صراخ مشوش « انهم قادمون ، انهم قادمون . » وراح الاولاد يتراكضون هنا وهناك كالفئران في الحظيرة . ومن مدخل زقاق ضيق اندفعت كالامواج مجموعات كبيرة من البشر وهي تتكاثر وتتكاثر كما

لتسع دائرة النيران في الظلام . وفي مقدمتها سار بهلوانات الاسكندرية واقزامها وهم يقفزون جميعهم ، يتبعهم موكب طويل غريب المنظر ، موكب الفرسان حاملي الاعلام ، خيولهم ترقص على الانغام وقد غمرها تيار من الضوء الموحي بمعان دينية غريبة ، وتتهادى محافظة على ايقاعات تلك الموسيقى العنيفة . وكانت هذه الموسيقى تفعم المكان جميعه منطلقة من النايات الشاكية ومن دقات الطبول وسورات الصنوج المرتعشة التي كان يضرب عليها الدراويش اذ ساروا في بزاتهم الكاملة نحو ساحة المهرجان ، وكانت كلمة « الله ــ لَهْ ، الله ــ لَهْ » تنطلق من كل حلق .

وابتاع نروز عوداً من قصب السكر من احد الاكشاك وراح يمصه وهو يرقب هذه الامواج البشرية تتوجه نحوه لتحيط به من كل ناحية . وتقــدم الآن موكب دراويش الطريقة الرفاعية الذين اشتهروا بالقدرة على القيام بأعمال خارقة . فانهم عندما تستولي عليهم الغيبوبة ، يستطيعون ان يسيروا على الجمر ، او ان يشربوا الزجاج المذاب ، او يأكلوا العقارب الحية ، او يرقصوا الى ما لا نهاية ــ الى ان يتلاشى كل أثر للواقع كأنما « زنبرك » طاقتهم قد امتلأ حتى نهايته ، فيقعوا عندئذ صرعى على الارض ، لاهثين دائخين كالعصافير . وكانت الأعلام والمشاعل والمجامر النحاسية المثقّبة وقد ملأها الجمر الملتهب ، وفوانيس الورق الكبيرة التي خطت عليها النصوص الدينية ، تلقي جميعها بمختلف انواع الاضاءة ، وتهتز وتتأرجح باستمرار في عتمة الليل الاسكندراني .

واصبحت الآن اطراف الساحة مكتظة بالمتفرجين ، الذين لزوا بالموكب واكبوا عليه كما تكب الكلاب الضخمة على العظام ، وراحوا يصرخون ويتدافعون ؛ ويستمر الطوفان متدفقاً بموسيقاه العنيفة (لعلها نفس الموسيقى التي سمعها انطونيو وهو في النزع الاخير في قصيدة كافافي) حتى يعم ويطم ظلام الميدان الكبير ، ناشراً فيه الخيالات المهتزة والمتشنجة ، خيالات الرجال في الجلابيب والوجوه والاشياء الخالية من الفحوى ، والتي لونت اطراف السماء . كانت عدوى الحماسة تنتقل بين هؤلاء البشر فتلهبهم .

وفي مكان مجاور لميدان الاحتفال ، متهدم الابنية ، مهجور البيوت متداعيها ،

كانت تقع حديقة صغيرة يقوم في وسطها ضريح هو محط كل هذه الضجة وهدفها . وهنا امام شمعة مضاءة كان المسيحيون يصلون الصلوات لقديسة مسيحية ، فيما تدور حوله معصرة الاسكندرية السوداء ويطغى طوفانها ويصم . كانت الديانات والمعتقدات المتعددة تشترك في احتفال اصبح بمرور الزمن مشاعاً للجميع ومختصاً بفصل معين ومكان معين ، مما ازال اصوله القديمة المستمدة من القصص المأثور والشرع . لقد كانت جميع الاديان واحدة بالنسبة الى بلد متدين ، وبينما كان المؤمنون يتلون الصلوات لقديسة مختارة ، كان الشعب يتمتع بالمهرجان الذي نما حول موقع الاحتفال الديني ، كأنه كرنفال متأرجح من الضوء والموسيقى .

وتخلل كل هذا صوت صفارات المحركات البخارية من ساحة البضائع المظلمة ، او زفير صفارة سفينة وهي تحاول اختراق طريقها الملتوي في الميناء اذ تبدأ رحلتها الى الهند ، (فكأن المدينة تذكّر المحتفلين فجأة بوجودها نفسه ، بمتطلبات مستودع عظيم وقوّته) . لقد ضمهم الليل جميعهم — بغياً تغني باللغة العربية القصيرة النبرات لترافق ايقاعات الطبل الصغير وضرباته ، صرخات الصبية في الاراجيح « والشقاليب » ، رماة الهدف والحواة ، البشر الشاذين (زبيدة المرأة الملتحية ، والعجل ذا القوائم الخمس) ، المسرح الكبير بشاشته للضخمة حيث يقف الراقصون القويو العضلات ليبدوا مهارتهم ، عراةً الا من مآزر يسترون بها عوراتهم ، يقفون بلا حراك في حين تتموج اجسامهم تموجاً يكاد لا يصدق — ارتجاج عضلات الصدر والبطن والظهر ، تلك الحركات الخادعة كبرق الصيف .

واستغرق نروز في المشهد وتلفت حوله تلفت السكارى ، وقد تمتع بـه جميعه ، ثم سار متتبعاً تعرجات الدروب العشوائية في سفينة الضوء هذه . وتملص ضاحكاً من قبضة بضع فتيات كن يمارسن مهنتهن الفظة في اكشاك من الخيش المصبوغ اقيمت بين الدكاك المنصوبة ، وانتهى الى اكشاك الختان وقد سطعت فيها الأضواء وكان اكبرها واكثرها زينة كشك محمود عنايةالله ،

معلم عبدو ، وقد بدا عظيم الابهة برسومه المرعبة التي تصور احتفالات الختان وعمليته وقد لُونت واثبتت في الاطارات ، بينما علقت على الباب آنيــة زجاجية كبيرة تعج بالعلق . وكان المعلم نفسه هناك الليلة ، يخطب في الجمع ويعد بأن يختن أي صبي من المؤمنين دون مقابل اذا كان عاجزاً عن دفع الاجرة المعتادة . كان صوته الجهوري يهدر عالياً ، بينما وقف مساعداه مستعدين وراء الكرسي المتوج بالنحاس ، وفي يد كل منهما مشرطه . وفي داخل الكشك كان يجلس رجلان متقدمان في السن يرتديان الثياب الداكنة ، ويرشفان القهوة وهما يبدوان كأنهما عالمان لغويان في مؤتمر .

ولكن سوق الختان كانت كاسدة الليلة . وهدر الرجل الهرم صارخاً : « تقدموا ، تقدموا وتطهروا ايها المؤمنون » وقد وضع ابهاميه وراء قبة سترته الرسمية القديمة ، وسال العرق على وجهه من تحت طربوشه الاحمر . وكان يجلس بجواره ابن عم له ، وقد انهمك بوشم صدر بغي ذكر رائع المنظر أرخى خصلات شعره المعقصة المدهونة بالزيت فتدلت على ظهره ، وكحل عينيه وصبغ شفتيه . وبالقرب منه اقيم لوح من الزجاج اللامع رسمت عليه مجموعة منتقاة من الرسوم ليختار الزبائن منها الرسم الذي يريدون - كانت عليه رسوم هندسية خاصة بالمسلمين ، او آيات من الذكر الحكيم ، او كلمات نذر معين ، او مجرد اسماء محبوبة . وكان الواشم يملأ الثقوب في جلد الزبون لمسة بعد لمسة ، كأنه أستاذ في شغل الابرة ، ويبتسم بين الفينة والفينة كأنه يبتسم لنكتة شخصية خاصة ، وهو يتم الصورة ، بينما اندفع المعلم الهرم يهدر بالقرب منه « تقدموا ، تقدموا ايها المؤمنون . »

ومال نروز فوق الواشم وقال بصوت ابح : « هل المجذوب هنا الليلة ؟ » ورفع الرجل عينيه الدهشتين وتوقف عن العمل وقال : « نعم على ما اعتقد ، بالقرب من الاضرحة . »

وشكره نروز واستدار مرة اخرى نحو الاكشاك المزدحمة ، متخيراً طريقه بعشوائية بين الدروب الضيقة ، الى أن بلغ الأرض المظلمة خارج نطاق النور .

وفي مكان ما في الظلام امامه ، بين مجموعة من المزارات المهجورة التي يظللها النخيل الحاني ، رأى المجذوب الشهير بقامته المنتصبة النحيلة الموحية بالرهبة وهو يطلق اضواء خاطفة من شخصيته المغناطيسية الصاعقة الى جماعة مفتونة خائفة.

واخذ نروز يرتعد ايضاً اذ حملق بذلك الوجه الذي عاث فيه الدهر ، وقد صبغت اجفانه بالالوان حتى بانت عيناه واسعتين غير انسانيتين ، كعيني وحش غريب في صورة . وكان الولي الآن يقذف بالأيمان واللعنات الى حلقة المستمعين حوله ، اصابعه تنبسط وتنقبض كالمخالب ، وقد راح يرقص هنا وهناك كدبّ متحفز ، ويلف ويدور ، ويتقدم نحو الجماعة ويتأخر ، وهو يشخر ويرعد ويرغي ويزبد ، حتى اخذت الجماعة ترتجف امامه وقد خلبتها قواه وطغت عليها : كان قد حلت به « الساعة » كما يقول العرب ، وتلبّسته الارواح .

ووقف الولي في جزيرة من الاجسام المنهارة على الأرض وقد سحرها بمغناطيسية شخصيته ، بعضها على الأرض يدب كالعقارب ، وبعضها الآخر يصرخ ويثغو ، وبعضها ينهق . ومن وقت الى آخر يقفز الولي على احد هذه الأجسام المنطرحة وهو يطلق صرخات هائلة ، ويركبه ويسير به في الحلقة وهو يجلد اليتيه كالمصروع ، ثم يلتفت على حين فجأة والزبد يتطاير من بين شفتيه ، ويهجم على الجماعة ويختار من بينها ضحية منكودة ثم يصرخ بالرجل الذي اختاره « أتهزأ بي ؟ » ويمسك به من انفه او اذنه او ذراعه ، ويجذبه بقوة خارقة الى الحلقة حيث « يعمي قلبه » بحركة فجائية سريعة من اظافره الطويلة ، ثم يرمي به الى الأرض بين الضحايا الزاحفين على الرمال حول قدميه ، ويتركه هنا وهو يطلق الصرخات الحادة مسترحماً . غير ان صرخاته كانت تضيع ويغرقها نهيق اولئك الذين وقعوا تحت تأثير سحر المجذوب ونعيقهم : كان المرء يستطيع ان يشعر بقوة شخصيته تشع في الجماعة المتوترة الاعصاب كأنها شرارات من سندان .

وجلس نروز في الظلام خارج الحلقة على احد الاضرحة ليرقب المشهد . و صاح المجذوب « ايها الشياطين غير المتطهرين » وهو يدفع باظافره الى الامام

فتراجع حلقة المستمعين امام هذا الهجوم . « انت ، وانت ، وانت ، وانت » وصوته يتعالى في هدير مريع . كان لا يخاف احداً ولا يحترم احداً عندما تحل به « الساعة » .

وشاهد نروز شيخاً وقوراً معتماً بعمامة خضراء تعلن عن انتسابه الى آل البيت ، يسير خارج نطاق الجماعة ؛ وابصره المجذوب ايضاً ، فاندفع كلمح البصر بين الجماعة وثيابه تكاد تطير عن جسمه حتى وصل الى الشيخ وهو يصيح : « انه غير طاهر » . والتفت الشيخ الى متهمه بعينين غاضبتين وبدأ يحتج ، غير ان المجذوب قرّب وجهه منه وغرز تينك العينين الفظيعتين في عينيه . وعلى حين فجأة همد الشيخ وراح رأسه يتذبذب على كتفيه ، وبصرخة مدوّية رماه المجذوب أرضاً على يديه ورجليه وهو ينخر كخنزير برّي وجرّه من عمامته ليقذف به بين الآخرين . وصاحت الجماعة « يكفي ! » وقد ثاروا على هذه الاستهانة برجل دين ، ولكن المجذوب انقلب راجعاً إليهم واصابعه ترتجف : « من قال يكفي ؟ من قال يكفي ؟ »

ونهض الشيخ الآن ، اطاعة لاوامر هذا المتصوف ـ هذا الكابوس الفظيع ، واخذ يرقص رقصاً شعائرياً ويصيح بانغام حادة كأصوات العصافير « الله ـ الله » وراح يخطو خطوات مرتجفة حول الاجسام المتمددة ، وصوته ينقطع في صرخات خانقة اشبه بصرخات حيوان يموت . وصاحت الجماعة « كفّ ايها المجذوب » . فأدّى الساحر بعض الاشارات العسراء ودفع الشيخ خارج الحلقة وهو يهيل عليه اللعنات المريعة .

وترنح الشيخ ثم عاد الى طبيعته . كان الآن قد افاق ولم يبد ان التجربة قد ازعجته . وبينما كان يعدل عمامته ويمسح قفطانه اقترب منه نروز وحيّاه ، ثم سأله عن اسم المجذوب ، ولكن الشيخ لم يكن يعرفه ، بل اكتفى بقوله : « إنه رجل طيب جداً ، رجل متدين ، لقد عاش في الصحراء وحده سنين طويلة » وسار مترصناً الى حيث الاضواء . وعاد نروز الى الضريح وهو يتأمل في جمال المشاهد المحدقة به ، ويتحين الفرصة للاقتراب من المجذوب الذي

كانت صرخاته الحيوانية الآن لم تزل تدوّي في الليل ، مخترقة ضجيج المهرجان الخافت وهمهمة رجال الدين المتصاعدة من مزار قريب . ولم يكن قد قسرّ رأيه بعد على خطة واضحة يتبعها مع المجذوب ، بطل الظلام الغريب . وانتظر وهو مستغرق في التفكير .

وكان الوقت متأخراً عندما انهى المجذوب تمثيليته ، واطلق عقال الحيوانات السجينة حول قدميه . ثم صفّق بيديه مبعداً الجماعة — كأنهم سربٌ من الأوزّ ، ووقف ، وظلّ مدة قصيرة يصرخ مهيلاً اللعنات عليهم ، ثم استدار فجأة على عقبيه وسار في اتجاه الاضرحة . وفكر نروز في نفسه « يجب ان اكون حذراً فلا اقع تحت تأثير عينيه » . وكان قد صمم على استخدام القوة معه . ولم يكن معه سوى خنجر صغير فأخرجه الآن من غمده وبدأ يتبع المجذوب ببطء وتصميم .

وسار الوليّ ببطء كأنما قد اثقلت كاهله مشاغل لا تحصى تفوق طاقة الانسان . كان لم يزل يئن ويتنهد ، وسقط مرة على ركبتيه وزحف على الأرض مسافة خطوات قليلة وهو يتمتم . وراقب نروز هذا كله بتيقّظ ورأسه مائل الى جنبه كأنه كلب صيد متحفز : وسارا حول المهرجان في عتمة ذلك الليل الحار الى ان وصل المجذوب الى جدار من الطوب طويل متداع يفصل بين حديقتين مهجورتين في كل منهما بيت خال . وكانت اصوات المهرجان قد تضاءلت الآن فأصبحت دمدمة خافتة لا يخترقها الا صوت محرك بخاري يرسل صفيره من مكان قريب . وسارا الآن في رقعة مظلمة عاجزين عن ان يسبرا لسبب المسافات كجوّابين في صحراء مجهولة . ولكن المجذوب اعتدل في سيره الآن وانتصبت قامته وحثّ خطواته بلهفة ثعلبٍ اقترب من ارضه . ثم عرّج اخيراً على ساحة كبيرة مهجورة ودخلها من فجوة في جدار الطوب . وخاف نروز ان يفقد اثره بين هذه المساكن الخربة المنتشرة هنا وهناك ، وبين القبور التي كساها الغبار . غير انه ما لبث ان وجده قابعاً في احدى الزوايا — وقد ضخّم الظلام حجمه وضاعفه . وناداه برقة « يا مجذوب ، احمد الله » . وعلى حين فجأة انقلب خوف نروز الى فرح غامر وحشي كعادته دائماً عندما يهم بعمل .

من اعمال العنف ، واقترب منه معرّضاً نفسه الى سيطرة جاذبيته الهائلة وقوته الخارقة ، وهو يسحب خنجره شيئاً فشيئاً من غمده .

وتراجع المجذوب خطوة ثم خطوتين ، وفجأة وجدا نفسيهما في رقعة من الضوء الذي اخترق الظلام منبعثاً من مصباح في الشارع ، فأخرجهما من الظلمة الى حيوية الواقع ، وكلل رأسيهما بهالة من الضوء . ورفع المجذوب ذراعيه كما يفعل الغوّاص وقد عراه الشك او الخوف ، ثم ركزهما على عارضة خشبية مهترئة لا بد انها كانت في زمن منسي قد ركزت في حائط حظيرة لدعم الطوب الذي تُبنى به الجدران . ثم استدار المجذوب وضم يديه ، ولعله اراد ان يصلي ، وعندها قام نروز بعملين معاً في نفس الوقت فأدّاهما بدقة مدروسة . فبيده اليمنى غرز الخنجر في العارضة مخترقاً به ردني الثوب الخشن الذي يلبسه المجذوب حتى التصقت ذراع المجذوب بالعارضة ، وبيده اليسرى امسك بلحية الرجل كما يمسك الانسان بحية الكوبرا من رأسها ليمنعها من الهجوم عليه . واخيراً وبحركة غريزية دفع برأسه الى الامام ومط شفته المشرومة الى اقصى ما يمكن ، (فان العاهة الجسدية ايضاً تمنح قوى سحرية في الشرق) واخذ يهس بصوته وهمس قائلاً « يا حبيب للنبي » .

وبقيا واقفين على هذه الحال برهة ، كأنهما تمثالان من الطوب او البرونز يمثلان فعلاً منسياً ، واسترجع سكون الليل حولهما ابعاده النابضة مرة اخرى ، وتنفس المجذوب متثاقلاً على نفسه . وكأنه يشكو أمراً ولكنه لم يقل شيئاً ، واذ حملق نروز الآن في تينك العينين الفظيعتين اللتين رآهما في تلك الليلة تشتعلان كجمرتين ، لم يستطع ان يرى فيهما اية قوة ؛ فتحت خطوط الالوان كانتا خاليتين من التعبير ومن اللمعان ، وكان بؤبؤاهما خاليين من المعنى ، اجوفين وميتين ، فكأنه في هذه الساحة المهجورة يواجه رجلاً ميتاً ، رجلاً يكاد يقع بين ذراعيه ويلفظ انفاسه الاخيرة .

ولما تأكد لدى نروز أن الحالة الخارقة التي تعتري المجذوب عندما تحل به الساعة قد فارقته ، وبأنه لم يعد فيه ما يخشاه ، غمرت نفسه موجة من الحزن ـــ

حزن لا يخلو من معاني الاعتذار . فلقد كان باستطاعته ان يقدّر قدسية الرجل ، والقوة الدينية التي كان يلجأ منها المجذوب الى الجنون ، واندفعت الدموع الى عينيه وترك لحية الرجل ليفرك شعره المُشعث بيده ويهمس بصوت مليء بدموع المحبة : «آه ! يا حبيب النبي ! آه ! ايها الحكيم ، ايها الحبيب » — فكأنّه يدلل حيواناً — كأن المجذوب قد حوّل نفسه بقوة سحرية الى كلب صيد محبوب . وداعب نروز شعر المجذوب واذنيه وهو يردد تلك الكلمات بنفس الصوت السحري الخافت الذي يخاطب به حيواناته الاثيرة . واستدارت عينا الساحر في محجريهما وتركزتا عليه ثم دمعتا ، كعيني صبي ثارت فيه فجأة مشاعر الشفقة على الذات . وصعّد زفرة واحدة من اعماق قلبه . وركع على الأرض اليابسة ويداه ما زالتا مصلوبتين الى الحائط . واحنى نروز رأسه وركع معه وهو يهدئه بكلمات مبحوحة مبهمة . ولم يكن يصطنع ذلك اصطناعاً — فقد اعترته سورة اجلال مشبوبة لذلك الرجل الذي بحث عن حقائق الدين النهائية تحت قناع الجنون .

ولكن جزءاً آخر من عقله كان لم يزل مشغولاً بالمشكلة الاصلية التي جاء من اجلها ، فقال الآن ، لا بصوت الصياد الحنون عندما يغري حيواناً اثيراً ، بل بلهجة رجل يحمل خنجراً : « والآن ستقول لي ما اريد ان اعرف ، أليس كذلك ؟ » كان رأس الساحر لم يزل يتأرجح وقد أثقله التعب ، ورفع عينيه كمن حل عليه ارهاقٌ يشبه الموت . وقال نروز بصوت ابحّ : « تكلم » وقفز بسرعة ليستعيد خنجره ثم ركع قربه ويده ممسكة برقبته والقى عليه سؤاله منتظراً منه الجواب .

وأنّ الرجل قائلاً : « انهم لم يصدقوني . لقد رأيتها بقدرتي الخاصة فقط ، وقد قلت لهم ذلك مرتين . انني لم أمسّ الطفلة . » ثم صرخ وكأنما قد عادت فجأة الى صوته ونظراته كل قوته المفقودة : « هل اريك انت ايضاً ؟ اتود ان ترى ؟ » — ولكن الارهاق عاوده مرة ثانية . وصرخ نروز « نعم » ، وهو يرتجف الآن من الاثارة التي بعثها هذا اللقاء في نفسه . « نعم ، أرني » . كان

يشعر كأن تياراً كهربائياً يسري في ساقيه ويجعلهما ترتجفان .

وبدأ المجذوب يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وتدلّى رأسه على صدره وراح يتأرجح مع كل نفس من انفاسه . وكانت عيناه مغمضتين كأنّك ترقب آلة تُمِد نفسها بشحنات من الكهرباء . ثم فتح عينيه وقال : « انظر في الارض . »

ورسم بسبابته دائرة في التراب وهو راكع على تلك الارض اليابسة المحروقة ، ثم مهّد الرمل بكف يده . وهمس وهو يلمس التراب ببطء وتصميم : « هنا حيث يقع الضوء » ، ثم « انظر بعينيك الى وجه الأرض » ، واشار باصبعه الى نقطة معيّنة « هنا » .

وركع نروز مطيعاً ، ثم قال بعد لحظة : « انني لا أرى شيئاً . » ونفث المجذوب زفرات طويلة متلاحقة والح عليه « فكّر وصمم على ان ترى في الأرض » واخترقت نظرات نروز التراب في النقطة التي اشار اليها اصبع الساحر ، وركز عقله في الامر وسكب فيه جميع قواه الفكرية . وبعد برهة من السكون قال اخيراً : « انني ارى » . فقد رأى فجأة وبوضوح جانباً من البحيرة الكبيرة بقنواتها الشبيهة بالشباك الموصولة ، ورأى البيت القديم الذي يظلله النخيل بقرميده الحائل اللون ، حيث عاشت جوستين يوماً مع ارناوُوطي — وحيث بدأ ارناوُوطي في كتابة كتابه Moeurs وحيث الطفلة ... وقال اخيراً : « انني اراها » . وقال المجذوب « آه ، انظر جيداً » .

وشعر نروز كأن الضباب المتصاعد من مياه القنوات قد خدّره . وتابع كلامه : « انها تلعب بالقرب من النهر . لقد سقطت ! » كان يستطيع ان يسمع صوت تنفس المجذوب العميق . « ليس بقربها احد . انها وحدها ، مرتدية ثوباً ازرق وفيه دبوس على شكل فراشة . » ومضت فترة سكون طويلة ، ثم أنّ الساحر انيناً ناعماً قبل ان يجيب بصوت اجش اشبه بالخرير : « لقد رأيت المكان عينه . ان الله قوي جبار ، وقدرتي مستمدة منه » . وتناول حفنة من التراب وفرك به جبينه بينما كانت الرؤيا تتلاشى .

وقام نروز وقد تأثر تأثراً عميقاً بهذه القوى الخارقة . وقبّل المجذوب

وعانقه ، ولم يراوده ادنى شك في صدق المعلومات التي اكتسبها من هذه الرؤيا . ونهض واقفاً ونفض نفسه كما تنفض الكلاب نفسها وتبادل والمجذوب همساً تحية الوداع ، ثم تركه قابعاً في مكانه على الارض ، وقد حطّ به الارهاق والعياء ، ووجّه خطواته مرة اخرى نحو اضواء المهرجان . وكان جسمه ، بعد هذه التجربة ، يرتجف ويرتعش ، كأنّ آلاف الابر والدبابيس تخزه — كأن تياراً كهربائياً يسري في حقويه واليتيه . وادرك الآن انه قد عانى خوفاً شديداً لم يدركه في أوانه ؛ وتثاءب وارتجف في سيره وضرب بذراعيه على ساقيه ليدفئهما — فكأنه يود أن ينشط دورةً دموية متبلّدة .

كان عليه ، لكي يصل الى بيت النجّار حيث ربط حصانه ، ان يخترق الجهة الشرقية من ساحة المهرجان ، والضجة لم تزل تنبعث من المتحلّقين حول الاراجيح ، بالرغم من تأخر الوقت ، والاضواء لم تزل تسطع . وكانت قد نشطت الآن حركة البغايا : سوداوات وبرونزّيات وشقراوات ، اولئك الباحثات الدائبات عن نقود الرجال المسفوحة على الشهوات ؛ اجساد من كل لون ، عاجي وذهبي واسود . سودانيات وردّيات اللثث ، زرقاوات الالسنة ؛ مصريات شمعيات البشرة ؛ شركسيات شقراوات الشعور ، زرقاوات العيون ؛ زنجيـــات ، ذوات جلود زرقاء داكنـــة ، ورائحة كدخان الخشب . لحمٌ من كل نوع ، لحم عتيق مترجرج يكسو عظاماً عتيقة هرمة ، ولحم آخر لم يرو غليله بعد ، لحم نساء وصبية ارهقتهم رغبات عزّ إطفاؤها الا في التمثيليات ، أما في الحياة فلا تعرف الارتواء . انها رغبات ولدت في غابات الصقل وانتمت الى جذور سحيقة ، ولم تكن بنت اللحظة الحاضرة وحدها . فإن الشهوة تنتمي الى البذرة الاصلية ، ومنبعها ابعد من سطح النفس .

كان ليل الاسكندرية الحار يتوهج كالمشعل ، ويغمر اقدام الحفاة السمراء ، ويغمر قلوبهم وعقولهم التي تحجرت معتقداتها فتعذّر اصلاحها . وشعر نروز كأنه خفيف كزنبقة عائمة في نهر ، وقد احدقت به من كل جانب هذه المشاهد الخلابة والهياج المجنون . ولكنه بالرغم من هذا ، ظل يتفحص اعماقه الهادئة

ويستوحيها وهو في طريقه الى قلب ذلك الحشد الكبير .

واتفق له الآن ان رأى ، وهو ينظر حوله بلا مبالاة ، مشهداً قصيراً يمثل امام ناظريه — مشهداً لم يفهم معناه يتعلق بشخص لم يره من قبل ولم يكن ليلتقي به الا على صفحات هذا الكتاب — سكوبي .

فإذ سار نروز قدماً في اتجاه الاكشاك التي يختن فيها الصبية ، لاحظ شيئاً من الشغب حولها . وكانت جدرانها الواهية المؤلفة من الخيش والورق ، برسومها الفظيعة الغريبة ، ترتجف وتهتز ، وكانت الأصوات تنبح وتزعق ، والحزمات ذات المسامير الغليظة تقعقع على الارض المفروشة بالخيش ؛ ثم رأى نروز شيخاً يندفع متعثراً من بين هذه الجدران الواهية فيغمره الضوء الابيض وهو يحمل طفلاً ملفوفاً في بطانية وقد ارتدى بزة ضابط مصري ، وساقاه الضعيفتان ترتجفان تحت ثقله . ووراءه تركض جماعة من المصريين وهم يصرخون ويهدرون كالكلاب المتوحشة الوجلة . واندفعت هذه الجماعة في غارة يائسة الى حيث نروز . كان الشيخ ذو البزّة العسكرية يصرخ بصوت ضعيف ، ولكن كلماته ضاعت في الضجة . ورآه نروز يتعثر على الدرب الى عربة خيل عتيقة ركب فيها ، فتحركت حالاً تخب خبباً عنيفاً ، وفي اعقابها وابل من الحجارة والشتائم . ذلك كان هو المشهد كله .

واذ وقف نروز يراقب هذا المشهد الذي اثار فضوله ، تناهى الى سمعه صوت منطلق من قربه — صوت ، لم تكن حلاوته وغناه لينتميا الا الى شخص واحد فقط — كليا . فكأن شيئاً طعنه فجأة ، فشهق بحدة وألم وضم يديه بحركة فجائية تعبر عن خنوع طفولي . كان الصوت صوت المرأة التي أحب ؛ ولكنه كان ينبعث من امرأة غاية في البشاعة تجثم في الظل الخفيف ، وقد اكتنزت طيات جسمها بالشحم . كانت تجلس على كرسي ذي ثلاث ارجل وضعته امام كوخها الواهي ، وكانت تأكل كعكة من السمسم فتبدو اشبه بدودة هائلة تقرض خسّة . ولكنها كانت تتكلم بنبرات كليا نفسها .

وتوجّه نروز نحوها حالاً وهو يقول بصوت خافت يحمل الكثير من

معاني الاغراء : « يا أمي ، حدثيني . » ومرة ثانية سمع تلك الانغام ذات الايقاعات المثيرة الرائعة تنطلق بعبارات التدليل والتحبب والتودد الذليلة لكي تجذبه نحو غرفة التعذيب الصغيرة : (بيتيسوكوس ، الالهة التمساح ، ليس إلاّ)

وعميت بصيرته عن كل شيء الا عن ايقاعات الصوت وانغامه . فتبعها كانسان مدمن ، ووقف في الغرفة المعتمة وعيناه مغمضتان ويداه على ثدييها الكبيرين المهتزّين ، كأنما يود أن يعب في عبة واحدة منعشة موسيقى كلمات الحب التي كانت تخرج ببطء من شفتيها . وبحرارة اشبه بالحمى راح يسعى وراء فمها . كأنما يود أن يمتص خيال كليا نفسه من انفاسها — تلك الانفاس الفائحة برائحة السمسم . كان يرتجف هياجاً — وقد انتابه ذلك الشعور الخطر الذي يشعر به من كان على وشك ان يدنس مكاناً مقدساً باثم لا يستطيع مقاومته ، اثم ومض معناه كالبرق بجمال فظيع منبثق من ذاته . (ان افروديت تسمح بكل تزاوج بين العقل والاحساس في الحب) .

وخلع ثيابه وضمّها اليه ثم اندفع بها ، بتلك الدمية الكبيرة من اللحم ، ببطء الى الفراش القذر وهو يحاول أن يحصل من جسدها ، بيديه القويتين ، على الاستجابات المتخيلة التي كان يتمنى لو ينالها من امرأة اخرى محبوبة ، وهمس بصوت ابح : « تكلمي يا امي . تكلمي بينما اقوم بفعلتي . تكلمي » ، كان يعتصر من هذا الشكل الشبيه بالدودة الضخمة صورة نادرة رائعة ، صورة جمال كليا . آه ، ما اروع أن يستلقي هناك أخيراً وقد اعتُصر اعتصاراً ، كأنبوب دهان قديم ، بين اطلال الرغبات التي لا ترتبط بعهود ولا مواثيق : وهو نفسه ، الرجل ، قد ارتمى اخيراً في عزلة حلم شخصي متقلب كالطفولة ومؤثر مثلها تأثيراً يحطم القلب : كليا !

ولكنه قوطع ، نعم : فالآن اذ اقرأ عن هذه المشاهد في تعليقات بالثازار تستعيد ذاكرتي شيئاً نسيتُه ، ذكريات عن كشك قذر وامرأة ورجل نائمين معاً في سرير ، وأنا واقف ، نصف سكران ، ارقبهما وانتظر دوري : لقد صفت المشهد جميعه في مكان آخر — الا اني ظننت عندئذ ان الرجل كان

منمجيان : اما الآن فإني اعتقد انه كان نروز : « لقد بقيا هناك كضحيتين من ضحايا حادث فظيع ، مندمجين اندماجاً لا رشاقة فيه ، كأنهما كانا يمثلان ، في هذه التجربة المفككة ، اول شريكين في تاريخ الجنس البشري فكّرا بهذه الوسيلة الخاصة من الاتصال : » وهذه المرأة التي نامت بين يدي نروز ، « بخصلات شعرها السوداء المواّجة المترجرجة » امن الممكن ان تتبيّن كليا نفسها في هذه الصورة المجسمة لها ، المنسوجة من جسد مشترىً ؟ وجوستين ؟ أتراها هي ايضاً تعجز عن ذلك ؟ كان نروز يحب جمال كليا من هذا الجسد الهرم الذي استأجره للمتعة ، تماماً كما وددت أنا ان أحب جمال جوستين : ومرة ثانية ارى « وجه افروديت البدائي اللامبالي الصارم . »

نعم ، ولكن من الممكن اطفاء الظمأ بهذه الوسيلة ، بدعوة شيطانة للجنس الى فراشنا . ولقد جال نروز بعد ذلك في الظلام ، متراخياً مشتت الفكر كرجل مجنون ، وقد افعمه شعور الارتياح حتى كاد ينوء به . وشعر بميل الى الغناء : فيقيناً انه ان لم يكن قد نسي كليا تمام النسيان في هذه اللحظة ، فإن تجربته هذه قد خلّصته من طيفها وانقذته من سيطرتها الطاغية عليه — ولا شك انه كانت الآن على قدر من الشجاعة يمكنه من كرهها . هذا هو التناقض الاصيل الذي يراه الانسان في الحب « الحقيقي » .

وعاد ببطء في طرق متعرجة ، الى بيت صديقه النجار ليأخذ حصانه ، وايقظ العائلة ليؤكد لهم بأن الصوت في الاصطبل في تلك الساعة لم يكن ناجماً عن محاولة احد اللصوص السرقة .

وركب حصانه وعاد الى املاكه وهو اسعد انسان في الوجود . ولما وصل الى البيت الريفي كانت خيوط الفجر تتسلق السماء ؛ ولما لم يجد احداً هناك التف في عباءته واستراح على الشرفة حتى توقظه اشعة الشمس . كان يريد ان يدلي الى اخيه بالانباء .

واصغى نسيم بهدوء في صباح اليوم التالي الى أخبار أخيه ، وهو يتعجب كيف ان القلب الانساني لا يحدث صوتاً عندما تنزف منه الدماء قطرة فقطرة—

لقد رأى في هذه المعلومات عقبة تحول دون الثقة التي كان يرجو إنماءها في قلب زوجته تجاهه. قال نروز: « انني لا اعتقد اننا نستطيع ان نجد جثة الطفلة بعد مضيّ كل هذا الوقت ولكني سوف ابحث مع فرج عن المكان ونستعين ببعض الخطّافات ـ فلا ضرر في المحاولة. هل افعل؟ » كانت كتفا نسيم قد تقلصتا. وتوقف اخوه عن الكلام برهة ثم تابع حديثه بنفس اللهجة الرصينة: « لم اكن اعرف اوصاف ثياب الطفلة. ولكني سأصف ما رأيت في الأرض. كانت ترتدي ثوباً ازرق وفيه دبوس على شكل الفراشة. » فأجاب نسيم برما: « هذا صحيح. كانت هذه هي الاوصاف التي اعطتها جوستين للمحققين: انني اذكر الاوصاف حسناً يا نروز... ماذا يمكنني ان اقول؟ انها صحيحة واودّ ان اشكرك. اما عن البحث في النهر فقد قام رجال شرطة التحقيق بذلك عشر مرات على الأقل. نعم، وبلا نتيجة. ان هناك انقطاعاً في مجرى القناة وتياراً سفلياً قوياً ».

فقال نروز وقد شعر بالخيبة: « لقد فهمت. »

« انه من الصعب ان يعرف المرء صحة هذا كله. » ولكن صوت نسيم الآن اكتسى حدة اذ اضاف قائلاً: « ولكن هناك شيئاً واحداً اود منك ان تعدني به. يجب ان لا تعرف هي الحقيقة من شفتيك، عدني »

وقال اخوه « انني اعدك بذلك. » واستدار نسيم من التلفون الموضوع في البهو ليجد نفسه وجهاً لوجه مع زوجته. كان وجهها شاحباً وراحت عيناها الواسعتان تبحثان في عينيه بريبة وفضول. وقال نسيم لاخيه: « يجب ان اذهب الآن. » ووضع السماعة ثم استدار ليواجهها وليأخذ يديها بيديه. انني اتخيلهما دائماً على هذا الوضع، يحملق الواحد منهما في عيني الآخر وقد تشابكت ايديهما، ووقفا قريبين كل القرب، بعيدين كل البعد. ان التلفون رمز حديث للاتصالات التي لا تتم ابداً.

* * *

٨

« لقد حدثتك عن موت سكوبي (هكذا يكتب بالثازار) ولكني لم اخبرك بالتفصيل عن الطريقة التي مات بها . انني شخصياً لم اكن اعرفه جيداً ، ولكني كنت اعرف شعورك الودي نحوه . لقد شغلتني بمحض الصدفة حادثة موته وعكرت صفوي ، لاني كنت في ذلك المساء اتعشى مع نمرود مدير البوليس ورئيس سكوبي نفسه .

« هل تذكر نمرود ؟ حسناً ، كنا آنذاك نتنافس لنيل ود ممثل شاب ساحر الشخصية من اثينا يحمل اسماً لطيفاً هو سقراط ميتاكاكيس ، ولما كان التنافس لنيل وده خليقاً بأن يبعث فينا شعوراً سيئاً الواحد تجاه الآخر لم يكن من مصلحتنا على المستوى الرسمي ، ان نغذيه (انني اعمل مستشاراً طبياً لدائرته) . ولذا فقد حكمنا العقل وقررنا ان ندفن غيرتنا وان نشترك بصراحة في حب الشاب – كما يليق بكل اسكندراني اصيل . ولذا فقد كنا نتعشى معاً نحن الثلاثة في « الاوبيرج بلو » وقد جلس الشاب بيننا كأنه حشوة من اللحمة في ساندويش . ويجب ان اعترف باني كنت ارجح كفة من نمرود لرداءة يونانيته ، غير ان روح العقل والرزانة كانت مهيمنة علينا . كان الممثل يشرب الشمبانيا طول

المساء — كان كما شرح لنا يستجم بهذه الطريقة من مرض مضن — و لكنه النهاية رفض ان تكون له علاقة مع أي منا ، وظهر انه عاشق موله بفتاة ارمنية ذات شاربين كثيفين تعمل في عيادتي: وهكذا فان كل هذه الجهود ذهبت هباء — ويجب ان أقول هنا بان نمرود شعر بالمرارة بصورة خاصة لانه هو الذي اضطر الى دفع ثمن ذلك العشاء الفخم. حسناً ، كنت اقول اننا كنا هناك نحن الثلاثة عندما دعي نمرود الى التلفون.

« وعاد بعد برهة وقد بدا متجهماً بعض الشيء وقال : (لقد كانت المخابرة من نقطة بوليس الميناء . يظهر ان بحارة الباخرة اليونانية « ميلتون » قد رفسوا رجلاً متقدماً في السن بالنعال الى ان مات . ان عندي من الاسباب ما يحملني على الاعتقاد بانه قد يكون احد الشذاذ في فرع Q — هناك بمباشي شيخ موظف فيه ...) ووقف على رجل واحدة وقد بان عليه التردد وتابع قوله :) على كل حال يجب ان اذهب الى هناك واتأكد من الامر . فالانسان لا يعرف كيف تؤول الامور . ويظهر انه كان مرتدياً ثياب امرأة ؛ وقد تحدث فضيحة .)

« مسكين نمرود ! كنت استطيع ان ارى انه بين نارين ، فقد كان واجبه يدفعه بقوة الى تأديته ، ولكنه كان يكره ان يتركني وحدي مع الممثل ، ولذا فقد تردد ووزن الأمر طويلاً في عقله . غير ان طبيعتي الارقى تغلبت علي، واسعفتني اخيراً بعد ان بدأت ايأس منها . فنهضت انا ايضاً بدوري . روح رياضية لا تموت ! وقلت (من الأفضل ان اجيء أنا ايضاً) . وابتسم المسكين وشكر لي بحرارة هذه البادرة . وتركنا الشاب يأكل السمك (هذه المرة للارهاق العقلي) واسرعنا الى موقف السيارات حيث كانت سيارة نمرود الرسمية تنتظره . وبسرعة قطعنا الكورنيش ثم انعطفنا الى منطقة احواض السفن بظلمتها المليئة بالاصداء وازقتها المرصوفة بالحجارة وبأضواء الغاز المتذبذبة على طول رصيف المرفأ ، حتى بدت اشبه بزاوية من مرسيليا حوالي سنة ١٨٥٠ ؛ لقد كنت دائماً اكره المكان بروائحة المثقلة برطوبة البحر والمباول والسمسم ؛

كان مركز البوليس عبارة عن بناية حمراء مستديرة اشبه بمركز العهد الفيكتوري ، يتألف من غرفة صغيرة لتسيير الاعمال ومن غرفتي سجن معتمتين فظيعتين خانقتين . كانتا مزدحمتين برجال الشرطة يثرثرون وقد كدهم العرق وبان بياض أعينهم الفزعة كأنهم خيول في الظلام . وعلى مقعد حجري طويل في احدى الغرفتين تمدد جسم ضعيف هرم لامرأة متقدمة في السن وقد ارتفعت تنورة ثوبها حتى الخصر فكشفت عن ساقين غطيا بجاربين اخضرين تعلقا بحمالة للجوارب . وقد انتعلت المرأة جزمة بحرية سوداء . كان التيار الكهربائي مقطوعاً والغرفة مضاءة بشمعة يرتجف لهبها على الاسكفّه فوق الجثة . وقد راحت قطرات الشمع تتساقط على يد الجثة المعروقة التي يتسرب إليها تصلب الموت – فكأنها يد انسان يحاول ان يدفع عنه ضربة وُجّهت اليه على المسرح – كان هذا صديقك سكوبي .

وسرعان ما ظهر لي انه قد رُفس حتى الموت باسلوب بشع . فقد تكسرت عظامه تحت جلده الهرم كما يتكسّر الفخّار . واذ كنت افحصه رن جرس التلفون رنيناً ملحّاً في الغرفة المجاورة ، كان كيتس قد اشم رائحة شيء ما . وكان يحاول ان يكتشف مكان الحادث . وادركنا انه لن يمضي وقت طويل حتى تقف سيارة السيتروين خارج المكان ، ثم تنبثق بعد هذه الزيارة فضيحة صحفية كبيرة . واستولى الخوف على نمرود . فهمس يقول : (يجب ان تُنزع عنه هذه الثياب) وبدأ يضرب بعصاه يميناً وشمالاً دافعاً برجال البوليس خارجاً الى الممر ليخلي الغرفة . قلت « حسناً » وبينما وقف نمرود مشيحاً بوجهه الراشح عرقاً ، عريت الجثة من ثيابها . ولم يكن ذلك عملاً ترتاح إليه النفس ولكن الشيخ الخليع تمدد اخيراً « عارياً كمزمور » كما يقولون في اليونانية – كانت هذه هي المرحلة الاولى . وجففنا العرق عن وجهينا – فالغرفة الصغيرة كانت حارة كالفرن .

« وقال نمرود بعصبية هستيرية : (يجب ان يلبس البزة الرسمية قبل ان يصل كيتس متطفلاً علينا . اني اقترح ان نذهب الى مسكنه ونحضرها . فأنا

اعرف مكان اقامته). وهكذا فقد اقفلنا باب الغرفة بالمزلاج على الشيخ : كانت عينه الزجاجية المهشمة تشيع في وجهه معاني التعب والحزن كأنما الشيخ قد تعرّض لفن هاوٍ في التحنيط . على كل ، لقد قفزنا الى السيارة وطارت بنا تنهب الأرض نهباً ، الى ان وصلنا الى شارع التتويج ؛ وفي تلك الاثناء كان نمرود يتفحص محتويات حقيبة اليد الجلدية اللطيفة التي كان الشيخ يحملها في مغامرته . وقد وجد فيها بعض النقود المعدنية ، وكتاب صلاة صغيراً وبطاقة ورزمة من ورق لــف السجائر (يكاد يكون الورق نقوداً اليوم) كان هذا كل ما حوته الحقيبة . وكان نمرود يردد طول الوقت (الشيخ المأفون ، الشيخ المأفون) .

« ودهشنا اذ وجدنا ان الفوضى كانت تعم مسكن الشيخ ، فبطريقة غريبة يتعذر تفسيرها كان الحي قد سمع بنبأ موته . هذا على الاقل ما قدرته انا . كانت جميع ابواب غرفه قد فتحت عنوة ، وجميع خزائنه قد نهبت . وفي مكــان اشبه بالمرحاض رأينا مغطساً مليئاً بنوع من الخمر ذي رائحة شبيهة برائحة العرق ؛ وكان ظاهراً ان اهل الحي قد شربوا منه بلا حساب . فقد كانت على الدرج آثار اقدام مبتلة لا تحصى ، وكذلك آثار ايد مبتلة على الجدران . وكان صحن الدرج غارقاً في السائل . وفي الساحة رأينا بواباً يرقص حول عصاه ويغني — وهو مشهد يندر ان يراه الانسان . ولا شك ان الحي جميعه بدا كأنه يتمتع بجو من المرح الخسيس . كان المشهد غريباً كل الغرابة . ومع ان اغلب مقتنيات سكوبي قد سرقت فان بزته الرسمية كانت سليمة ومعلقة خلف الباب ، فاختطفناها في الحال . وبينا نحن نفعل ذلك فوجئنا بما ارعبنا رعباً شديداً ، فقد انطلق صوت ببغاء خضراء في قفص في زاوية الغرفة واقسم نمرود على انه تقليد ممتاز لصوت سكوبي . كان الصوت يردد هذين البيتين

« ولو جاء الناس من زوايا العالم الاربع مدجّجين بالسلاح
فسوف نفزعهم
اعتمد على يوشع سكوبي ليفزعهم ! »

«كان واضحاً ان الببغاء كان سكران ايضاً . فقد بدا صوته غريباً جداً في تلك الغرفة الفارغة الموحشة . (انني لم اصف لكليا شيئاً من هذا ، فقد خفت ان يزعجها ذلك ، لانها هي ايضاً كانت توده كثيراً) .

« وعدنا حالاً بالبزة الرسمية الى مركز البوليس ولحسن الحظ لم نرّ اي اثر لوجود كيتس . واقفلنا باب الغرفة علينا مرة ثانية ونحن نلتقط انفاسنا من الحر . كانت الجثة تتصلب بسرعة حتى تعذّر علينا ان نلبسه السترة دون ان نكسر ذراعيه – ذراعين هزيلتين ضعيفتين من السهل ان تكسرا كما تكسر عروق الكرفس ، هذا ما بدا لي . ولذا فاني لففتها حوله . اما البنطال فقد كان الباسه اياه اسهل ، وحاول نمرود ان يساعدني ولكن الغثيان العنيف تغلّب عليه فامضى اغلب الوقت يقيء في احدى الزوايا . ولا شك انه كان قد تأثر من الحادث ، واستمر يردد قائلاً (الشيخ المسكين) . على كل ، لقد استطعنا بسرعتنا ولباقتنا ان نتجنب الفضيحة التي كان نمرود يخشاها . ولم نكد نتم اعداد سكوبي ليبدو كما يجب ، حتى سمعنا الهدير الذي لا نخطيء مصدره – هدير سيارة وكالة الانباء العالمية وصوت كيتس في غرفة الادارة .

« ويجب ان أضيف بان حادثتي وفاة واكثر من عشرين حادث تسمم حادّ من العرق حدثت جميعها خلال اليومين التاليين في حي شارع التتويج ، حتى اننا نستطيع ان نقول ان سكوبي قد ترك اثره على الحي . ولقد حاولنا ان نحصل على تحليل للمادة التي كان يخمّرها ، ولكن محلّل الحكومة يئس من الوصول الى نتيجة بعد ان فحص عدة عينات . ان الله وحده يعلم ما كان يعده الشيخ .

« ومع ذلك فقد كانت الجنازة ناجحة كل النجاح (دفن بكل تكريم كضابط قتل في اثناء تأديته لواجبه) ، وحضرها الجميع . كان هناك عدد كبير من المصريين من سكان الحي الذي كان يعيش فيه . انه من النادر ان تسمع التكبير الاسلامي على قبر مسيحي – وكان هناك ايضاً الأب بول ، الراهب الكاثوليكي وقد انزعج كثيراً فلعله كان يخاف من عفاريت ابليس التي استحضرها العرق المصنوع في البيت – من يدري ؟ ولم تخل الجنازة ايضاً من

المفاجآت الرائعة التي تميز الحياة هنا (فالقبر اصغر مما يجب ، وحفارو القبر يرفضون الاستمرار في توسيعه حتى تزاد اجورهم ، وعربة القنصل اليوناني تنفلت وهو فيها وترمي به الى اجمة الخ الخ) . اظن اني وصفت كل هذا في رسالة لي : وقد تم لسكوبي ما كان يرجوه دائماً — ان يُدفن مجللاً بالتكريم بينما تعزف فرقة البوليس النشيد الاخير فوق القبر — مع ان هذا النشيد كان يخرج مترجرجاً يوحي بالحان ربع النغم المصرية . والخطب ، والدموع ! انك تعرف كيف يسمح الناس لانفسهم بالاندفاع العاطفي في مناسبات كهذه : كان المرء خليقاً بان يظن أن قديساً قد مات . ظللت اتذكر جثة المرأة الهرمة في مركز البوليس .

« ويخبرني نمرود انه كان يوماً محبوباً جداً في حيه : ولكنه ، في ايامه الاخيرة ، اخذ يتدخل في ختان الاولاد الشعائري واصبح مكروهاً جداً : انك تعرف طبيعة العرب . ويقيناً انهم هددوه غيرة مرة بانهم سيسممونه . ويمكنك ان تتصور كم كانت هذه الأشياء تشغل باله وتقلقه . فقد عاش بينهم سنوات عديدة ، واعتقد انه لم تكن له اية حياة مستقلة عن اطار هذه الحياة . وهذا ما يحصل لعدد كبير من المغتربين ، اليس كذلك ؟ على كل حال ، اخذ في آخر ايامه يسكر (ويسير في نومه) كما يقول الارمن . وقد حاولنا جميعنا ان نغض الطرف عنه وعيّنا شاويشين لحراسته في هذه الجولات ، ولكنه ، ليلة موته ، استطاع ان يزوغ منهما .

« ويقول نمرود « وما ان يبدأوا بتغيير لباسهم (ان نمرود في الحقيقة خال من روح الدعابة) حتى تكون بداية النهاية » . ولكن هذا ما حصل بالفعل . لا تخطىء فتظن لهجتي دليلاً على الخفة . لقد علمني الطب ان انظر الى الاشياء ببرود ساخر ، فاحفظ بذلك قوة مشاعري التي يجب ان توجه نحو من نحب والتي تبدو هباء على من يموتون . او هذا ما اعتقده .

« وبعد ، فما الذي يستطيع ان يفعله المرء بالحياة وهي مليئة بالتعرجات التغيرات الغريبة ؟ اني لأعجب كيف يملك الفنان القدرة على المجازفة فيحاول

ان يفرض نموذجاً عليها يطعّمه بمعانيه الخاصة ؟ (هذا موجه قليلاً اليك) اني اعتقد انك خليق بأن تجيب . فمن واجب الربان ان يبين لنا مزالق الحياة ومرافئها ، افراحها واتراحها ، وبذا يمنحنا القوة لمواجهتها ، نعم ، ولكن ..»

« واكتفي بهذا الليلة : كليا اخذت ببغاء الشيخ ؛ وهي التي دفعت تكاليف الجنازة : ان اللوحة التي رسمتها له لم تزل موضوعة على ما اعتقد على رف في غرفتها المهجورة . اما الببغاء فيظهر انه كان لم يزل يتكلم بصوت سكوبي ؛ ولقد قالت كليا انه كثيراً ما كان يفاجئها ويدهشها بالأشياء التي يتفوه بها . هل تظن ان روح الانسان قد تدخل جسم ببغاء اخضر من الأمازون ليحمله مدة اطول الى قلب الزمن ؟ اود ان اعتقد هذا : ولكنه اصبح الآن تاريخاً قديماً . »

* * *

٩

كان بومبال ، كلما استولى عليه القلق وتشويش البال يقول بانجليزيته الانيقة : Mon Dieu، انا اليوم منحل . » وكان يلجأ الى نوبة النقرس ليذكر نفسه باجداده النورمانديين . كان يحتفظ لهذه المناسبة بكرسي من طراز قديم اشبه بكراسي البلاط ، ذات الظهر العالي ، والمكسوة بالمخمل الأحمر . وكان يجلس فيه ماداً ساقه المربوطة على كرسي صغير ، يقرأ مجلة « Mercure » ويفكر وقد تملكه القلق فيما قد يجازى به من توبيخ او نقل بعد خطأه الاخير كائناً ما كان . كان يعتقد ان جميع اعضاء سفارته ضده ، وانهم يعتبرون مسلكه (كان يكثر من الشراب ومن ملاحقة النساء) مسيئاً الى وظيفته . والحقيقة انهم كانوا يغارون منه لان دخله كان وافراً يسمح له بأن يعيش كأمير ؛ هذا اذا صحت لك تسمية الشقة الصغيرة المدخنة التي كنا نسكنها «بالأميرية». والحقيقة ان دخله لم يكن ضخماً بحيث يحرره كلياً من عبء العمل لتحصيل الرزق .

واذا صعدت الدرج اليوم عرفت انه كان « منحلاً » من نغمة صوته النكدة . كان يردد بهستيرية : « هذه ليست أنباء ! اني امنعك من نشرها . » ولقيني حميد الأعور في البهو الذي انتشرت فيه رائحة الطعام المقلي ، وبادرني

بحركة من يده متحدثاً عن ذهاب ميليسا وهمس : « لقد ذهبت الآنسة ؛ ستعود في الساعة السادسة . ان مستر بومبال ليس في حالة طيبة . » وكان يلفظ اسم صديقي كأنه خال من حروف المد : بمبلْ .

لقد وجدت كيتس معه في غرفة الجلوس ، وقد اتكأ دون رشاقة على الاريكة بهيكله الكبير وهو يرشح عرقاً . وكان يبتسم وقد دفع قبعته الى الوراء . امـا بومبال فكان يجثم في كرسي « النقرس » وقد بدا منكّداً ومفجوعاً . واستطعت ان الحظ انه قد سكر سكراً شديداً في الليلة الماضية ، ومن مظهره هذا ادركت دلائل غلطة ارتكبها .تُرى ما الذي اكتشفه كيتس الآن ؟ قلت له : « بومبال ، بحق الشيطان ماذا حصل لسيارتك ؟ » وأنّ بومبال وامسك بعنقه كأنما يرجو منّي ترك الموضوع جميعه ؛ ومن الواضح ان كيتس كان يسأله ويناكده عن هذا الأمر نفسه .

كانت السيارة الصغيرة الغالية جداً على قلب بومبال ، تقف الآن عنـد الباب الامامي وقد تهشمت وتشوهت تشويهاً فظيعاً . وجرض كيتس بريقه وقال مفسراً : « لقد كان هذا من فعل سفيفا — ولست مفوّضاً بنشر الخبر . » وأنّ بومبال وهز جسمه ، وتابع كيتس كلامه : « انه يرفض ان يخبر بتفاصيل القصة » .

وغضب بومبال الآن غضباً حقيقياً — وقال « هل تتفضل بالذهاب ؟ » وهبّ كيتس واقفاً ، فما اسرع ما كان يخجل ويرتبك امام كل من كان يظهر اسمه على لائحة الدبلوماسيين ؛ ووضع دفتره في جيبه وقد تلاشت الابتسامة عن وجهه ، وهمهم بصوت ضعيف : « حسناً . كلّ وذوقَه . » وهبط الدرج ببطء وجلست أمام بومبال منتظراً ان يهدأ .

وقال اخيراً : « غلطة اخرى ، يا عزيزي . شرّ الغلطات في علاقتي مع سفيفا . لقد كانت هي ... يا سيارتي المسكينة ... هل رأيتها ؟ هنا ، تحسس هذا الورم على عنقي . هل وجدته ؟ صخرة دموية . »

وطلبت من حميد شيئاً من القهوة ، بينما راح هو يروي خبر كارثته

الأخيرة مستعيناً بالاشارات المفجوعة التي الفتها منه . لقد كان احمق عندما ركب متن هذه العلاقة مع سفيفا النارية . فقد أصبحت تحبه الآن . « الحب ! » وأنّ بومبال وتلوّى في كرسيه ثم اعترف قائلاً : « انني شديد الضعف ازاء النساء ، وكانت هي سهلة جداً . يا الهي ـ كانت اسهل من طبق طعام وضع امامي على المائدة دون ان اطلبه ، او طبق طلبه سواي ولكنه قُدّم لي خطأ : لقد جاءت الى طاولتي كقطعة من البفتيك ، كباذنجانة محشوة . فماذا كان علي ان افعل ؟

« ثم فكرت بالأمس فقلت : (اذا اعتبرنا جميع الأمور التي تتعلق بها ، عمرها ، حالة اسنانها الخ ، فاني انتهي الى انها قد تصاب بمرض يكبدني نفقات كبيرة ـ والى جانب هذا فاني لا اريد عشيقة دائمة . وهكذا فقد قررت ان اذهب معها الى مكان هادىء على البحيرة واودّعها . فجن جنونها عندما واجهتها بالأمر ، وبلمحة بصر قفزت الى ضفة النهر حيث كومة هائلة من الاحجار . وقبل ان اعرف ما اقول : (بيف باف بانج بونج) . كانت اشاراته بليغة ، « ولم ار امامي الا احجاراً وصخوراً تنهال على السيارة فتهشم زجاجها ومصابيحها الأمامية وكل شيء ... وجثمت عند الفرامل اصرخ مستغيثاً . تحسس هذا التورم على ركبتي ، لقد جن جنونها . وبعد ان تحطم كل الزجاج تناولت صخرة هائلة واخذت تضرب بها السيارة وهي تصرخ كلمة Amour مع كل ضربة ، كالمجنونة . لا أود ان اسمع كلمة « Amour , Amour » ابداً بعد اليوم . لقد تهشم خزان المياه وتشوهت الجوانح وتلوّت . أرأيت ؟ اتصدق ان فتاة تستطيع ان تفعل شيئاً كهذا ؟ ثم ماذا بعد ذلك ؟ سأقول لك ما فعلتْ . لقد القت بنفسها في النهر ، فتأمل مشاعري وقتئذ . انها تجهل السباحة وانا كذلك لا أحسنها . اية فضيحة كانت ستحدث لو انها ماتت ! لقد ألقيت بنفسي الى النهر وراءها : وامسك الواحد منا بالآخر واخذنا نصرخ كقطين يتعاشران . والماء الذي بلعته ! لقد جاء بعض رجال البوليس وانتشلونا من الماء . وتلت ذلك اجراءات تفسيرية طويلة الخ . لست اجروءُ أبداً على مخابرة

السفارة هذا الصباح . ان الحياة لا تستحق ان يعيشها الانسان . »

كان على وشك البكاء وقال : « هذه فضيحتي الثالثة خلال هذا الشهر . وغداً موعد الكارنيفال . أتعلم ماذا ؟ انني بعد تفكير طويل خرجت بفكرة » . وابتسم ابتسامـــة كئيبة . « سوف احقق النصر في الكارنيفال — حتى ولـــو افرطت في الشراب كالعادة ووقعت في ورطة كما يحصل لي دائماً . سأذهب متنكراً تنكراً يتعذر كشفه . نعم . » وغسل اصابعه وردد : « تنكراً يتعذّر كشفه . » ثم تأملني لحظة كأنه يحاول ان يقرر ما اذا كنت أهلاً لأن يأتمنني على سره ام لا — وبدا ان تفحصه لي قد ارضاه فالتفت فجأة نحو الخزانة وقال : « اذا اريتك ، فهل تحفظ السر ؟ فبعد كل شيء نحن صديقان . اعطني القبعة من رف الخزانة الأعلى وسترى ما يضحكك . »

وفي الخزانة وجدت قبعة هائلة الحجم عتيقة الطراز اشبه بالقبعات التي تراها في صور سنة ١٩١٢ ، وقد زينت بكمية من الريش واثبت فيها دبوس غليظ من دبابيس القبعات رصع طرفه بحجر ازرق كبير . وقلت وانا أكاد لا اصدق ما ارى : « هذه ؟ » . فقهقه بغبطة وهو يهز برأسه موافقاً : « ترى من سيعرفني في هذه ؟ هاهّا . »

وبدا مضحكاً جداً فيها حتى اني اضطررت الى ان اجلس واضحك — لقد ذكرني بقبعة « دولي فاردن » المضحكة . لقد بدا بومبال ... من المحال و صف ما فعله هذا الابتكار المضحك بوجهه السمين . واخذ هو يضحك ايضاً وقال : « رائعة ، أليس كذلك ؟ ان زملائي اللعينين لن يعرفوا ابداً من هي تلك المرأة السكرى . واذا لم يكن القنصل العام في لباس الدومينو فاني ... سوف اغازله : سأثيره الى حد الجنون بقبلاتي المشبوبة ، ذلك الخنزير ! » ومما شاع في وجهه من الكراهية للقنصل العام بدا مضحكاً اكثر من قبل . وكما سبق لي مع سكوبي اضطررت ان اتوسل اليه قائلاً : « اخلعها عن رأسك استحلفك بالله ! »

فخلعها وجلس يبتسم لي معجباً أشد الاعجاب ببراعة خطته . فهنا عـــلى الأقل ، لن تعزى اليه تلك التصرفات الرعناء التي قد يرتكبها . واضاف مفاخراً :

« ان عندي اللباس الكامل . فابحث عني بين المتنكرين . انك ذاهب ، اليس كذلك ؟ لقد سمعت ان حفلتين ساهرتين ستقامان في تلك الليلة ولذا سننتقل من حفلة الى اخرى ، اليس كذلك ؟ حسناً . انني اشعر بالارتياح قليلاً ، الا تشعر انت بنفس الشعور ؟ »

هذه القبعة المشوّومة هي التي ادت مباشرة الى الميتة الغامضة التي ماتها « توتو دي برونيل » في الليلة التالية في بيت آل سيرفوني – تلك الميتة التي ظنت جوستين ان زوجها كان ينويها لها لا لتوتو – اما انا ... ولكن يجب ان اتبع ترتيب بالثازار في تعليقاته .

ويكتب بالثازار : « اما مشكلة مفتاح الساعة – المفتاح الذي ساعدتني في التفتيش عنه في حفرات شارع الكورنيش الكبير في ذلك اليوم الشتوي – فقد اعيد الي بطريقة غريبة . ان ساعتي توقفت كما تعرف واضطررت الى التوصية على مفتاح آخر صغير على شكل الصنج كي اديرها . ولكن قبل ان ينتهي صنعه اعيد المفتاح الاصلي الي تحت ظروف غامضة . فقد جاءت جوستين ذات يوم الى العيادة ، وبعد ان قبلتني بحرارة ، اخرجته من حقيبة يدها ، وسألتني وهي تبتسم : « هل تعرف هذا ؟ » ثم تابعت معتذرة : « أنا آسفة لانشغال بالك من أجله يا عزيزي بالثازار . هذه هي المرة الاولى في حياتي التي اضطررت فيها الى ان اكون نشالة . ففي البيت خزانة حديدية مثبتة في الحائط كنت مصممة على فتحها . ولقد بدا مفتاحك شبيهاً جداً بمفتاحها فأردت ان اجربه على قفلها . وكان في نيتي ان اعيده في الصباح التالي قبل ان تكتشف ضياعه وتقلق عليه . ولكني اكتشفت انه قد اختفى عن طاولة زينتي . انك لن تروي هذا لأحد . وظننت أن يكون نسيم نفسه قد رآه فاشتبه بغرضي منه واخذه ليجربه على قفل خزانته بنفسه . ومن حسن الحظ (او من سوء الحظ) انه لا يصلح للقفل ، ولذا لم استطع فتح الخزانة الصغيرة . كما اني لم أستطع ان اثير ضجة حول ضياعه لئلا يكون نسيم على غير علم بأمره فاكشفه له والفت نظره الى الشبه الشديد بينه وبين مفتاحه . سألت فاطمة بتحفظ وبحثت في علب مجوهراتي ،

دون جدوى . ثم بعد يومين احضره نسيم بنفسه الي وقال إنه وجده في علبة ازرار قمصانه : لقد رأى الشبه بينه وبين مفتاحه ولكنه لم يذكر شيئاً عن الخزانة ، بل طلب مني ان اعيده اليك . وهذا ما أفعله الآن ، مع الاعتذار القلبي لهذا التأخير .

« وأزعجني هذا وأفضيت اليها باستيائي ثم أردفت : (وعلى كل حال ، ما الذي يدفعك الى التلصص على خزانة نسيم الخاصة . ان هذا يبدو مناقضاً جداً لمسلكك الطبيعي ، ويجب ان اقول انني اشعر بالكثير من الاحتقار لك ولا سيما بعد المعاملة الرائعة التي خصّك بها نسيم .) وطأطأت رأسها وقالت : (ما اردت غير اكتشاف شيء عن الطفلة – شيء اظنّه يخفيه عني) . »

* * *

القسم الثالث

١٠

ويكتب بالثازار : « اظن انك اذا رغبت الآن في دمج كل ما ارويه لك في مخطوطتك « جوستين » ، فلا شك انك ستجد في حوزتك كتاباً من نوع غريب — وتكون القصة قد رويت عندئذ في طبقات . فمن يدري ، لعلي قد زوّدتك غير متعمد بشكل جديد في عالم القصة — شكل غير عادي قد لا يكون بعيداً عن فكرة بورسواردن عن سلسلة من الروايات ذات اللوح المتحرّك كما يسمّيها هو . او لعلها أشبه بألواح من العصور الوسطى نقشت عليها حقائق مختلفة طبقة فوق طبقة ، الواحدة منها تمحو الأخرى او تتمّمها . رهبان مُجِدون يمحون مرئية ليفسحوا متسعاً لسفر من الكتاب المقدس !

«لست اعتقد انه من الصعب تطبيق هذا المثل على واقع الاسكندرية ، المدينة المقدسة والدنيوية في آن واحد . ان الانسان ليتنقّل فيها بين ثيوقراط وافلوطين وتراجمة التوراة السبعين ، خلال طبقات تمثل الأجناس المختلفة ، كما تمثل أشياء أخرى — كأن نقول قبطي ، ويوناني ويهودي ؛ او مسلم وتركي وأرمني .. اتراني مخطئاً ؟ انها التراكم البطيء — تراكم الزمن على المكان ، تماماً كما تحفر الحياة ، لمسة بعد لمسة ، غضون التجاريب المختلفة على وجه الانسان —

غُضوناً يتعذّر التمييز فيها بين آثار الضحك وآثار الدموع . غضوناً هي الأثر للمعاناة الخفيّة على رمال الحياة . »

هذا ما يكتبه صديقي ، وهو على حق ؛ فتعليقاته لم تعد تطرح لي مشكلة « الحقيقةالموضوعية بالنسبة الى الحياة » او ان شئت « بالنسبة الى (التصور) » فحسب ؛ بل ان هذه التعليقات ، كالحياة نفسها — سواء أصَنعَها الانسان بنفسه او تقبّلهـا كما هي ، تطرح لي مشكلة اشـق وأصعب هي مشكلة « الشكل » . فكيف سيتسنّى لي أن اعـالج هذه الكميّة الهائلة من المعلومات المتبلورة كيما ابرز معناها ، واعطي بذلك صورة منسجمة لهذه المدينة المستحيلة ، مدينة الحب والفحش ؟

ليتني أدري ، ليتني أدري ! لقد كشفت لي هذه التعليقات عن حقائق كثيرة حتى اصبحت اشعر كأنني واقف على عتبة كتاب جديد — اسكندرية جديدة . ان الصورة القديمة التي رسمتها لها ونسجتها حول اسماء ممثليها — كافافي ، الاسكندر ، كليوبطرة وسواهم ، — الصورة التي اوحت الى بالثازار بكـل تعليقاته ، كانت صورة ذاتية تأثرية — جعلتها ملكي الخاص الذي احرص عليه كل الحرص ؛ ولم تكن صادقة الا ضمن حدود حقيقية جزئية لم استطع ان أرى ابعد منها . والآن ، ماذا افعل في ضوء هذه الكنوز الجديدة — فالحقيقة ، بالرغم من كونها عديمة الرحمة كالحب نفسه ، يجب ان تعتبر دائماً كنزاً — هل اوسع حدود الحقيقة الاصلية ، وأملأ بنثار المعرفة الجديدة الاساس الذي ابني عليه اسكندرية جديدة ؟ ام اترك الخصال والنوازع على حالها ؟ وهل يا تـرى كانت الحقيقة وحدها هي التي تغيرت وتناقضت ،؟

لقد رزحت ، طوال اشهر الربيع في جزيرتي الموحشة ، تحت ثقل هـذه المعلومات العجيبة التي غيّرت مشاعري نحو الأشياء —حتى نحو الاحداث الماضية . ترى اتستطيع العواطف ان تعود الى الوراء وتتراجع ضمن اطار الماضي ؟

لقد بنيت جزءاً كبيراً مما كتبته على مخاوف جوستين من نسيم — مخاوف

حقيقية كانت تعبر عنها تعبيراً صادقاً . لقد رأيت بعيني تلك الغيرة الباردة الصامتة على وجهه – ورأيت الخوف مكتوباً على وجهها . ومع ذلك فإن بالثازار يقول الآن إن نسيماً ما كان ليؤذيها أبداً . فأي الأمرين اصدّق الآن ؟

كنا كثيراً ما نتناول طعام العشاء معاً ، نحن الأربعة وكنت أجلس صامتاً ، سكران بذكرى قبلاتها ، وقد اقتنعت (لأنها هي التي أخبرتني بذلك) بأن وجود الرابع – بورسواردن – سيهدهد أفكار نسيم ويهدىء غيرته فيحرسنا ويمنحنا السلامة ! ولكن إن يكن بالثازار صادقاً ، فلا شك انني كنت انا ذلك الحارس الذي اختارته هي وبورسواردن ليتحدى نسيماً . (فهل أذكر حقاً ام انني أتخيل مجرد تخيل ، تلك الابتسامة الصغيرة الخاصة التي كانت تظهر بين الفينة والفينة على طرف شفتي بورسواردن ، ابتسامة لعلها كانت تحمل معاني السخرية القارصة او معاني الوشاية ؟) كنت أعتقد وقتئذ انني احتمي وراء وجود بورسواردن ، بينما كان هو في الحقيقة يحتمي وراء وجودي انا ! ان ما يمنعني من ان اصدق هذا كل التصديق هو ... ماذا ؟ خصائص قبلة من شفتي امرأة كانت تستطيع ان تتمتم بكلمة « احبك » كمن يسلم نفسه الى آلة التعذيب . بالطبع ، بالطبع . انني خبير بالحب –كل رجل يعتقد انه خبير به : على الأخص الرجل الانجليزي . أفأومن اذن بالقبلة اكثر مما أومن بتقريــر صديقي ؟ محال ، فإن بالثازار لا يكذب ...

هل الحب في طبيعته نوع من العمى ؟ انني أعرف بالطبع انني اشحت بوجهي عن فكرة خيانة جوستين لي عندما كانت ملكي – ترى أي رجل لا يشيح بوجهه كما فعلت ؟ فقد كانت خيانتها لي خليقة بأن تكون حقيقة مؤلمة وأقسى من أن أتقبلها ، مع اني ، في أعماق قلبي ، كنت ادرك انه لن يكون في وسعها أبداً ان تكون وفية لي الى الأبد . وان جرؤت مرة على أن اهمس بالفكرة لنفسي فقد كنت اضيف بسرعة قائلاً لنفسي ، كما يقول كل زوج وكل عشيق : « ولكنها مهما فعلت ، فاني انا الرجل الذي تحبه هي حباً صادقاً ! » هذه هي الحذلقات المعزية – هذه هي الأكاذيب التي يعيش عليها الحب !.

غير انها في الحقيقة لم تيسر لي قط داعياً لأن أشك في أمرها . ولكنني أذكر مناسبة واحدة فقط تطرق الي فيها شبهة من شك عن وجود علاقة بينها وبين بورسواردن . ولكن هذا الشك ما لبث ان تلاشى . فإنه خرج ذات يوم من المرسم واتجه نحونا وعلى شفتيه آثار احمر الشفاه ، ثم سرعان ما لاحظت السيجارة التي كانت في يده -كان واضحاً انه قد تناول سيجارة لجوستين كانت قد تركتها مشتعلة على طرف المنفضة (عادة مألوفة لديها) . وقد كان طرف السيجارة احمر . ان كل شيء يصبح سهل التفسير في علاقات الحب .

ان تعليقات بالثازار القاسية المشحونة بهذه الشكوك ، تضغط بأصابع غليظة ، هنا وهناك ، على اماكن مرضوضة في النفس . لقد بدأت بنقلها جميعها في كتاب مستقل - ببطء وعذاب . لا لكي ارى بوضوح كيف تختلف عن تفسيري انا للواقع ، ولكن لكي انظر اليها ككل مستقل - كمخطوطة لها حق الوجود لذاتها ، وكرأي استقر عليه انسان آخر حول الحوادث التي اولتها انا على طريقتي الخاصة - الطريقة التي عشت انا بها تلك الحوادث - أو عاشتني الحوادث بها . أحقاً انه قد فاتتني رؤية الكثير مما كان يجري حولي ؟ - معاني الابتسامات ، الكلمات والاشارات العابرة ، رسائل تخطها الاصابع بخمرة اندلعت على المائدة ، عناوين كتبت على زوايا الصحف المطوية ؟ هل اعود فاراجع تجاربي لكي أصل الى قلب الحقيفة ؟ بورسواردن يكتب : « ان الحقيقة لا قلب لها . إنها امرأة . وهذا هو السر في انها لغز . وبما أننا لسنا افرنسيين فإن اكثر ما يمكننا قوله عن النساء هو أنهن حيوانات » .

اني بالنسبة الى بالثازار ، قد أخطأت تفسير مخاوف جوستين وعزوت اسبابها الى نسيم . لقد سجلت حادثة السيارة في مكان آخر ورويت كيف انطفأت انوار سيارة جوستين الفضية وهي تسوقها ذات ليلة الى القاهرة بسرعة لتلتقي ببورسواردن . واعماها الظلام ففقدت السيطرة على المقود وجنحت السيارة عن الطريق وراحت تصطدم بكثبان الرمل واحداً بعد الآخر ، فتتناثر الرمال من على جوانبها كأنها الزبد المتراشق حول حوت يصارع سكرات الموت . ثم

دفنت نفسها حتّى الدرع الزجاجية في احد الكثبان الرملية وقد تعالى لها رنـــين كرنين السهم المنطلق ، وقبعت مهمهمة ترتجف . ولحسن الحظ لم توذَ جوستين وكانت سريعة الخاطر فأطفأت المحرك . ولكن كيف وقعت الحادثة ؟ لقد اخبرتني وهي تروي لي القصة بأنهم عند فحص السيارة وجدت أسلاك الضوء مقطوعة بمبرد — فمن قطعها ؟

كانت هذه هي المرة الاولى ، حسبما أعلم ، التي وضحت فيها مخاوف جوستين من نسيم ، وشكوكها في انه قد يحاول قتلها . كانت قد تحدثت عـــن غيرته من قبل : نعم ، ولكنها لم تتحدث قط عن أشياء كهذه — عن أشياء ملموسة الى هذه الدرجة — ولصيقة بالحياة الاسكندرانية الى هذا الحد . أمّـــا ذعري انا فلعل أي امرىء يستطيع تخيله وتقديره .

يقول بالثازار في تعليقاته ان جوستين ، قبل الحادثة بعشرة أيام ، كانت قد رأت من نافذة المرسم سليماً يقطع باحة الحديقة الخضراء الى السيارة وظناً منه أن أحداً لا يراه ، يرفع غطاء المحرك ويخرج من تحته احدى بكرات الشمع الصغيرة التي تعتقد انها تبينت فيها قطعة من جهاز التسجيل الذي كان يستعمله نسيم في مكتبه . ورأته يلف البكرة في قطعة قماش ويحملها الى البيت . وبقيت جوستين جالسة الى النافذة مسمرة في مكانها مدة طويلة وهي غارقة في التفكير . ثم نهضت وقد صممت على اكتشاف السر . فساقت السيارة الى طريق صحراوي منفرد لتفحصها . ولقد وجدت تحت غطاء المحرك آلة صغيرة لم تعرف كنهها ، ولكنها بدت أشبه بآلة تسجيل صغيرة . وكان هناك سلك اعتقدت انه يصل الآلة بميكروفون صغير لا بد انه دفن وراء الحاجبة بين الأسلاك والأشرطة الملونة ؛ ولكنها لم تتمكن من العثور عليه . غير انها قطعت السلك بمبرد اظافرها في أماكن متعددة وتركت الآلة في مكانها وقد بدت سليمة لم يصبها اي عطب . ويقول بالثازار إن جوستين لا بد ان تكون قد شوشت او اتلفت احد اسلاك الضوء الأمامي . على الأقل ، هذا ما قالته هي . وان كان لي أن اصدقه هو ، فانها ، بينما كانت تمعن في التحدث اليّ عن حماقة مسلكنا امام اعين الناس وعن

الأخطار التي نتعرض لها ، كانت تجرني امام نسيم كما يجر الوشاح امام الثور !
ولكن هذا كان في البدء فقط ؛ فبعد ذلك ، كما يقول صديقي ، حدث ما جعلها تشعر بالفعل بأن زوجها كان يفكر في الاعتداء عليها : كان هذا الحادث هو مقتل توتو دي برونيل ابان حفلة الكارنيفال الراقصة في بيت آل سيرفوني .
كيف لم اذكر هذا قط من قبل؟ لقد كنت موجوداً في الحفلة ولكن الحادثة ، مع أنها كانت تنتمي الى جو الأحداث والتجارب التي بلوناها وقتئذ ، غابت عني كلياً في زحمة المشاغل الاخرى . ان للاسكندرية الغازاً كثيرة كهذا اللغز لم تحل قط . ومع أني عرفت تفسير جوستين للحادث فإني لم أومن به حينذاك . ومع ذلك فإنه يبدو غريباً ان لا اذكره حتى ولو ذكراً عابراً . بالطبع ، انني لم أطلع على التفسير الصحيح للغز الا بعد الحادث بعدة شهور : عندما كنت انا نفسي على وشك مغادرة الاسكندرية الى الأبد (كما ظننت) ، مع طفلـــة ميليسا — طفلتها من نسيم . اخبرتني كليا بالحقيقة ذات ليلـــة .
ان الكارنيفال في الاسكندرية حدث اجتماعي محض — لا علاقة زمنية له بأعياد المدينة الدينية . وأظن ان العائلات الثلاث او الاربع الكاثوليكية المشهورة هي التي بدأت تحتفل به في الاسكندرية ولعلها كانت تجد فيه شعوراً من التجانس مع الجهة المقابلة من البحر المتوسط ، مع البندقية واثينا . على كل حال ، ليس في الاسكندرية اليوم عائلة غنية واحدة لا تحتفظ في بيتها بدولاب مليء بأثواب الدومينو المخملية التي يلبسها المحتفلون في تلك الأيام الثلاثة — المليئة بالمرح والطيش — سواء أكانت تلك العائلة قبطية او مسلمة او يهودية . ان الكارنيفال اكبر احتفال مسيحي بعد احتفالات عيد رأس السنة ، يهيمن على ايامه الثلاثة التنكر الكامل : التنكر الذي يمنحه الدومينو المخملي الأسود الذي يغلف هويـــة الانسان وجنسه ، فلا يميز المرء بين الرجل والمرأة ، الزوجة والعشيقة ، الصديق والعـــدو .
ويتبدّى الآن جنون المدينة وانحرافاتها وشواذها تحت حماية سادة الطيش والنزق الذين يترأسون احتفالات هذا الموسم . فما إن يهبط الظلام حتى يبدأ

المقنعون بالظهور في الشوارع – فرادى وازواجاً ، ثم جماعات صغيرة قد تحمل معها ادوات موسيقية أو طبولاً ، وتسير ضاحكة مغنية في طريقها الى احد البيوتات الكبيرة او احد الملاهي الليلية ، حيث يستحم الهواء البارد بدفء الجاز الزنجي – ذلك التمازج المزمجر بين انغام السكسفون وقرع الطبول . وتنبع الجماعات في كل مكان تحت ضوء القمر الشاحب ، وقد اقتبعوا كالرهبان: ويمنحهم التنكر تماثلاً كئيباً مطرداً في الشكل الخارجي يرعب المصريين ذوي الجلابيب البيضاء ، ويملؤهم رهبةً – نشوة الخوف التي تعطر الضحكات العنيفة المتدفقة من البيوت ، فتحملها رياح البر الخفيفة الى المقاهي على شاطىء البحر ؛ ضحك يكاد بعلوه الذي يصك السمع يرتعش على حافة الجنون .

وببطء يتسلق قمر الربيع الشاحب الزرقة بيوت الاسكندرية ، ويسبح صاعداً الى رؤوس المآذن واشجار النخيل المطقطقة ؛ وببروزه تكشف المدينة عن مكنوناتها كاحد الحيوانات وقد اخرج من مدفنـــه الشتوي في التراب ، وتتمطى وتعب من موسيقى أيام العيد الثلاثة .

ويفعم الجاز المتدفق من اقبية الملاهي هواء الشتاء البارد الهادىء في الحدائق والشوارع العامة . واذ يبلغ الشاطىء يمتزج بضربات دافعة احدى السفن في القنوات العميقة عند المصب . او قد تسمع وترى لحظة شهب الالعاب النارية في السماء المضرجة بالحمرة كطبق محترق من ورق الكاربون : ضحك عنيف يمتزج بخوار منبعث من سفن عتيقة خارج حاجز الميناء ، كأنه خوار بقرة أقفل من دونها الباب .

يقول المثل : « العاشق يخشى الكارنيفال » . وبظهور مخلوقات الليل هذه ، الملتفة « بالبرانس » السوداء يتغير كل شيء فجأة ، ويتبدل مزاج الحياة كله في المدينة ، ويصبح دافئاً وغنياً ببواكير الربيع المبهمة . Carni vale وداع الجسد للسنة اذ يفلت لفائف المومياء عن الجنس والاسم والهوية ، ويتقدم عارياً الى مستقبل الحلم .

وتفتح جميع البيوتات الكبيرة أبوابها لتكشف عن فخامة رياشها الخيالية

– وقد دفأته النيران التي عكست لهيبها على الادوات الصينية والرخام ، وعلى النحاس والقصدير ، وعلى وجوه الخدم السوداء كالرصاص وهم يؤدون واجباتهم . وفي كل شارع الآن ، في غبش الليل المضاء بالقمر ، تربض سيارات السماسرة والمقامرين الفخمة ، كالسفن الراسية في أحواض الميناء ، رمزاً صامتاً شديد التأثير في النفس لثروة عاجزة عن ان تجلب لاصحابها نعيم الراحة وهدوء الفكر لأنها تتطلب كل شيء من روح الانسان . انها تقبع في نسيج من الضوء ، معبرة عن صمت الآلة وقوتها وهي تنتظر سقوط الانسان وترقب المتنكرين وهم يروحون ويجيئون أمام النوافذ المضاءة في البيوت الكبيرة ، وقد امسك الواحد منهم بالآخر كدببة سوداء ، وراحوا يرقصون على نبضات انغام الزنوج – عزاء الرجل الابيض .

ولا بد ان خطفات من بعض الاغاني والضحكات المبتورة كانت تتصاعد الى نافذة كليا حيث جلست في غرفتها وعلى ركبتيها لوح الرسم وقد راحت ترسم بتؤدة وصبر بينما نامت قطتها في سلة عند قدميها . او رب هدأة مفاجئة قطعتها نقرة لاعب على اوتار قيثارة ، فراحت تتقلب في ظلمات الشارع حتى تلتقي بأغنية آتية من بعيد – كأنها منبعثة من قعر بئر اورب هدأة قطعتها صرخة استغاثة .

ولكن الشيء الذي يطبع الكارنيفال بروح الشيطنة الخالصة هو الدومينو المخملي – فإنه ينكّر صاحبه التنكر الذي يتمناه كل انسان في سريرة نفسه اكثر من اي شيء سواه . فأن يصبح الانسان مجهولاً في جماعة من البشر المجهولين ، فلا يعرف احد ارجلاً هو ام امرأة ، ولا تتبدّى هويته ولا علاقاته ولا تعابير وجهه – فإن قناع الوجه في لباس هذا الكاهن المجنون لا يكشف الا عن عينين تلتمعان كعيني امرأة مسلمة . ولا ما يميّز الانسان غير هذا ؛ فالطيات في الرداء الاسود السميك تخفي تحتها خطوط الجسم جميعها ؛ فلا أرداف ولا صدر ولا وجه . (وكما تقبع رغبة مجرمة في القلب ، او اغراء يستعصي على المقاومة ، او نزوة مكتوبة في لوح القدر) تقبع تحت

لباس الكارنيفال بذور حرية لم يجروُ الانسان في تاريخه الطويل الا نادراً على ان يتخيلها ملك يده ، فانه يشعر وهو متخفٍ في هذا اللباس ، بأنه حرّ يفعل ما يشاء دون اي محظور . وافضل حوادث القتل في المدينة ، وجميع الاخطاء الفاجعة الناجمة عن الهوية المغلوطة ، انما هي ثمار هذا الكارنيفال السنوي ؛ وفيه تبتديء اغلب علاقات الحب وتنتهي ، في هذه الأيام الثلاثة والليالي الثلاث عندما نتحرر من عبودية الشخصية المعروفة الّتي نكبل بها انفسنا . فما إن نلتف بهذا الرداء المخملي حتّى تفقد الزوجة زوجها ، والزوج زوجته ، والعاشق معشوقه ؛ ويصبح الجو حاداً بسموم الخصومات والحماقات ، بصخب المعارك ، بالبحث المكدود طول الليل ، وباليأس . انك لا تستطيع ان تعرف ان كنت ترقص مع رجل ام مع امرأة . فإن تيارات ايروس[1] القائمة الّتي تتطلب السرية الكاملة اذا كان لها أن تفيض في النفس الانسانية ، تنفجر خلال الكارنيفال كأنها كانت مخزونة ومسوراً عليها مدة طويلة ، وتمثلها اشكال مخلوقات بدائية غريبة — انحرافات اعتقد انها غذاء النفس — اشكالاً لا اخالك تظنها الا منتمية الى ظواهر نظرية مضخمة[2] او الى ابليس . وهنا يستطيع الساتير الماجن ان يكتشف الحورية الشبقة وان يتّحد معها . نعم ، كيف لا يحب الانسان الكارنيفال وفيه تُوفيّ كل الديون وترتكب الجرائم او يكفّر عنها ، وتشبع جميع الرغبات غير المشروعة — دون شعور بالذنب او تفكير مسبق ، ودون العقوبات الّتي يفرضها الضمير او المجتمع ؟

ولكني مخطيء في امر واحد — فإن هنالك شيئاً واحداً يستطيع صديقك

---

(١) آله الحب الجنسي عند اليونان .

(٢) ورد التعبير الانجليزي كما يلي : « In forms which you would think belonged to the Brocken or to Iblis. » والـ « Brocken » هو ظاهرة نظرية ترى احياناً من قمم الجبال ، كما من على قمة جبل البروكن ، او من طائرة ، عندما يكون المشاهد بين الشمس وكتلة من الغيوم . عندها يرى خياله وخيال ما حوله على الغيوم وقد تضخم نتيجة للمبالغة في تقدير المسافة ، وكثيراً ما تحوطه الوان قوس قزح . (المترجمة)

او عدوك ان يعرفك به ـ يديك . ان يدي حبيبتك ، اذا كنت قد لاحظت شكلهما من قبل ، ستقودانك اليها مهما بلغ من ازدحام المتنكرين . او قد تتفق معك على أن تلبس خاتماً مألوفاً ، كما تفعل جوستين ـ فإنها تلبس في سبابة يدها اليمنى خاتمها ذا الطبعة العاجية التي استخرجت من قبر شاب بيزنطي ـ هذه هي الوسيلة الوحيدة للتعارف ، ولكنها تكفي . (ادع الله ان لا تكون سيء الحظ كأماريل الذي وجد المرأة الكاملة في نظره في اثناء احتفالات الكارنيفال ، ولكنه لم يستطع ان يقنعها بأن تكشف قناعها وتمثل سافرة بين يديه . وقد تحدثا الليل بطوله وهما مستلقيان على الاعشاب قرب البركة يتغازلان وقد تلامس وجهاهما المغطيان بالمخمل وراحت عيونهما تتبادل النجوى والشوق . ثم ، بعد الكارنيفال ، امضى اماريل سنة كاملة يبحث عنها في ارجاء المدينة ، يبحث عن يدين اثنتين ـ كمن اصابه الجنون . ولكن الايدي تتشابه ! لقد وعدته ، هذه المرأة التي اصطفاها ، بان تعود اليه في السنة التالية وتلاقيه في نفس المكان ، وقد وضعت في اصبعها نفس الخاتم ذي الفص الاصفر . وهكذا فإنه في هذه الليلة سينتظر تينك اليدين قرب بركة الزنابق ـ يدين قد لا يراهما ابداً طول حياته . ومن يدري ؟ لعلها كانت عفريتاً او شبحاً ؟ ومع ذلك فبعد سنوات من هذا اليوم ، وفي كتاب آخر ، وفي مضمون آخر ، سوف يصادفها مرة اخرى ، ولكنه لن يلتقي بها هنا ، على هذه الصفحات التي تعقّدت تعقيداً كبيراً بقصص الحب السيئة الطالع ...)

وهكذا ، فإنك تسير في الشوارع المعتمة ، رصيناً كقاتل مجهول ، وقد تخفّت جميع آثار شخصيتك تحت الرداء والقلنسوة ، وشعرت بهواء الشتاء الرطب على أجفانك . ويرقبك المصريون الذين تمر بهم بأطراف اعينهم متسائلين ، حائرين أيبتسمون لمنظرك ام يهابونه . انهم ، في أيام الكارنيفال ، يقعون في حالة ارتباك نفسي ، فيحارون كيف يستقبلونه . واذ تمر بهم فإنك ترميهم بنظرة نارية من اعماق قناعك ، وتشعر بالغبطة اذ تراهم يجفلون ويشيحون بوجوههم عنك . ويبرز لابسو الدومينو من كل زاوية ، فرادى

وزمراً يضحكون ويغنون وهم يسيرون نحو احد البيوتات الكبيرة او احـــد الملاهي .

وتقطع ، في طريقك الى بيت آل سيرفوني ، شبكة الشوارع قرب البطريركية اليونانية ، وتتذكر كارنيفالات اخرى في مدن اخرى ، امتازت جميعهـــا ، بذلك المرح الطليق الذي لا ضابط له مما منحته الهوية المفقودة . وتذكر مغامرات غريبة عرضت لك ذات مرة . ففي زاوية شارع بارتو في السنة الماضية ، اتفق لك ان سمعت صوت ارجل تركض وصدى الصراخ ثم اعترضك بعضهم وادنى من عنقك خنجراً وهو يصيح كحيوان جريح : « هيلين ، اذا حاولت الهرب الليلة فإني اقسم بأن اقتل .. » ولكن الكلمات تموت على شفتيه اذ ترفع القناع عن وجهك ، ويتمتم معتذراً وهو يستدير ليذهب ثم لا يلبث أن ينفجر باكياً ويرمي بنفسه على حاجز حديدي . لقد اختفت هيلين ، وسوف يبحث عنها طوال الليل .

وفي مدخل احدى البوّابات المضاءة بأنوار الشارع الباهتة التي رمت عليها ظلالاً رهيبة ، ترى رجلين في الرداء الاسود وقد امسك الواحد منهما بتلابيب الآخر واشتبكا في صراع عنيف صامت . ويقعان ويتدحرجان معاً من النور الى الظلمة ثم الى النور — لا يفوهان بكلمة . وفي القرب من ملهى الايتوال ترى رجلاً معلقاً على رافدة وقد كسر عنقه . ولكنك اذ تقترب منه ترى انه دومينو اسود معلق على مسمار . اليس غريباً ان المرء ، لكي يحرر نفسه من الاثم عن طريق التنكر ، يختار لتنكره رمز حاكم التفتيش بالذات ؟ الرداء والقلنسوة اللذين كان يلبسهما قضاة محاكم التفتيش الاسبانية ؟

غير ان هناك من لا يلبس الدومينو في حفلات الكارنيفال ، فكثيرون من المحتفلين يتشاءمون من هذا الزي . او انهم قد يجدونه سميكاً ثقيلاً في غرفة مزدحمة حارة . ولذا فإنك ، إذ تسير في شوارع المدينة ، ترى عدداً من الناس في لباس المهرجين او الراعيات ، وفي لباس انطونيو وكليوبطرة ، وفي لباس الاسكندر. واذ تنعطف لتدخل من البوابة الحديدية الكبيرة في بيت آل سيرفوني

حيث تبرز بطاقة الدعوة قبل أن تصعد الى الدفء والنور والسكر في الداخل ، فإنك ستتعرف وأنت في الظلام الخارجي على أشخاص كثيرين وتلمح هيئات تحبها واخرى تخافها ــ اصدقائك ومعارفك الكثيرين الذين تشوهت هيئاتهم المألوفة فانقلبوا الآن الى مهرجين وماجنين ، اوالتفوا بالرداء والقلنسوة الاسودين وقد وحّدهم جميعهم مرح جهنمي نادر .

وتنبجس الضحكات مندفعة نحو السقف كأنها تنفجر تحت تأثير ضغط شديد ، او تحوم في الهواء المحموم كريش تفلّت من لحاف مثقوب . وتجهد فرقتا العازفين في عزف انغام الجاز المجنونة ، بايقاعاتها القصيرة المترنحة ــ كأنها ضربات مضحخة منتظمة . وتدوس الأرجل ملايين المزامير والأبواق فتعكر انسياب الموسيقى . وتتهدّل حبال الاوراق الملونة فوق اكتاف الراقصين وتتمايل كأنها أعشاب البحر الاستوائية التي تتمايل على الصخور ، ثم يدفعها الراقصون أرضاً فتترامى على البلاط المصقول .

وفي الليلة التي نحن بصددها ، الليلة الأولى من ليالي الكارنيفال ، اقام نسيم حفلة عشاء في البيت الكبير . وكانت ملابس الدومينو ملقاة على الأرائك الطويلة في البهو ، تنتظر لابسيها . وفي غرفة المائدة كان ضوء الشموع يلقي بظلاله الباهتة على جوستين ونسيم الجالسين الى المائدة ومن ورائهما لوحات الوجوه التي زينت جدران غرفة المائدة الفخمة البشعة . وجوه رسمت بالزيت ، تقابلها وجوه من لحم ودم خدّدتها امراض النفس والهموم . لقد التأمت جميعها هنا ووحّد بينها ضوء الشموع الكلاسيكي . وكان على نسيم وجوستين ، ان يذهبا بعد العشاء كعادتهما كل سنة ، الى الحفلة الراقصة التي يقيمها آل سيرفوني. وقد اعتذر نروز ، كعادته ايضاً ، عن حضور حفلة العشاء ، ولن يصل الا في تمام العاشرة ليلبس الدومينو ثم ينطلق مع الجماعة الضاحكة المثرثرة الى الحفلة .

وكالعادة ، فضل نروز ان يجيء الى المدينة راكباً جواده ، وتركه عند صديقه النجار. ولكنه في هذه الليلة ، مجاراة للاحتفال ، كان يرتدي بذلة قديمة من الصوف الأزرق وقد عقد ربطة العنق . غير انه ، لو كان قد بقي

في لباسه الريفي ، لما كان في ذلك ضير عليه ، اذ انه هو ايضاً سيلبس رداء الدومينو الاسود . وسار بسرعة وخفة في الحي العربي الضعيف الانارة وهو يمتع ناظريه برؤية المشاهد التي اعتادها ، وبسماع الأصوات التي ألفها : ولكنه الآن وقد بلغ نهاية شارع فؤاد ووجد نفسه على حدود المدينة الحديثة ، فقد شعر باللهفة الشديدة الى رؤية طلائع المتنكرين .

وكانت تقف في احدى الزوايا بعض النساء يثرثرن بأصوات حادة النبرات وقد ارتدين لباس الدومينو وعقدن النية على ارتكاب جميع انواع الحماقات والعبث والمجون . واستطاع ان يعرف من لهجتهن ولغتهن انهن من سيدات المجتمع اليونانيات . وكن يمسكن بكل من المارة ويبادرنه بعبارات السخرية والمزاح ويحاولن كشف قناعه اذا كان مقنّعاً . واضطر نروز ايضاً الى مواجهة هذا التحدي : فقد امسكت احداهن بيده وتظاهرت بعزمها على قراءة طالعه ؛ وهمست أخرى في أذنه تقترح عليه شيئاً بالعربية وقد وضعت يدها على أليّته ، وقاقت ثالثة كالدجاجة وصاحت : « ان لزوجتك عشيقاً . » واشياء أخرى فجة كهذه . ولم يستطع التكهّن إن كن قد عرفنه ام لا .

وتراجع نروز ، وانتفض ، ثم مرق من بينهن مبتسماً وراح يبعدهن عنه برفق وهو يهدر ضاحكاً للنكتة عن زوجته . وصاح بالعربية بصوت أجش وقد تذكر كليا فجأة : « ليس الليلة ، يا حماماتي . » ولما انس منهن ميلاً الى الاحتفاظ به لتلك الليلة اخذ يركض ولحقن به مسافة قصيرة في الشارع المعتم وهن يضحكن ويصحن بكلمات غير مفهومة ، ولكنه تمكن من الابتعاد عنهن بسهولة ، وانعطف في زاوية الشارع المؤدي الى البيت الكبير وهو يلهث . غير ان الابتسامة كانت تعلو شفتيه ، فقد ارضى هذا التحرش غروره وشد أوتار المتعة لذلك المساء . ولمح في البهو الصامت اردية الدومينو ملقاة على الارائك ، فارتدى احدها قبل ان يفتح باب غرفة الاستقبال حيث كان يسمع اصوات المدعوين . واخفى الرداء الفضفاض بذلته القديمة الرثة ، وكانت القلنسوة ملقاة على كتفيه .

كانوا ينتظرونه وقد تحلقوا حول الموقد ، وتلقّى تحياتهم باهتمام جاد ، وتوجه نحو جوستين فقبلها في خدها ثم دار عليهم مصافحاً وقد خيم على القاعة صمت ثقيل مرهق . كان يتكلف الاخلاص في تعابير وجهه ، وراح ينظر بشيء من الاشمئزاز الى عيني بيير بالبز القصيرتي النظر (كان يمقت لحيتـه المدببة) وكذلك الى عيني توتو دي برونيل (كلب صغير اليف تملكه سيدة هرمة) ؛ ولكنه كان يميل الى اثينا تراشا ، تلك الوردة الكبيرة المتفتحة ، فقد كانت تستعمل نفس العطر الذي تستعمله امه ؛ وكان يشعر بالأسف لدروزيلا بانوبيولا لذكائها الشديد الذي كان يفقدها مظاهر الأنوثة . اما مع بورسواردن فقد تبادل نروز ابتسامة تفاهم كأنهما شريكان في أمر ما . وقال أخيراً وهو يزفر بارتياح : « حسناً » . وناوله اخوه بحنان كأساً من الويسكي فشربه ببطء دفعة واحدة ، كما يفعل الفلاحون .

« اننا بانتظارك يا نروز » .

وقال بيير بالبز بلهجة من له حظوة خاصة : « نفي آل الحصناني » .

وصاح توتو الصغير : « المزارع » .

وعاد الجميع الى الحديث الذي قطعه عليهم دخوله المفاجىء ، وجلس هو قرب النار منتظراً ان ينتهوا من أحاديثهم ويتوجهوا الى بيت آل سيرفوني ، وقد طوى ذراعيه القويتين الواحدة فوق الأخرى كمن استسلم فقرر ان يدفن قواه جميعها نهائياً . ورأى امارات التوتر على وجه نسيم فعرف في ذلك علامة الغضب او الارهاق . وبدا جمال جوستين الأسمر الرائع في ذروته وهي مرتدية ثوبها الأحمر (بلون دم الأرنب البري) ، وتألق بين الايقونات وكأنه يتمتع بأضواء الشموع وظلالها الباهتة — يتغذّى بها ثم يعكس لمعان جواهرها البربرية . وشعر نروز باحساس كامل بالانفصال ، باللامبالاة . لقد كان يجهل معنى هذه الانذارات — انذارات المتاعب أو الضغط والارهاق — فلم يكن احد ليخترق استقلاله الذاتي الكامل ، واكتفاءه بنفسه ، الاكليا ، التي كانت تلقي ظلالاً داكنة على أفكاره . لقد كان يأمل كل سنة ان يراها بين المدعوّين في بيت أخيه ، ولكنه

كان يفتقدها بينهم في كل احتفال ، فيهيم في الظلام هيمان الشبح دونما هدف ، باحثاً عنها ، طوال الليل . انه لم يكن يأمل حقاً في ان يلتقي بها ، ومع ذلك فقد كان يعيش على هذا الطيف الهزيل من الأمل العزيز على النفس ، كما يعيش الجندي على المخصصات الغذائية النزرة .

كانوا قد تحدثوا في تلك الليلة عن اماريل وهواه التعيس ليدين انثويتين ولصوت سمعه في الكارنيفال ، وكان بورسواردن الآن يروي احدى حكاياته الشهيرة بافرنسيته المتقنة الحادة النبرات :

« عندما كنت في العشرين من عمري ، ذهبت للبندقية للمرة الاولى بناء على دعوة شاعر ايطالي كنت اتكاتب واياه ، هو الشاعر كارلو نيجروبونتي . وكانت هذه الزيارة تجربة عظيمة بالنسبة الى شاب انجليزي من الطبقة الوسطى — فقد عشت هناك في ضوء الشموع في ذلك القصر القديم المتداعي الواقع على القناة الكبرى ، وكان تحت امرتي اسطول من الجندولات وفي متناول يدي دولاب كبير مليء بالعباءات المبطنة بالحرير . كان نيجروبونتي مضيافاً ولم يأل جهداً في اكرام شاعر من زملائه خير اكرام . كان عندئذ يبلغ الخمسين من عمره رقيق الجسم ، جميلاً ، كأنه نوع نادر من البعوض . وكان اميراً ارستوقراطياً ومن عابدي الشيطان — وقد جمع في شعره تأثير بايرون الى تأثير بودلير . وكان هاوياً للعباءات وللاحذية ذات البكل وللعصي الفضية ، وشجعني على أن احذو حذوه . ولقد شعرت بأني كنت اعيش في رواية قوطية . وما كتبت قط شعراً أسوأ من ذلك الشعر الذي كتبته في تلك الأيام .

« في تلك السنة ذهبنا معاً الى الكارنيفال . ومع أننا لبسنا شيئاً نتعارف به إلا اننا افترقنا ولم نلتقِ . انكم تعرفون بالطبع ان الكارنيفال هو الموسم الوحيد الذي تتجول فيه القطّاعات[1] بحرية خارج مخابئهن ، ومن كان حكيماً حمل في جيبه رأساً من الثوم ليبعد عنه من يلتقي بها مصادفة منهن . وفي صباح اليوم

(١) النساء اللواتي يمتصصن دماء الرجال .

التالي لليلة الكارنيفال ذهبت الى غرفة نوم مضيفي فوجدته مستلقياً في الفراش شاحباً شحوب الموتى ، وقد ارتدى قميصاً للنوم ذا اكمام من الدانتيل ، وبقربه طبيب يجس نبضه : وبعد ذهاب الطبيب قال : « لقد التقيت بالمرأة الكاملة وكانت مقنّعة ، وذهبت معها الى البيت ولكنها كانت من القطّاعات . » ثم رفع قميصه بفخر عن جسمه ، فرأيت جراحاً كبيرة منتشرة فيه كأنها ناجمة عن اسنان ابن عرس . كان نيجروبونتي مرهقاً غاية الارهاق ولكنه كان متهيجاً مشبوباً وقد بان عليه العشق والوله . قال : « انك لن تدرك كنه هذه التجربة حتى تعانيها بنفسك . ان تمتص امرأة تعبدها دمك في الظلام ! » وتهدج صوته واسترسل يقول : « ان دي ساد نفسه لا يستطيع وصف هذه التجربة . انني لم ار وجهها ولكني شعرت بأنها شقراء من الشمال . لقد التقينا في الظلام وافترقنا في الظلام ، وما انطبع في ذاكرتي منها سوى صورة اسنان بيضاء ونفحة صوت معين — وما سمعت قط في حياتي امرأة تقول الأشياء التي قالتها هي . سوف التقي بها هذه الليلة ايضاً عند تمثال السبع المرمري قرب جسر قاطعي الطرق . آه يا صديقي ، كن سعيداً من أجلي . كان العالم الواقعي بالنسبة إليّ قد أصبح خالياً من المعنى ، أمّا الآن ، فبفضل حبّ هذه القطّاعة ، اشعر بأني استطيع ان أعيش من جديد واتحسس بالحب من جديد واكتب من جديد ! » وأمضى النهار بطوله وهو يكتب ، وعندما هبط الليل ، خرج في جندوله متلففاً بعباءته : لم يكن لي ان اقول شيئاً ، ووجدته في اليوم التالي وقد امتلأ جسمه بآثار العض الفظيعة . ولم يستطع ان يتحدث عن تجربته دون ان يبكي ويذرف دموع الحب والارهاق . وفي ذلك اليوم نظم قصيدته العظيمة التي تبدأ كما تعرفون جميعكم :

(شفاه لا تُطبق على الشفاه ، ولكن على الجراح
لتمتص أجسام المحبوبين المسمومة
ومن الدماء الساكنة ترتشف الغذاء
لتسقي الحب الذي يتغذّى بموتهم ...)

« وبعد أسبوع غادرت البندقية الى رافينا حيث قمت ببعض الدراسات المتعلقة بكتاب كنت اؤلفه . وبقيت هناك مدة شهرين . ولم اتسلم أية رسالة من مضيفي السابق ، ولكني تلقيت كتاباً من شقيقته تقول فيه انه مريض بداء عضال لم يستطع الاطباء تشخيصه ، وان العائلة قلقة جداً عليه لانه كان يلح على الخروج كل ليلة في جندوله في رحلات كان يرفض التحدث عنها ، ولكنه كان يعود منها مرهقاً كل الارهاق . ولم اعرف بما أجيب على هــذا .

« وذهبت من رافينا الى اليونان ،ولم اعد إلى البندقية الا في الخريف. كنت قد ارسلت بطاقة الى نيجروبونتي اخبره فيها بأني كنت آمل أن احل ضيفاً عليه ، ولكني لم أتلقّ جواباً . واذكنت أقطع القناة الكبرى في الجندول عند الأصيل ، رأيت الناس يتجمعون لجنازة ، ويركبون الجندولات في مياه مختبطة ، وقد حملوا جميع شعارات الموت ورموزه الرهيبة . ورأيتهم يخرجون مــن قصر نيجروبونتي . فنزلت الى الضفة وركضت الى البوابة لألحق بالقارب الأخير وهو يمتلىء بالمشيعين وبالقسس . وعرفت من بينهم طبيب نيجروبونتي فجلست بالقرب منه . وسار بنا الجندول في القناة والزبد يرشقنا واعيننا تطرف كلما ابرقت السماء — وروى لي الطبيب ما يعرفه عن موت صديقي . كان نيجروبونتي قد توفي في اليوم السابق ، ولما هموا بتكفين جثته وجدوا آثار العض : لعلــه عض حشرة استوائية ؟ كان رأي الطبيب مبهماً بصدده . وقال : (لم أرَ مثله من قبل في حياتي الاّ في اثناء وباء الطاعون في نابولي عندما كانت الجرذان تهاجم أجسام البشر . كانت آثار العض فظيعة فاضطررنا الى ان نرش عليها مسحوق التلك قبل أن نأذن لأخته بأن تــراه . »

ورشف بورسواردن رشفة كبيرة من كأسه ، واستمر يقول بلا شفقة : « ولكن القصة لا تنتهي هنا ؛ فيجب أن أخبركم كيف حاولت ان أنتقم له ، وكيف ذهبت بنفسي في الليل الى جسر قاطعي الطرق ، حيث كانت تلك المرأة تنتظره دائماً في الظل كما روى ملاح جندوله ... غير ان الوقت اصبح متأخراً الآن ، وعلى كل ، اني لم اتمم نسج بقية القصة بعد . »

وضج الجميع بالضحك . وانتفضت اثينا انتفاضة مهذبة ، ولفّت شالها باحكام على كتفيها . وكان نروز يصغي الى هذه الرواية باهتمام وقد فتح فاه وترغت احاسيسه : لقد سحره حديث بورسواردن بالفعل ، فقال متلعثماً : « ولكن ، هل هذا كله صحيح ؟ » وقابل الجمع هذا السؤال بضجة ضحك جديدة .

واجاب بورسواردن بشدة : « بالطبع هو صحيح . انني لم ازر البندقية قط في حياتي . »

ونهض . كان الوقت قد حان لذهابهم . وارتدوا الاردية المخملية السوداء بينما وقف الخدم السود بلا حراك ينتظرون أوامرهم ؛ وثبتوا اقنعتهم كالممثلين الذين اشبهوهم بحق ، وراحوا يقارنون بين هيئاتهم المتماثلة اذ وقفوا جنباً الى جنب أمام المرآتين الكبيرتين المثبتتين بين شجيرات النخيل . وقهقه بيير ، وراح توتودي برونيل يرشق المزاح ؛ وخرجوا وهم يضحكون الى هواء الليل الصافي ؛ قضاة اللذة والالم ، الاسكندرانيون ...

وضمتهم السيارات ، وقد راح الخدم والسائقون الحادبون يساعدونهم على استقلالها بعناية ، كأنهم بالات من البضائع الثمينة او التوابل ، وبحنان ورقة كأنهم ازهار . وصاح توتو معلقاً على هذه العناية : (انني اشعر كأنني هش : (هذا الجانب الى اعلى مع العناية ، هه ؟) . اي جانب الى اعلى ؟ . انني اسائل نفسي ؟ » لابد أنه كان الشخص الوحيد في المدينة الذي لم يكن يعرف الجواب على سؤاله الخاص .

ولما تحركت بهم السيارات مالت جوستين الى توتو وأمسكت بكمه وقالت بصوت اجش : « اريد ان اهمس شيئاً لك » . والحقيقة انه لم يكن بها ادنى حاجة الى الهمس ، فقد كان نسيم منهمكاً في مناقشة مع نروز حول امر ما وقد علت نبرات صوتيهما . اما اثينا فقد كانت تخن بصوتها وهي تكلم بيير . وهمست جوستين : « توتو ... اصغ . اريد منك خدمة كبيرة هذه الليلة . اذا شئت لقد وضعت علامة طباشير على كمك ، هنا ، عند الظهر ، وفي وقت

متأخر من المساء ، سأعطيك خاتمي لتلبسه . صه ، اريد ان اختفي زهاء ساعة ... ... لا تقهقه . » غير ان الزعيق الضاحك كان ينطلق من القلنسوة قربها . « انك سوف ستغامر وتتقمص هويتي في غيابي ، يا توتو العزيز ، اتوافق ؟ »

وخلع عن رأسه القلنسوة ليريها وجهاً مغتبطاً ، وعينين راقصتين ، وابتسامة القواد الكئيبة التي عرف بها . وهمس : « بالطبع » وقد ملأه الاقتراح بالنشوة والاعجاب . اما القلنسوة الخالية من التعابير الى جانبه من حيث خرج صوت جوستين كأنه صوت عرافة ، فقد تألقت بجمال يوحي بالموت وهي تومىء له في النور المنبعث من أضواء الشارع . ووحدتهما الأصوات والضحكات من حولهما في مؤامرة سرية صامتة . وقالت : « هل توافق ؟ »

« يا حبيبتي بالطبع » .

كان الرجلان المقنّعان الجالسان في المقعد الأمامي اشبه براهبين خرجا من دير من أديرة القرون الوسطى وراحا يتناقشان في أمور الدين البسيطة . وكانت اثينا غارقة في صدى صوتها وهي تثرثر مع بيير .

« بالطبع » .

واخذته جوستين من ذراعه وقلبت الكم لتريه العلامة التي وضعتها عليه . وقالت : « انني أعتمد عليك ، فلا تخذلني ! » وبالرغم من انها كانت لم تزل تهمس فقد خرج صوتها الأبح يحمل لهجة من اعتاد أن يأمر . وتناول يدها ورفعها الى شفتيه الشبيهتين بشفتي كيوبيد ، وقبّل الخاتم الذي كان قد نزع من اصبع فتى بيزنطي ميت ، كما يقبّل الانسان صورة مقدسة ادت له معجزة تمنّاها منذ زمن طويل ؛ كان سينقلب الى امرأة . ثم ضحك وصاح : « وستقع تبعة حماقاتي جميعها عليك . وسوف تمضين بقية أيامك ... »

« صه ! » .

وصاحت اثينا تراشا وقد اشتمت رائحة نكتة او فضيحة خليقة بأن تروى : « اية حماقات ؟ » وصاح توتو بلهجة المنتصر : « حماقاتي أنا . انا وحدي . » واتكأت جوستين الى ظهر المقعد وقد غطى القناع تعابير وجهها ، ولم تقل

شيئاً . وقالت اثينا لبيير : « انني في اشد الشوق الى الوصول فلا أكاد استطيع صبراً . » واذ عرّجت السيارة لتدخل في باب حديقة آل سيرفوني كشفت اضواؤها الامامية الآله « بان » يغتصب عنزة وقد امسك بقرنيها بيديه ورفع رأسه في نشوة من الأحاسيس . وقالت جوستين للمرة الأخيرة : « لا تنسَ » وتركته يضغط يدها شاكراً لها هذا الاقتراح الرائع . « لا تنسَ » ، وسمحت له بأن يمسك بأناملها المحلاة بالخواتم وتركتها في يده ، باردة وخالية من كل احساس ، كبقرة استسلمت للحلب . « ولكن يجب ان تخبرني بعد ذلك بكل الأحاديث الشيّقة التي ستتمتّع بها . هل توافق ؟ » ولم يستطع ان يتفوه بشيء بل اكتفى بأن تمتم « حبيبتي ، حبيبتي ، حبيبتي » ، وقبّل خاتمها بسورة من العاطفة المشبوبة هي شيمة فيمن كان محروماً من المتعة الجنسية .

ولم تكد جماعتهم الصغيرة تصل الى قاعة الرقص حتى تفرّق شملها ، كما يذوب جبل من الجليد في مياه تيار الخليج الدافئة ، وامتزجت بالحشد . وهجم على أثينا فجأة عملاق في لباس الدومينو وسحبها صارخة مولولة الى قلب الزحام ، وهو يهدر ويسكب عبارات التجديف من قلنسوته . اما نسيم ولروز وبيير فقد وجدوا أنفسهم وقد استحالوا الى ارقام ودُفعوا الى عالم لا شكل له ولا نظام — عالم من اللقاءات الغريبة المفعمة بالمغامرة ، القناع الأسود ازاء القناع الأسود ، كأنهم يمثلون نوعاً جديداً من حياة الحشرات . اما توتو فقد ميزته علامة الطباشير على كمه وأظهرت هويته بضع لحظات قبل أن يحمل بخفة الى قلب الزحام كما تعوم فلينة على ساقية . وكذلك كانت جوستين تعرف بخاتمها (ذاك الذي بحثت عنه طول الليل عبثاً) .

وانضوى كل شيء الآن في حلبة الرقص المسعورة الهوجاء ، حلبة الجاز الأسود الذي يتدفق من تزاوج السكسفون وهدير الطبول . انك لتظن ان ارواح الظلام قد سيطرت ، فعرّت قلوب المتنكرين وعقولهم من علاقات النهار المألوفة ، وغاصت بهم الى اعماق الوحشة التي القاهم فيها فقدان هويتهم ، وأطلقت شهوات المدينة المتعددة المتنوعة . لقد جرفهم التيّار جميعهم الى

سواحل شخصياتهم الضحلة ـ هؤلاء، رموز الاسكندرية، بحيرة ميتة اجاج يحيط بها صمت الصحراء المنفتحة اللامبالية، التي تتوغل الى قلب افريقيا تحت قمر ميت.

وهمنا الآن على وجوهنا بين الجماعة، يائسين، وقد اغلقت اقنعتنا علينا، ورحنا نتجول في أنحاء البيت الكبير متنقّلين من غرفة الى غرفة ومن طبقة مضاءة الى طبقة، نبحث عن شيء مألوف يمكن ان نوجه نحوه حبنا: وردة شكلت الى كم، خاتم، لفحة، خرزة ملوّنة. شيء، أي شيء يمكن ان نكتشف به احبابنا. كانت القلانس والأقنعة رموزاً خارجية لأسرار عقولنا وافكارنا الخفية ـ ولقد طفنا هنا وهناك متجردين من كل علاقة، مكبّين نبحث عن شيء واحد معين، كما يبحث رهبان الصحراء عن إلههم. وكان صخب الحفلة الكبيرة يتكاثف ويستعر حولنا شيئاً فشيئاً، ولكن المرء كان يقع هنا وهناك على هوية مألوفة، كما يقع من يقرأ نصاً مبهماً على معنىً: فهذا مصارع ثيران يشرب الويسكي في احد الممرات ويحيينا اذ نمر بنبرات صوت توني امبادا، وهذا بوتزو دي بورجو يسفر للحظة لكي تعرفه زوجته التي وقفت أمامه ترتجف. وفي الحديقة المظلمة كان يجلس اماريل على الحشائش قرب بركة الزنابق ينتظر ويرتجف هو أيضاً. ولم يجرؤ على السفور لئلا تشمئز هي من منظر وجهه اذا ما عادت الليلة في الموعد المضروب، أو تصاب بالخيبة. فعند ما يقع انسان مقنع في حب مقنع آخر ... ترى مَن مِن الحبيبين يجرؤ على السفور عن وجهه قبل الآخر؟ اترى يعيش امثال هذين العاشقين حياتهم معاً وهم مقنعون؟ (هذه أفكار تصارعت في رأس اماريل، ذاك العاشق العاطفي ... ان الحب لا يسعد الا في تعذيب النفس).

وفي احدى الزوايا رأيت غسالة تلبس على رأسها قبعة مألوفة وتحتذي حذاء معروفاً (بومبال هونفسه) وقد حشرت ضابطاً رومانياً قميء الهيئة في الزاوية، وراحت تشتمه بصوت ببغائي. واستطعت ان اميز كلمة « Salaud ». كان القنصل العام الصغير الجسم يعبّر عن انزعاجه وضيقه بحركات تمثيلية ويحاول عبثاً ان يتخلص من مخلبي بومبال العظيمين. كان المشهد ساحراً وتمتعت بمراقبتهما.

ووقعت خوذة الضابط اذ دفعه بومبال الى منصة العازفين واخذ يضربه على قفاه ضربات منتظمة تنسجم مع ايقاعات الطبل الكبير ويقبّله في الوقت نفسه قبلات مشبوبة ملتهبة . ولا شك انه كان ينتقم لنفسه انتقاماً يشفي غليله . غير أن الراقصين الآن تدفّقوا في دوّامة من الأنغام والاوراق الملوّنة والأعلام وحجبوا المشهد الممتع عن ناظري . وحُشرنا معاً جسماً الى جسم ، وقلنسوة الى قلنسوة وعيناً الى عين . ودفعتنا الموسيقى في دوائر متتابعة متلاحقة . ولا جوستين بعد .

طيراسياس الشيخ
ليس هناك من هو طروب
ومـــن هو حـــر
كطيراسياس الشيخ .

ولا بد ان الساعة كانت تقارب الثانية بعد منتصف الليل عندما شبّت النيران في احدى مداخن الطبقة الاولى من المنزل . ولم تكن نتائجها ذات خطر ، بل انها ابهجت الحاضرين اكثر مما ارعبتهم . وكنت ترى الخدم يهرعون هنا وهناك ؛ ولمحت سيرفوني يركض سافراً الى الدور الاعلى ، ثم سمعت رنين جرس التلفون . وانتشرت غيوم الدخان المشبعة بروائح الزفت كأنها منبعثة من هوة سحيقة . ثم وصلت بعد دقائق احدى سيارات المطافىء ، وقد طبّق زعيق صفارتها الآفاق ؛ وامتلأت القاعة برجال المطافىء في ملابسهم الغريبة وقد حملوا معهم السطول والفؤوس . وحياهم الجمع بالهتافات والتهليل اذ شقّوا طريقهم الى الموقد الذي شبّ فيه الحريق وهدموه بفؤوسهم . وكان بعضهم قد صعد الى السطح وأخذ يصب الماء في المدخنة . وكان من جراء هذا أن امتلأ الدور الاول بسحابة كثيفة من القتام أشبه بضباب لندن . وتجمّع المقنّعون يصرخون مسرورين ويرقصون كالدراويش . هذه هي انواع المفاجآت التي تجعل مـــن الحفلة حفلة ناجحة . لقد وجدت نفسي اصرخ معهم . واعتقد انني كنت ثمـــلاً الآن .

وفي البهو الكبير المفروش بالسجاد كان جرس التلفون يرن ويرن خارقاً الضجيج برنينه . ورأيت أحد الخدم يجيب عليه ثم يضع السماعة على الطاولة ويبحث في أرجاء القاعة ككلب صيد مدرّب وسرعان ما عاد بنسيم سافراً . وتكلم نسيم بالتلفون بسرعة ونفاد صبر ، ثم وضع هو أيضاً السماعة على الطاولة وجاء الى طرف حلبة الرقص وراح يحملق في الراقصين بقوة . وسألته وأنا ارفع قناعي وانضم اليه : « هل حدث شيء ؟ » فابتسم وهز برأسه وهو يقول : « انني لا أرى جوستين بين الراقصين . كليا تريد أن تكلمها . اتراها انت ؟ » واحسرتاه ! لقد كنت ابحث عبثاً طول المساء عن خاتمها . وانتظرنا ونحن نرقب دوران الراقصين البطيء ، وقد دققنا النظر كصيادين ينتظران ان تمسك السمكة بالطعم . وقال هو : « لا » ، ورددت انا قوله : « لا » . وجاء بيير بالبز وانضم الينا وهو يرفع قلنسوته وقال : «كنت أرقص معها منذ لحظة . لعلها خرجت الى الحديقة . »

وتوجّه نسيم الى التلفون وسمعته يقول : « انها هنا في مكان ما . نعم ، بكل تأكيد ، لا ، لم يحدث شيء . لقد رقص بيير معها الرقصة الأخيرة . حشد كبير . لعلها في الحديقة . اهناك اية رسالة تريدين ان اخبرها بها ؟ هل اطلب اليها ان تخابرك ؟ حسناً . لا . شبت النار في احدى المداخن فقط وقد اخمدت الآن . »

وأعاد السماعة الى مكانها والتفت نحونا ؛ وقال : « على كل حال ، لقد ضربنا موعداً ان نلتقي في البهو في تمام الساعة الثالثة ، سافرين » .

وهكذا دارت الحفلة حولنا ؛ ورأيت رجال المطافيء ينضمون الى الراقصين بعد أن ادوا مهمتهم . ولمحت غسالة ضخمة الجثة يحملها اربعة شياطين ذوو اثداء كبيرة ، ويسيرون بها محاطين بالهتاف الصاخب . ولاشك ان بومبال قد وقع صريعاً بتأثير نوع الويسكي المفضل لديه . كان قد اضاع قبعته ولكنه احترس سلفاً من هذا الأمر فوضع على رأسه شعراً مستعاراً كثيفاً أشقر ؛ ومن غير المحتمل ان يكون قد عرفه احد وهو في هذا الزي .

وفي تمام الثالثة دخلت جوستين الى البهو من الحديقة وقد اسفرت عن وجهها : وكنت انا وبيير قد صممنا على ان لا نقبل عرض نسيم بأن يأخذنا في سيارته الى البيت ، بل أن نبقى ولسهم في الحفلة التي كانت قد بدأت تفتر قليلاً الآن . كانت جماعات الاصدقاء تلتقي هنا ثم تغادر الدار ، فتهرع السيّارات الى البوّابة لملاقاتهم . وقبّل نسيم جوستين برقة وسألها : « اين خاتمك ؟ » سؤال كنت انا اتحرق شوقاً الى أن اطرحه عليها ، ولكني لم اجروْ . وابتسمت ابتسامتها البريئة الآسرة وقالت : « لقد خطفه توتو من أصبعي منذ دقائق في اثناء رقصة معه . اين الوحش الصغير ؟ اريد الخاتم . » واندفعنا نبحث عن توتو في ارجاء الدور الاول ولكنا لم نعثر له على اثر — فقرر نسيم اخيراً ، وكان متعباً ، ان يعتبر ان توتو قد غادر المكان . ولكنه لم ينس ان يوصل رسالة كليا الى جوستين . ورأيت حبيبتي تذهب طيّعة الى التلفون وتدير القرص طالبة رقم صديقتها . وتكلمت برهة بصوت منخفض وقد بدت عليها امارات التكتم ، وسمعتها تقول : « بالطبع انا بخير » ؛ ثم تحيـــي كليا تحية المساء . وخرجت الآن مع نسيم الى ضوء القمر المتضائل وذراعها في ذراعه . وتعاونت مع بيير على مساعدتهما في الدخول الى السيارة . وكان سليم يجلس جامداً الى مقود السيارة بتقاسيم وجهه البازية . وصاحت جوستين : « عم مساء ؟ » ولمست وجهي بشفتيها هامسة : « غداً » . وسجعت الكلمة في سمعي كأغنية ، كصفير طلقة نارية ، اذ نكصنا على اعقابنا عائدين الى البيت المضاء . كانت تبدو على وجه نسيم رصانة ابليسية غريبة ، كمن يستريح بعد انفاقه جزءاً كبيراً من طاقته .

وفي الداخل سمعت من يقول بأنه سمع صوت شبح يتمتم في المخزن . وعلا ضحك كثير . وزعقت اثينا : « لا ، ولكني اؤكد لكم اننا كنّا نجلس على الأريكة ، جاك وأنا . اليس كذلك يا جاك ؟ » وبرز الآن طيفٌ مقنّع ونفخ في وجهها بمزمار ثم تراجع . وساورني هاتف بأنه توتو ونزعت قناعه فـــبرز أمامي وجه كلو مارتيننجو . وقالت أثينا : « ولكني أؤكد لكم أنه أطلق كلمة

واحدة في نغم نائح — شيئاً مثل ::: » وتقلّصت تقاطيع وجهها في تكشيرة جهمة ثم ناحت بصوت من يغني تهويدة لطفل ينام: [1]« Justice ... Justice » وضحك الجميع ، وقلدها عدة اشخاص : « Justice » — وهدر شخصٌ في رداء الدومينو وهو يندفع صاعداً على الدرج : « Justice » .

ثمّ وجدت نفسي وحيداً ، واكتشفت ان ترددي وقنوطي قد استحالا الى جوع ورغبة في الطعام ، فقطعت حلبة الرقص بحذر في اتجاه غرفة الطعام حيث كنت اسمع صوت فتح زجاجات الشمبانيا . كانت الحفلة لم تزل في اوجهـا والراقصون يتمايلون كالغسيل المبتل في الرياح القوية ، وانغام السكسفون تنوح كقطيع من صغار الخنازير . وفي احدى المقصورات جلست دروزيلاّ بانوبيولا وقد رفعت ثوبها حتى بدت ركبتاها الجميلتان ، بينما راح مهرجان يضمدان كعب رجلها المصدوع . ولا بد أنها قد وقعت او أن احدهم قد دفعها ارضاً : وفي كرسيّ وراءها كان ينام ساحر افريقي على عينه مونوكل : وفي الغرفـة الثانية جلست امرأة في ثياب السهرة الى بيان كبير وراحت تعزف عليه أنغام الجاز وتغني وقد فاضت عواطفها وانهمرت الدموع الغزيرة من عينيها وسالت على وجهها ؛ بينما حام حولها رجل سمين هرم في زي فينوس دي ميلو ، وكان يبكي هو ايضاً ، وبطنه يرتجف .

غير ان غرفة الطعام كانت هادئة — وهنا وجدت بورسواردن سافراً وثملا بعض الشيء ، وكان يتحدث الى ماونت اوليف بينما تنقّل هذا الأخير في مشيته الغريبة التي يظلع بها قليلاً وهو يملأ صحنه بقطع من الديك الرومي البارد والسلطة . كان بورسواردن يندد بآل سيرفوني لأنهم قدموا السبومانتي بـدل الشمبانيا . وصاح يخاطبني : « إحذر منه ، ان في كل رشفة صداعاً . » ولكنه ملأ كأسه مرة ثانية ، ورفعه الى شفتيه بثبات مبالغ فيه . وتأملني ماونت اوليف برقة وأنا اتناول صحناً ، وحيّاني باسمي بارتياح قائلاً : « دارلي ، ظننتك

---

1 — معنى الكلمة الانجليزية المكررة اعلاه : « العدل ... العدل » ولكننا ابقينا على اللفظة الانجليزية لاظهار تقاربها مع كلمة « جوستين » . (المترجمة)

للحظة احد سكرتيريّ . لقد كانوا يتبعونني طول المساء ، وعكّروا علي مرحي ؛ ان إيرول يرفض ان يخرق قواعد البروتوكول ويغادر المكان قبل رئيس البعثة ؛ ولذا فإني اضطررت الى الاختباء في الحديقة حتى ظنوا بأني قد ذهبت ، الاعزاء المساكين . عندما كنتُ موظفاً صغيراً كنت كثيراً ما ألعن الوزير المفوض لأنه كان يبقيني طويلاً في حفلات مضجرة حتى اني اقسمت بأن لا أترك مرؤوسيّ يعانون ما عانيته اذا ما أصبحت يوماً رئيساً للبعثة . » لقد كانت قدرته الفائقة على الحديث السلس تقرّ به حالاً للنفس ، مع أني كنت أدرك أن اسلوبه كان اسلوباً مهنيّاً ، اسلوب الدبلوماسي الدرِب . لقد امضى سنوات طويلة يدرب نفسه على مجاملة مرؤوسيه وملاطفتهم واشعارهم بالارتياح ، مخفياً عنهم ما ملأ نفسه من شعور التنازل نحوهم ، حتى استطاع ان يوطد لنفسه اخيراً اسلوباً خاصاً غلبت عليه مظاهر الاخلاص المهني — اسلوباً بدا صادقاً للعيان ، ولكن ما كان ابعده عن الصدق واقربه الى الزيف ! لقد تميز بكل اخلاص التمثيل العظيم . ولذلك فقد ازعجني ان آنس في نفسي ميلاً إليه . ودرنا الآن معاً ببطء حول الموائد نملأ صحنينا ونتحدث .

وقال بورسواردن يشاكسه مداعباً : « ماذا رأيت في الحديقة يا دافيد ؟ » وتأمله الوزير هنيهة كمن يود تحذيره من أن يقول قولاً فيه رعونة وتسرع . ثم أجاب مبتسماً وهو يتناول كأساً : « لقد رأيت اماريل العاشق قرب البحيرة — يتحدث الى امرأة في لباس الدومينو . لعل احلامه تحققت . » كان هوى اماريل قد ذاع صيته بين الجميع . « آمل هذا » .

والحف بورسواردن في السؤال بتحدّ قارب التبذل ، كأنه يشاركه سراً خاصاً : « وماذا أيضاً . من رأيت أيضاً يا دافيد ؟ » كان ثملاً بعض الشيء ، وبالرغم من الود الظاهر في لهجته ، فإن صوته لم يخل من نغم المشاكسة والمعاسرة . وتضرّج وجه ماونت اوليف ونظر الى صحنه .

وتركتهما عند هذا الحد ، وعدت ادراجي متزوداً بصحن مليء وكأس من الشراب . وشعرت في أعماقي ببعض الاحتقار لبورسواردن وبتعاطف كبير

مع ماونت اوليف لما وقع فيه من حرج. وكنت الآن أميل الى الوحدة، الى الأكل في صمت والتفكير بجوستين . وفي طريقي ، تعرضت حمولتي من الطعام الى الوقوع ارضاً عندما اصطدمت بثلاث من عذارى آلهة الاغريق وقد صبغن شفاههن بأحمر الشفاه القاني ، ولكن سرعان ما تبين المرء انهن رجال من اصواتهم العميقة المخرج : كانوا يتعاركون في البهو ويهاجم الواحد منهم اعضاء الآخر الخاصة وينبحون بمرح كالكلاب. وطرأ لي فجأة الآن ان أذهب الى المكتبة فلا شك انها كانت خاوية في مثل هذه الساعة . وتمنيت ان اجد فيها مخطوطة كافافي الجديدة وان ألقاها في متناول اليد. كان سيرفوني هاوياً شهيراً لجمع الكتب .

ورأيت في الدور الأعلى رجلاً سميناً ذا ساقين نحيفتين مرتدياً زي الفتاة « ذات القبعة الحمراء » في قصة الفتاة الحمراء والذئب ، وقد وقف يقرع باب احد المراحيض . وكان الخدم منهمكين في ازالة آثار القتام عن السجاجيد بالمكانس الكهربائية ، ويتهامسون . وكان ينبعث صوت من احدى غرف النوم ، ومن احد الحمامات في الدور السفلي سمعت صوت قيء منتظم عالي الجلبة . ووصلت الى الدور الاعلى ودفعت الباب المحكم برجلي فانفتح . وكانت الغرفة المستطيلة خاوية الا من شيطان يجلس في مقعد كبير قرب الموقد وعلى ركبتيه كتاب . وخلع نظارتيه ليتمكن من رؤيتي فعرفت فيه كابوديستريا . ورأيتُ انه اختار الزي الذي يلائمه اشد الملائمة ويناسب شكل انفه الشبيه بالمنقار وعينيه الصغيرتين الحادتين المتقاربتين . وصاح بي : « تعال . لقد خشيت ان يكون القادمون بعض المتغازلين— وفي تلك الحالة ... Toujours la politesse، فإني كنت مضطراً أن ... — ما الذي تأكله؟ ان نيران الموقد بديعة . كنت الآن ابحث عن عبارة مأثورة اقلقت بالي كل المساء . »

وتوجهت نحوه ووضعت صحني المليء بالطعام على منضدة بيني وبينه ليشاركني طعامي . وقلت : « لقد جئت لأطلع على مخطوطة كافافي الجديدة . »

فأجاب : « ان جميع المخطوطات مقفل عليها . »

« حسناً » .

وسمعت النار تطقطق في الموقد المتوهج قربنا . وكانت الغرفة هادئة تسر العين بحيطانها المليئة بالكتب المنتقاة . وخلعت ردائي وجلست بعد أن درت حول رفوف الكتب استطلع عناوينها استطلاعاً اولياً . وفي تلك الأثناء كان داكابو قد انتهى من نقل ملاحظة وجدها في الكتاب الى ورقة معه . وقال بشرود :

« ان امر والد ماونت اوليف غريب محير . هل عرفت انه هو مدقق هذه المجلدات الثمانية الضخمة من النصوص البوذية ؟ »

« لقد سمعت بالأمر . »

« كان الرجل قاضياً في الهند . ولما احيل على التقاعد بقيّ في الهند ولم يزل فيها . انه اعرف الاساتذة الاوروبيين بنصوص « بالي » يجب أن أقول ... ماونت اوليف لم يره منذ عشرين سنة تقريباً ويقول إنه يلبس زي « السودها » ، انكم معشر الانجليز غريبو الأطوار . فلم لايعمل الشيخ في نصوصه في اكسفورد؟ »

« قد يكون هذا بسبب الطقس . »

« قد يكون كذلك . ها هو ، هذا ما ابحث عنه — لقد كنت اعرف اني سأجده في المجلد الرابع . » وأطبق الكتاب بقوة .

« ما هو ؟ »

وأمسك الورقة امام النار ، وقرأ ببطء وبلذة ظاهرة العبارة التي نقلها :

« ان ثمرة الخير والشر هي نفسها ، لا تعدو ان تكون طيناً ؛ نعم ، والتفاحة نفسها انما هي تفاحة من التراب » .

قلت : « هذا ليس نصاً بوذياً بالطبع . »

« لا ، لقد كتبه والد ماونت اوليف نفسه — في المقدمة : »

« اعتقد ان ... »

ولكنّ صراخاً مشوشاً انبعث الآن من مكان قريب فقطع عليّ حديثي ، وتنهد كابوديستريا قائلاً بكآبة : « لست أدري بحق الشيطان لمَ أشترك في هذا الكارنيفال اللعين كل سنة ! » وجرع كأسه من الويسكي دفعة واحدة وأضاف :

« ان فترة الكارنيفال فترة نحس وسوء طالع — أعني بالنسبة إلي . وفي كل سنة

تقع حوادث بشعة . وهذا يولّد في الانسان شعوراً بعدم الارتياح . فمنذ سنتين وجد ارنيل مشنوقاً في قاعة الموسيقيين في بيت آل فونتانا . امر مضحك ؟ اليس كذلك ؛ ولكن اذا كان قد انتحر انتحاراً فقد برهن بلا شك على منتهى قلة الذوق . ثم تبارز مارتين فيري مع جاكومو فورتي ... ان هذا يبعث الشيطان من مكمنه . ولذا فإني تنكرت في هيئة شيطان . انني البث هنا منتظراً ان يجيء الناس ويبيعوني أرواحهم . هه ! » ونشق أنفاسه وفرك يديه محدثاً صوتاً خشناً وقهقه قهقهته الجـافة القصيرة . ثم نهض وهو يـأكل آخر قطعة من لحم الديك الرومي وقال : « يا إلهي ! هل تعرف كم الوقت الآن ؟ يجب أن اذهب الى البيت . إن شيخ الشياطين حان وقت نومه . »

قلت وقد تملكني شعور الخيبة لأني لم أستطع ان القي نظرة على خط الشاعر الشيخ : « وأنا كذلك . وأنا كذلك . »

وقال اذ خرجنا من باب المكتبة المحكم الى جو البهو المفعم بأنغام الموسيقى : « أتود ان اوصلك في سيارتي ؟ من العبث ان تفكر في توديع مضيفنا . ومن المحتمل ان يكون سيرفوني . في فراشه الآن . »

ونزلنا الدرج ببطء الى القاعة الكبرى ونحن نتحدث . كانت الموسيقى تنساب بلا انقطـاع . وأحكم داكابو تثبيت قناعه فبدا في صورة شيطان رهيب . ووقفنا لحظة نرقب الراقصين ثم تثاءب وقال : « حسناً . هنا يجدر بنا ان نردد قول كافافي في قصيدته « الله يتخلىّ عن انطونيو » . عم مساء. انني لا استطيع ان اتغلب على النعاس وابقى يقظاً اطول من هذا ، مع اني اخشى ان تكون السهرة حافلة بالمزيد من المفاجئات . فهذا من شيم سهرات الكارنيفال . »

وبرهنت الأحداث على انه لم يكن مخطئاً . فبعد ذهابه طفت قليلاً هنا وهناك وأنا ارقب الراقصين ، ثم نزلت الدرج وخرجت الى برودة الليل المعتم . كانت بعض السيارات لم تزل جاثمة في الخارج ولم يزل بعض الخدم ينتظرون قـرب البوابة . ولكن الشوارع كانت فارغة تقريباً من المارة ، فكان لوقع أقدامي على الرصيف صدى غريب يؤذي السمع . وفي زاوية شارع فؤاد رأيت بغيين

اوروبيتين تستندان الى حائط وتدخنان، ونادتاني مرة واحدة بصوت خشن، كانت كل واحدة منهما تضع زهرة مانوليا في شعرهـــا .

وعرجت في طريقي على « الايتوال » لأرى اذا كانت ميليسا هناك ــ ولكن المكان كان خاوياً الا من عائلة سكرى رفضت ان تذهب الى البيت بالرغم من أن «زولتان» كان قد رفع الكراسي فوق المناضد بالقرب منها . وقال لي النُدُل القميء : « لقد ذهَبتْ باكراً ، وذهب كذلك العازفون ، وبقية الفتيات . الجميع ذهبوا الا هذه العائلة اللعينة من اسوان . ان للرجل اخاً في الشرطة ولذا فإننّا لا نجروُ على الاقفال » . وقام الآن رجل سمين من بين الجماعة وأخــذ يرقص ويقوم بحركات مضحكة بردفيه وبطنه والجماعة تصفق له تصفيقاً ايقاعياً . وغادرت المكان ومررت بالقرب من مسكن ميليسا الرث لأرى اذا كانت مستيقظة . كنت اشعر بالحاجة الى التحدث مع انسان ما ؛ لا ، كنت في الحقيقة اريد أن استعير منها سيجارة. هذا كل ما في الأمر . بعد ذلك ، اذ أنــا معها ، كنت خليقاً أن تنتابني الرغبة في معاشرتها ــ في أن امسك بذلك الجسد النحيل المحبوب مستنشقاً فيه روائح الخمر والسجائر الحامضة ومفكراً طول الوقت في جوستين . غير ان نافذتها كانت معتمة ؛ فإما انها كانت نائمة او أنها كانت خارج البيت . لقد قال زولتان بأنها قد غادرت الملهى بصحبة جماعة من رجال الأعمال متنكرين في لباس الاميرالية ــ « Des petits commerçants quelconques » . قال هذا باحتقار ثم بدت في عينيه نظرة اعتذار .

لا . كان مقدراً لليلتي ان تكون فارغة . وكان القمر النحيل يرمق امواج المرفأ ، بينما تدافع البحر يلعق أخشاب الرصيف في الميناء ، وتلاشت خطوط الشاطىء في بياض الزبد وتبددت طلائعه الناصعة الملتمعة كالميكا في البحر الرمادي البراق تحت ضوء القمر . ووقفت برهة على الكورنيش امزق سفينة من الورق بين أصابعي قطعة فقطعة . كانت كل مزقة تلاقي نهايتها الأكيدة ، وتقع الى حيث لا رجعـــة ، كعلاقة انسانية . ودرت الآن على اعقابي وعـــدت الى البيت وانا اهوم واعيد في عقلي كلمات داكـــابو : « سيكون الليل حافـــلاً

بالمفاجئات . »

ولا شك ان هذه المفاجئات كانت قد بدأت تحدث الآن في بيت آل سيرفوني ، ولكني لم أعرف ذلك الا في اليوم التالي . وبالرغم من أنها كانت حقاً من المفاجئات ، فإن الناس تقبّلوها بما يلائم طبيعة المدينة ، مدينة بلغ فيها الاذعان للقدر حداً بعيداً ، حتى لتكاد ان تكون مدينة مسلمة كلياً . فليس في الاسكندرية جميعها من هو قادر على الدهشة العميقة او الارتياع ؛ أمّا المأساة فتعيش بيننا لتعطر الأحاديث وتلونها ؛ والحياة والموت هما مغامرات القدر التي لا يمكن تجنبها ولا يستحقان من الانسان الا الابتسام . وهما ، اذا ما دخلا في حديث الناس دبت فيه الحرارة والحماسة . فما ان تخبر اي اسكندرانيّ بخبر سيء حتى تتدفق من شفتيه الكلمات التالية : « لقد كنت اعرف ان شيئاً من هذا لا بد ان يقع . ان هذه الأمور تحدث دائماً . »

وعلى هذا الشكل سارت الأمور الآن ، وهذا هو ما حدث :

كان في مخزن آل سيرفوني عدة أرائك قديمة الطراز تراكمت عليها ليلة الاحتفال جبال من المعاطف والشالات المسائية . واذ اخذ الراقصون يعودون الى البيت ، بدأ خلع اردية الدومينو والبحث عن المعاطف والفراء . واعتقد ان بيير هو الذي اكتشف الجثة عندما كان يبحث بين أكوام المعاطف الهائلة عن سترته المخملية التي خلعها في بدء السهرة . على كل حال ، كنت انا قد غادرت المكان الى بيتي .

اكتُشف توتو دي برونيل في رداء الدومينو وهو بعد دافيء وقد رفع يديه الى صدغه كما يفعل كلب استلقى على ظهره ليحك بطنه . كان مدفوناً تحت اكوام المعاطف . وكانت احدى يديه قد حاولت ان تصل الى صدغه المشؤوم ، ولكن المحاولة اوقفت عند حدها قبل أن تتم ، وبقيت هناك ، اعلى قليلاً من اليد الثانية كأنما تشير بقضيب موسيقي غير مرئيّ . وكان دبوس قبعة بومبال قد دفع جانبياً في رأسه بقوة هائلة فشكله الى قلنسوته المخملية كما تشكل الفراشة . كانت اثينا قد عاشرت جاك على الأريكة فوق جثته المغطاة بالمعاطف — شيء

خليق بأن يبهجه جداً في الأحوال العادية ، ولكنه كان ميتاً – توتو المسكين – وفوق كل شيء كان لم يزل يلبس في اصبعه خاتم حبيبتي . « Justice »

« بالطبع ، ان شيئاً كهذا يحدث دائماً . »

« بالطبع . » كنت لم أزل دائخاً ثقيل الأجفان .

« ولكن توتو – هذا غير متوقع ، في الحقيقة . »

كان هذا بالثازار – وقد خابرني حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ليروي لي القصة كلها . ولم تبد القصة لي ، وأنا في غمرة ذلك النعاس والذهول ، مجرد قصة غير متوقعة ، ولكنها بدت لي قصة غير معقولة بتاتاً وبعيدة عن التصديق كل البعد . « سيجري تحقيق بالطبع واخذ افادات – ولهذا فقد خابرتك . ان نمرود سيسهل الأمر بقدر الامكان ، ولا ضرورة لأخذ افادات الجميع ، بل تكفي إفادة شاهد واحد ممن حضروا الحفلة . وقد رأت جوستين ان تكون انت ذلك الشاهد اذا لم يكن لديك مانع ؟ حسناً . بالطبع . لا ، لقد ايقظني آل سيرفوني في الرابعة الا ربعاً وكانوا مضطربين جداً من الحادث . فذهبت الى بيتهم فوراً ... لاقوم بما يلزم . اخشى انهم لم يدركوا بعد كنه القضية بوضوح . الدبوس ينتمي الى القبعة – نعم ، صديقك بومبال ... حصانة دبلوماسية ، بالطبع . ومع ذلك فقد كان ثملاً جداً كذلك ... بالطبع ، من غير المعقول ان يكون هو مقترف الجريمة ، ولكنك تعرف البوليس . امستيقظ هو الآن ؟ » لم أكن قد جرؤت على ايقاظه في مثل هذه الساعة المبكرة ، وقلت هذا لبالثازار . فأجاب : « على كل حال ، ان موت توتو قد هزّ أوساطاً كثيرة ، ولم تنج من ذلك المفوضية الفرنسية . »

فقلت بصوت مختنق وقد تجمّعت في عقلي انذارات الشهور الأخيرة بكل قوتها ، وتراكمت على كاهلي : « ولكنه كان يلبس في اصبعه خاتم جوستين . » كنت اشعر بالحمى فاستندت هنيهة الى الحائط قرب التلفون . وبدا لي صوت بالثازار الحلي المرح وحديثه الموزون أقرب إلى السماجة . وساد الصمت برهة ، ثم قال وهو يضحك بهدوء : « نعم ، عرفت قصة الخاتم ، ولكن هذا أيضاً

لا يوضح الأمر ، من الصعب أن يكون هو الدافع على الجريمة . لقد كان توتو معشوق امار الغيور كما تعلم . إن لدينا عدداً كبيراً من الاحتمالات ... »
وقلت : « بالثازار » ثم اختنق صوتي .
« سأخابرك اذا جد جديد . اما التحقيق فموعده في السابعة مساء في مكتب نمرود . سأراك هناك ، اليس كذلك ؟ »
« حسناً . »

واعدت سماعة التلفون الى مكانها ، واندفعت كالقنبلة الى غرفة نوم بومبال . كانت الستائر مسدلة والسرير في حالة فوضى فظيعة تدل على انه قد استعمله . وكان حذاؤه وعدة أشياء أخرى من ثوب الغسّالة منتشرة هنا وهناك في انحاء الغرفة مما اكد لي انه قد عاد بالتأكيد إلى البيت في الليلة الماضية . اما شعره المستعار فقد عرفت بعد ذلك أنه كان قد وقع منه خارج البوابة ، فقد سمعت ، حوالي منتصف النهار ، صوت خطواته الثقيلة وهو يصعد الدرج ثم دخل وفي يده الشعر المستعار .

وقال على الفور باختصار : « لقد انتهيت ، انتهيت ، Mon ami » . وبدا محتقن الدماء اذ توجه نحو كرسي « داء المفاصل » كأنه يتوقع نوبة مفاجئة من مرضه الخاص ذاك . واعاد قوله : « انتهيت » ، وهو ينهار في الكرسي ويتنهد ويتمطّى . وشعرت بالتشويش والذهول وانا أقف هناك في منامتي . وصعد بومبال زفرة ثقيلـــة .

ثم قال وقد أطبق فكيه في تكشيرة كئيبة : « لقد اكتشفت مفوضيّتي كل شيء . لقد تصرفت تصرفاً رديئاً جداً ... نعم ... القنصل العام يعاني انهياراً عصبيّاً اليوم ... » ثم على حين غفلة بدأت الدموع تنهمر من عينيه ، دموع هي مزيج من الحنق والتشوش الفكري والهيستيريا . وقال وهو يعطس : « هل تعرف ؟ ان المكتب الثاني يظن اني ذهبت الى الحفلة خصيصاً لكي أغرز دبوساً في دي برونيل ، افضل عملائنا هنا واكثرهم اخلاصـــاً ! »

وانفجر الآن يبكي وينهق كالحمار ، ولكن دموعه كانت تتحول الى ضحك

طول الوقت ؛ ومسح عينيه المنهملتين ولهث وهو يبكي ويضحك في الوقت نفسه ، ثم تدحرج من كرسيه الى السجادة كالخنزير وهو لم يزل فريسة هـذه التشنجات القاهرة ، وبقي هناك برهة يهتز ، ثم أخذ يتدحرج ببطء الى افريز الحائط وأخذ ، وهو لم يزل يهتز بالضحك والبكاء معاً ، يدق رأسه بالحائط دقات ايقاعية متتالية ، ويصرخ مع كل دقة تلك الكلمة الرائعة المفعمة بالمعاني — خلاصة اليأس وزبدته :[1] « Merde . Merde . Merde . Merde . Merde . »

وقلت بصوت ضعيف : « بومبال ، بحق السماء ! »

وصرخ من مكانه على الأرض : « اذهب . انني لن أقلع عن هذا حتى تذهب . أرجوك ان تذهب . » وتركت الغرفة اشفاقاً عليه ، واغتسلت بالماء البارد وبقيت في الحمام الى ان سمعته يأكل شيئاً من الخبز والزبد من النملية . وجاء الى باب الحمام ودق عليه قائلاً : « أأنت هنا ؟ » « نعم » . فصرخ خلال الشق في الخشب : « إنس كل كلمة قلتها لك . ارجوك ، إه ؟ »

« لقد نسيتها . »

« حسناً . أشكرك . Mon ami »

وسمعت خطواته الثقيلة تتراجع نحو غرفته . ولبثنا ذلك النهار في فراشنا صامتين حتى حان موعد الغداء . وفي الواحدة والنصف جاء حميد وأعد لنا غداء لم يكن لدينا الشهية الكافية لتناوله . وفي ابان الغداء رن جرس التلفون وذهبت لأجيب عليه . كان المتكلم جوستين . ولا شك انها كانت تعتبرني مطلعاً على حادث توتو دي برونيل لانها لم تذكره مباشرة ؛ بل قالت : « اريـد خاتمي الرهيب . لقد استرجعه بالثازار من البوليس . اعني ذاك الذي اخـذه توتو . نعم . ولكن يبدو أن واحداً منا يجب أن يتعرف عليه ويوقع وصـلاً بتسلمه . ابان التحقيق . الف شكر لتبرعك بالذهاب . ويمكنك ان تتصور ان نسيماً وأنا ... انها قضية شهادة فقط . وبعد ذلك يا حبيبي ، قد نلتقي وتعيده

---

١ – بئس الامر .

إلي : نسيم مضطر الى السفر الى القاهرة في الطائرة عصارى اليوم لأمر يتعلق بأعماله . هل نلتقي في التاسعة في حديقة « اورور » ؟ هذا سيعطيك متسعاً من الوقت . كم اود ان اتحدث اليك ! نعم . يجب ان اذهب الآن . اشكرك مرة ثانية . اشكرك . »

وجلست الى وجبة الطعام من جديد — وكنت انا وبومبال اشبه بأسيرين يثقلهما شعور الاثم والارهاق . وحام حميد حولنا يرعانا بحنان وصمت . اترى كان يعرف ما يشغلنا ويقلق بالنا ؟ كان من المحال ان يقرأ الانسان شيئاً على تلك التقاسيم المجدورة ، وفي تلك العين الوحيدة الحولاء .

١١

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلت من سيارة الاجرة في ميدان محمد علي وسرت الى دائرة الشرطة المركزية حيث مكتب نمرود : كنت لم أزل أشعر بالدوار لما طرأ من الأحداث ، وقد اثقلتني الاحتمالات المرهقة التي بعثتها هــذه الطوارىء في فكري — نذر الاشهر الأخــيرة التي عشتها من أجل انسان واحد في العالم — جوستين . كنت نافد الصبر اتحرق شوقاً الى رؤيتهــا مرة ثانية .

كانت الحوانيت مضاءة الآن ، ودكك الصرّافين مزدحمة بالبحارة الافرنسيين يبدّلون فرنكاتهم من أجل الطعام والخمر ، والحرير والنساء ، والصبيــة والأفيون — كل ما يمكن ان يتخيله الانسان من انواع الملهيات الباعثة عــلى السلوان . وكان مكتب في الجهة الخلفية من بناية رمادية قديمة الطراز مطلة على الشارع . وبدت مهجورة الآن ، ممراتها فارغة ومكاتبها مفتوحة الابواب . كان جميع الكتبة والموظفين قد ذهبوا عند انتهاء الدوام في الساعة السادسة — فكان لوقع خطواتي المتلكئة صدى مسموع اذ سرت امام غرفة البواب الخاوية وفي الممرات امام الأبواب المفتوحة . وبدا غريباً ان يسير الانسان بكل هــذه

الحرية في دائرة الشرطة فلا يتعرض له احد . وفي آخر الممر الثالث انتهيت الى باب مكتب نمرود وقرعته . وسمعت أصواتاً في الداخل . كان مكتبه واسعاً فخماً يتناسب مع منصبه ، وتشرف نوافذه على ساحة عارية يُقوق فيها الدجاج وينقر الأرض الجافة طول النهار بحثاً عن الطعام . وفي وسط الساحة كانت شجرة نخيل وحيدة شعثة المنظر تمنح شيئاً من الظل .

ولم اسمع جواباً على قرعي ، ففتحت الباب ودخلت ـ لأتسمّر في مكاني مدهوشاً : فقد ظننت للوهلة الاولى ، من الضوء الساطع في وسط الغرفة والظلام الذي يسود بقية انحائها ، ان عرضاً سينمائياً كان يجري في الداخل . ولكن تبين لي ان الصور المكبرة على الجدار كانت تنعكس من جهاز المخيال الضخم ، وكان نمرود يقف وراءه ويضع فيه الصور ، واحدة بعد الأخرى ، من غلاف في يده . وتقدمت وقد بهر الضوء الساطع عينيّ ، وميزت بالثازار وكيتس في الضوء الفوسفوري حول الآلة وقد سطع على جانبي وجهيهما .

وقال لي نمرود وهو يلتفت نصف التفاتة : « حسناً . اجلس هنا . » ودفع بذهول كرسياً نحوي . وابتسم كيتس لي وقد بدا راضياً عن نفسه ومهتاجاً . فقد كان هو الذي التقط بنفسه هذه الصور لحفلة آل سيرفوني ـ هذه الصور التي استحقّت كل هذه الدراسة والعناية الآن . كانت كأنها لوحات هائلة على الحائط الأبيض ، تبدو ثم تختفي . وقال نمرود : « انظر . اتستطيع ان تتعرف على احد فيها ؟ » وجلست على الكرسي وامتثلت لطلبه مديراً وجهي نحو الحائط حيث تطاولت صور بضعة رهبان يرقصون معاً . قال كيتس : « ليست هذه . » كان ضوء المجنيزيوم الفضي قد أشعل ناراً حول الراقصين الملتفّين بالأردية .

واوحت اليّ هذه الصور ، وقد تضاعفت الى تلك الأحجام الهائلة ، بنوع جديد من الفن ، اشد رهبة من اي رسم يمكن ان يتخيله الفنان (جويا) . كان هذا فناً جديداً للعرض بالصور ـ رسم بالدخان وبومضات الضوء . كان نمرود يبدل الصور ببطء ، متفحصاً كل صورة منها على مهل ، قائلاً : « الديكم اي

تعليق على هذه؟ »

ولكنها كانت جميعها عديمة الفائدة . ولم نستطع ان نتعرف على اي شخص فيها . كان عددها ثماني صور ــ كل صورة منها مثال رهيب لاحتفال مأتمي يقوم به رهبان مرحون في سرداب من سراديب القرون الوسطى ؛ وكل صورة من بنات خيال دوساد . قال بالثازار عند عرض الصورة الخامسة المترجرجة الآن على الحائط امامنا : « هذه هي الصورة التي يبدو فيها الخاتم . » وتذبذبت امامنا جماعة من الأشخاص المقنعين وهم يتمايلون بجنون وقد تشابكت اذرعهم وخلوا من أي تعبير كسمك الحار . كانت اعينهم عبارة عن شقوق لا معنى فيها ، ومرحهم تحوير ساخر لكل ما هو انساني . هكذا اذن يسلك قضـاة محاكم التفتيش في ساعات فراغهم ! وتنهد كيتس يائساً . كان احد الأشخاص قد وضع يده على ذراع مغطّى بالرداء الاسود . وكان على اليد خط ابيض صغير عرفنا فيه خاتم جوستين النحس . ووصف نمرود المشهد لنفسه بعناية ، كمن يقرأ مسباراً . « اربعة أشخاص مقنعين ... قرب مائدة الطعام ؛ انك تستطيع ان ترى زاويتها ... ولكن اليد ، اهي يد دي برونيل؟ ماذا تظن؟ » وحملقت فيها ثم قلت : « اعتقد انها يده ، فجوستين تضع الخاتم في اصبع آخـــر . »

وقال نمرود بلهجة منتصرة : « هَهْ . هذه نقطة جيدة . » نعم ، ولكن من كان الآخرون الذين التقطتهم عرضاً عدسة الآلة ؟ وحملقنا فيهم ، وحملقوا فينا بلا تعبير ولا معنى من شقوق اقنعتهم المخملية كأنهم جماعة من الرماة .

وقال بالثازار اخيراً وهو يتنهّد : « لا فائدة ترجى . » واوقف نمرود الآلة المهمهمة ، وبعد لحظة ظلام اضيئت الغرفة بالضوء الكهربائي المعتاد : كانت طاولة المكتب مكتظة بالأوراق المطبوعة التي تنتظر التوقيع ــ ولا شك انها كانت اوراق التحقيق . ورأيت ، على قطعة مربعة من الحرير الرمادي ، عدداً من الاشياء التي كانت محط افكارنا الفائرة ــ دبوس القبعة الكبير بطبعته الزرقاء البشعة وخاتم حبيبتي العاجي الذي لم استطع ان أنظر إليه بعد ذلك الا بوخزة ألم :

وقال نمرود وهو يشير الى الأوراق : « وقّع هنا بعد ان تقرأ نسختك . » وسعل واضعاً يده على فمه وأضاف بصوت خافت: « وبإمكانك ان تأخذ الخاتم . »

وناولني بالثازار الخاتم ، كان ملمسه بارداً وقد علاه أثر المسحوق الذي يرش لالتقاط بصمات الأصابع . ونظفته بربطة عنقي ووضعته في جيب بنطالي الصغير . وقلت له : « اشكرك ». ثم جلست الى الطاولة لأقرأ تقرير البوليس ، بينما أشعل الآخرون السجائر وتحدثوا بأصوات خافتة . ورأيت قرب التقارير المطبوعة ورقة مكتوبة بخط الجنرال سيرفوني الباهت المترجرج الحروف . كانت هذه قائمة بأسماء المدعوين الى حفلة الكارنيفال — اسماء لم تزل ترن في اذني بصدى شاعرية مفعمة بالجلال ، اسماء اصبحت تعني لي الشيء الكثير ، انها اسماء الاسكندرانيين . اسمع :

بيا دي تولومي ، بنيديكت دانجو ، دانتي بورّوميو ، الكولونيل نجيب ، توتو دي برونيل ، ويلموت بييريفو ، محمد آدم ، بوتزو دي بورجو ، احمد حسن باشا ، دلفين دي فرانكي ، جمبلاط بيك ، اثينا تراشا ، حداد فهمي امين ، جاستون فيبز ، بيير بالبز ، جاك دي جيري ، الكونت بانوبيولا ، اونوفريوس باباس ، ديمتري رانديدي ، بول كابوديستريا ، كلود اماريل ، نسيم حصناني ، توني امبادا ، بالداسّارو تريفيزياني ، جيلدا امبرون ...

ولفظت الأسماء بصوت خافت وأنا اضيف في عقلي كلمة « قاتل » بعد كل اسم ، لكي ارى اذا كانت تناسبه . ولم اتريث الا عندما جئت الى اسم نسيم — فعندها توقفت عن القراءة ونظرت الى الحائط المعتّم — لكي ارمي بخياله الموهوم عليه وأتفحصه كما تفحصنا الصور . وكنت لم ازل ارى بعين ذاكرتي ذلك التعبير الغريب على وجهه عندما ساعدته على الدخول الى السيارة الكبيرة — تعبير مفعم بمعاني الرصانة الشيطانية ، اشبه بتعبير وجه انسان يستريح بعد انفاقه جهداً عظيماً .

القِسمُ الرّابع

١٢

بالرغم من ان الفصل كان شتاء ، فقد كان شاطىء المدينة مرحاً ألقاً بالأنوار – وكانت خطوط الكورنيش الطويلة المنسابة تمتد بعيداً ثم تتلاشى في أفق منخفض – والاضواء تشع من ألف لوح زجاج مضاء ، ووراءها كان يجلس سكان القسم الاوروبي من المدينة الى موائدهم اللامعة المحتشدة بكؤوس العرق والكونياك وشراب المستكي ، كأسماك استوائية رائعة . واذ راقبتهم (ولم اكن قد تناولت الا القليل من الطعام في وجبة الغداء) فقد غلب عليّ الجوع ، وكان لديّ بعض الوقت ريثما يحين موعدي مع جوستين ، فعرّجت على مطعم « الدياموند سوترا » المشع بالضوء وطلبت ساندويشاً من لحم الخنزير وكأساً من الويسكي . وكما يحدث لي دائماً عندما تغير دراما الحوادث الخارجية معنى الاشياء العاطفي ، فقد رأيت المدينة بعينين جديدتين ، ورحت اتفحص اشكال البشر وهيئاتهم الخارجية بانعزال عالم يدرس نوعاً غير معروف من انواع الحشرات . ها هو الجنس البشريّ حولي ، كل فرد منه مستغرق في حل همومه الشخصية الخاصة ، وشؤون هواه ، وحبه وكراهيته ومخاوفه . امرأة تعد النقود فوق طاولة زجاجية ؛ شيخ يطعم كلباً ؛ رجل على رأسه طربوش

يسدل ستارة على نافذته .

وكان الدخان المعطر برائحة الشواء ينبعث من حانات البحّارة الصغيرة المتناثرة على الشاطىء ، حيث ايدي الطهاة تقلب الأسياخ الحديدية المحملــة باللحم المبهر وتمر بها برتابة منتظمة أمام النار . وكانت القدور النحاسية اللامعة مكتظة بالاطعمة ،تنبعث منها الابخرة الساخنة المشبعة بروائح الاسماك والزغاليل . هنا كان المرء يشرب من كوُوس معدنية زرقاء ويأكل بيديه ، تماماً كما يفعلون في جزر السيكلية حتى هذه الايام .

وناديت عربة خيل متداعية ، فسارت بي ببطء قرب البحر المتنهّد نحو مقهى « الاورور » ، وانا اعب الى قلبي تلك العتمة المضاءة ، مفعم النفس بحسرات ومخاوف شاردة تعجز عن التحليل ؛ وكنت ، في قرارة نفسي ، لم ازل اشعر بنوازع الرعب كلما خطر في بالي ان جوستين قد تكون في خطر بسبب حبنا « المتبادل » . وقلّبت الفكرة في عقلي كسجين يضغط بكل ثقله ابواباً صدت بوجهه جميع المنافذ من عبودية لا تُحتمل ، محاولاً ان استنبط مخرجاً من وضع كهذا قد ينتهي بموتها وبموتي .

كانت السيارة الكبيرة تنتظر وقد حادت عن الطريق العام ووقفت تحت اشجار الفلفل . وفتحت الباب لي بصمت فدخلت الى السيارة وقد اذهلتني مخاوفي :

وقالت اخيراً : « حسناً » وهي تئن انة قصيرة عبّرت عن كل شيء ، وارتمت بين ذراعي وضغطت شفتي بشفتيها .

« هل ذهبت ؟ هل انتهى كل شيء ؟ »

« نعم » .

وأدارت محرك السيارة ، وتناثر الحصى حول عجلاتها اذ سرنا في طريق الساحل في الليل اللؤلئي متوجهين الى الصحراء الخارجية . وفي الضوء الضبابي الذي عكسته اضواء السيارة الامامية على أشياء الطريق العادية رحت ارقب صفحة وجهها بتقاسيمها الساميّة البارزة . لقد كان جزءاً لا يتجزأ من المدينة نفسها

التي رأيتها الآن كسلسلة من الرموز والاشارات ، تمتد بعيداً عنا على جانبي الطريق — المآذن ، الحمائم ، التماثيل ، السفن ، النقود المعدنية ، الجمال ، النخيل ؛ كان هذا الوجه يمتّ بنسب وثيق الى طبيعة الارض المرهقة التي احاطت به — منافذ البحيرة الكبيرة : كان ينسجم مع المشهد العام حوله كما ينسجم ابوالهول مع الصحراء .

وقالت : « خاتمي ، هل احضرته ؟ »

« نعم » . ولمّعته مرة ثانية بربطة عنقي ، ووضعته في اصبعها . وسألتها دون تفكير : « جوستين ، ما مصيرنا ؟ »

ونظرت الي نظرة برية عابسة ، كامرأة بدوية ، ثم ابتسمت تلك الابتسامة الدافئة : « لماذا ؟ »

« لا شك انك تعرفين ؟ اننا مضطرون الى قطع علاقتنا كلياً ، فلست قادراً على ان احتمل رؤيتك معرضة الى كل هذا الخطر ... او اني سأكون مضطراً الى الذهاب الى نسيم ومجابهته بـ... » بماذا ؟ لم اكن اعرف .

قالت برقة : « لا . لا . يجب ان لا تفعل شيئاً كهذا . انك انجلو ساكسوني.. فلست تستطيع ان تتخطّى العرف هكذا ، اليس كذلك ؟ انك لست واحداً منا . وبعد فليس لديك جديد تخبر به نسيماً — انه على الاقل يخمن كل شيء تخميناً ان لم يكن متأكداً منه » .

وانه ليدهشني الآن ان ادرك ، اذ اسجل هذه الحوادث ، انها كانت تحمل في اعماقها موت بورسواردن ، (وقد ربض هناك غير مرئي ، كجنين في أيامه الاولى) : كانت قبلاتها تقع على صورة وجهه المطبوعة في قناع الموت ، وجه الكاتب الذي لم يكن يحبها ، بل يزدريها . ولكن الحب شيطان مريد ، ولذا فإنه لن يدهشني لو ادركت ان موته قد اغنى عشرتنا وملأها بأنواع المخاتلة التي تعيش عليها عقول النساء — مزيج اللذات السرية والخيانات التي هي جزء لا يتجزأ من كل علاقة انسانية .

ومع ذلك فممّ اشكو ؟ فحتى هذا الحب الناقص كان يفعم قلبي ويطفحه .

لقد كانت هي الخليقة بالشكوى . ولكن من الصعب جداً ان يفهم الانسان هذه الأمور . اكانت قد بدأت في ذلك الوقت تخط خطة الهرب من الاسكندرية ؟ ويكتب بورسواردن : « ان قوة النساء عظيمة ، حتى ان قبلة واحدة قد تكشف واقع حياة الرجل وتقلبها » ... ولكن لمَ أستمر في هذا ؟ لقد كنت سعيداً بجلوسي قربها ، وأنا اشعر بدفء يدها اذ استراحت في يدي .

كانت سماء الليل الأزرق ضبابيةً بالنجوم ، وامتدت الصحراء الصامتة المصغية على جانبي الطريق بمدرّجاتها الهائلة ، كأنها غرف فارغة في قصر كبير من الغيوم . وطلع القمر الليلة متأخراً وهزيلاً . وكان الهواء محتبساً ساكناً — والكثبان المتموجة تحمل انطباعات الرياح . قالت حبيبتي : « بمَ تفكر ؟ »

بماذا كنت افكر ؟ بمقطوعة من بروكلوس يقول فيها إن اورفيوس حكم ، الشعب المسالم ، وهو يعني اولئك الذين عاشوا حياة مسالمة ؛ بتماثيل القرود الثلاثة المصنوعة من الخشب المحفور التي يضعها بالثازار على رف الموقد تحت المخمس السحري المأخوذ من فيثاغورس ، تلك القرود التي لم تر شراً ، ولم تسمع شراً ، ولم تتلفظ بأي شر ؛ بماذا كنت افكر ؟ بالجنين في بيته الشمعي ، بالجرادة الجاثمة في سنبلة القمح ، بعربي يروي مثلاً تتجاوب اصداؤه في العقل : « ان ذاكرة الانسان قديمة قدم المصائب . » وانتشرت طيور السمالي من القفص المخلوع بنعومة اشبه بانسياب العسل ، دون ان تملك فكرة عن الهرب والخلاص . رائحة الليلك الفارسي في سوق العطور .

وقلت : « منذ اربعة عشر الف سنة كان نجم النسر الواقع هو النجم القطبي . أنظري اليه حيث يحترق . »

ودار الرأس المحبوب بعينيه العابستين لينظر حيث اشرت . ورأيت القوارب الطويلة ترسو على الشاطيء ليركبها ملوك الفراعنة ، والمد والجزر يتصارعان ، والمآذن تلتمع بالندى ؛ وحجا الاعمى يصيح بصوت خُلد هاجمه ضوء الشمس ، ووقع خطوات قافلة من الجمال وهي تدلف في مشيتها لتشترك في احد الاعياد وقد حملت معها مصابيح داكنة . ان امرأة عربية ترتب لي سريري فتتخبط

الوسائد الى ان تنتفخ كبياض البيضة المخفوق ؛ مقطوعة من كتاب بورسواردن يقول فيها : « انهما ينظران الواحد الى الآخر وهما يدركان بأنهما لا يملكان الشباب ولا القوة الكافية التي قد تمنع فراقهما . » عندما كانت ميليسا حاملة من نسيم لم يتمكّن اماريل من اجراء عملية الاجهاض كما كان يرجو نسيم ، بسبب مرضها وضعف قلبها . وقال : « انها قد تموت على كل حال . » وهز نسيم برأسه باقتضاب وتناول معطفه . ولكنها لم تمت بـل اتمّت شهور الحمل ...

وتتلو جوستين شعراً في اليونانية لا اعرف مصدره :

رمال الاسكندرية ، صخور الاسكندرية البيضاء
وورودها البرية ، منارات الملاّحين
وكثبان ممتدة تنساب الى البحر
وتسكب الرمال الى الماء والماء في الرمل
لا الى خمرة النفي
التي تلوث هواء اريقت فيه
او صوت يلوّث العقل
وهو يغني بالعربية : « سفينة بلا شراع
كامرأة بلا ثديين . » هذا ولا شيء سواه .
هذا ولا شيء سواه .

وسرنا يداً بيد على الكثبان الناعمة ، نجاهد قليلاً في مشينا ، كالحشرات ، إلى ان وصلنا الى ثابوزيريس بعمدانها المتداعية وتيجان الاعمدة المترامية هنا وهناك بين معالمها البحرية التي تأكلت من تقلبات الجو . (يقول كولريدج : « ان ذخيرة الاحساس قد تعيش الى ما لا نهاية مستترة متخفّية بنفس الترتيب الذي انطبعت به في النفس ») . نعم ، ولكن نظام الخيال لايطابق نظام الذاكرة . وهبّت ريح ليّنة من البحر منطلقة من جزر الأرخبيل . وكان البحر هادئاً صافياً كخدّ اسيل ، ولم تبد حركة امواجه الا في الأطراف حيث تململت

وتنهدت . ان تلك القبلات الدافئة تظل هناك ، وقد بُترت من القَبْل ومن البَعْد ، وتعيش في حد ذاتها كالورود او اوراق الشجر اللطيفة المكبوسة بين دفتي كتاب قديم — تعيش فريدة لا تذبل كذكريات المدينة التي تمثلها وتثيرها — نفحة موسيقى في الكارنيفال منطلقة من قيثار منسي تظل اصداؤها ترنّ في شوارع الاسكندرية المعتمة ما دام هنالك صمت في العالم ...

انني لم اعد اراناجميعنا كرجال ونساء، كهويّات تضخمها سهواتها وحماقاتها وخياناتها — ولكن كبشر اصبحوا ، دون وعي منهم ، جزءاً لا يتجزأ من مكان معين ، وقد غرقوا حتى النصف في انقاض مدينة واحدة وغاصوا في قيمها الخاصة ؛ بشرٍ كتلك المخلوقات التي كتب عنها امبيدوكليس فقال : « اعضاء منفردة هائمة تنشد الاتحاد بعضها مع البعض الآخر » ؛ وفي مكان آخر : « وهكذا فإن الحلو يعثر على الحلو ، والمر يندفع نحو المر ، والحامض يلتقي بالحامض ، والدافىء يتحد بالدافىء » . كل هؤلاء انما هم افراد مدينة لبثت افعالهم خارج مجال الروح المخطّطة او المُغضبية : الاسكندرانيون .

واذكر كيف استلقت جوستين على عمود منهار في ثابوزيريس ، رأسها الداكن قرب المياه الداكنة المتنهّدة ، وخصلة من شعرها تذروها رياح البحر . كانت تقول : « في اللغة الانجليزية عبارة واحدة تعني لي شيئاً : انهـــا عبـــارة « Time Immemorial » [1] .

ما ابعدها تلك الامسية المنسية اذ اراها الآن خلال شاشة الذاكرة المتغيرة ! كان امامنا الكثير من المعاناة والتجارب قبل ان يحين موعد صيد البط الكبير الذي عجّل بالنهاية — وباختفاء جوستين نفسها . ولكن هذا جميعه جزء من اسكندرية اخرى — اسكندرية خلقتها انا في عقلي ، ثم جاءت تعليقات بالثازار وتذييلاته فغيرتها جميعها تغييراً جذرياً .

ويكتب بالثازار : « ان مزج الوقائع ومداخلتها هما الطريقة الوحيدة للبقاء

---

١ — الزمن الازلي .

امناء تجاه الزمن .فإن لكل لحظة في الزمن احتمالاتها التي لاعد لها ولا نهاية .والحياة انما تتألف من فعل الاختيار . ذلك الامتناع الابديّ عن الحكم ، وذاك الاختيار الدائم . »

ومن هذه الجزيرة ، من هذا المكان القصي المناسب للحكم ، استطيع ان ارى الحوادث جميعها في ازدواجيتها ، وأن ألمح بعينين جديدتين تداخل الحقيقة والوهم . ويدهشني اذ اعيد قراءة الواقع ونسجه في ضوء ما أعرف الآن ، ان اجد مشاعري نفسها قد تغيرت ، ونمت ، وعُمقت . لعل تدمير اسكندريتي الخاصة كان ضرورياً اذن ، (« ان العمل الفني الأصيل لا يُبدي وجهاً مسطحاً ») ؛ ولعل بذرة الحقيقة ومادتها تكمن دفينةً في هذا كله — بذرة الحقيقة التي هي ثمرة الزمن . ولعلها ، ان انا استطعت ان استوعبها ، تتوغل بي قليلاً في طريق البحث عن ذاتي الحقيقية . وسوف نرى .

١٣

«كليا وابوها الذي تعبده . انه شيخ منتصب القامة ، اشيب الشعر ، في عينيه نظرة اشفاق دائمة على ابنته الشابة ، تلك الإلهة الفتية العزباء . وقد اعتاد الاب وابنته ان يرقصا مرة واحدة في العام ، في قاعة فندق سيسيل ، وذلك في ليلة رأس السنة . وما اروع منظرهما اذ يرقصان معاً فتبدو عليهما مخايل الرفعة والسمو وبوادر المسلك المصقول . انه يرقص الفالز بخطوات منضبطة دقيقة . » لقد كتبت هذه القطعة في مكان ما . انها تذكر المرء بمشهد آخر ، وبسلسلة اخرى من الحوادث.

في تلك الليلة جاء البحّاثة الشيخ وجلس الى منضدتي . ان فيه نقطة ضعف نحوي لا أدري سببها ، فهو لا شك يودني ، ويكلمني بتواضع ، ويداعبني بالحديث اذ نجلس ونرقب ابنته الجميلة ترقص ، رشيقةً هادئة الملامح ، رصينة التصرف ، وتدور بين ذراعَي احد المعجبين «لم يزل فيها الكثير من خصال التلميذة — او الفنّانة . لقد وقع شيء من الخمر على برنسها الليلة ، فارتدت معطفاً واقياً من المطر فوق ثوب السهرة ، واكلت حبات التوفي التي وجدتها في جيبه . لست ادري ما كانت امها خليقة بأن تقوله لو كانت على قيد الحياة . »

وشربنا صامتين نرقب الاضواء الملوّنة تتلألأ فوق الراقصين . وقال بعد هنيهة : « اني اشعر كأني قوّاد عجوز — فاني دائم التطلّع حولي علّي اجد من يتزوّجها .. فسعادتها تعني لي الشيء الكثير . — اني ادرك اني بتدخلي قد افسد الأمر جميعه .. ومع ذلك فلست بقادر على ان أظلّ على الحياد ... لقد وفّرت مهراً لها على مرّ السنين ... واشعر بالنقود تحرق جيبي ... فعندما ارى رجلاً انكليزياً طيباً مثلك ، اشعر بغريزتي تدفعني الى أن اقول : (بحق السماء خذها واعتن بها) ... لقد ربيتها وحدي دون ام ، وذقت من هذا انواع اللذة المشوبة بالمرارة . هه ؟ ان الشيوخ اشد المأفونين حمقاً » . ويسير بقامته المنتصبة الى البار وهو يبتسم .

في تلك الليلة جاءت كليا اليّ في المقصورة وهي تبتسم وتروّح بالمروحة ، وقالت : « لم يبق الا ربع ساعة حتى منتصف الليل . يا سندريلاّ المسكينة . يجب أن تأخذي والدك الى بيته قبل ان تدق الساعة ، والا فات موعد نومه ! »

وتحدثنا عندئذ عن امار الذي كانت محاكمته بتهمة قتل دي برونيل قد انتهت في عصارى ذلك النهار ببراءته ، لعدم وجود اثباتات ضده .

قالت كليا بنعومة : « اعرف ذلك ، واشعر بالسرور لهذه النتيجة ، لأنها قد أنقذتني من ازمة ضمير قوية ؛ لقد كنت جديرة بأن اقع في الارتباك والحيرة لو أنه أدين ، فأنا اعرف من ارتكب الجريمة . لماذا ؟ لأني ، يا عزيزي ، اعرف من ارتكبها .. » وضاقت عيناها الرائعتان واسترسلت تقول : « قصة من قصص الاسكندرية — هل أخبرك ؟ سأفعل اذا وعدتني بالكتمان . هل تعدني ؟ ادفنها مع السنة القديمة — مع جميع عثراتنا وحماقاتنا . فلا بد أنّ لديك فيضاً منها الآن . اليس كذلك ؛ حسناً ، اصغ . في احدى ليالي الكارنيفال استلقيت في فراشي افكر بإحدى لوحاتي — لوحة جوستين الكبيرة . كان فيها خطأ فنّي مهم لم ادرك موقعه تماماً — وشككت في ان يكون الخطأ في اليدين — تينك اليدين الجميلتين الطويلتي الأصابع . كنت قد حاكيت شكلهما بأمانة تامة ، ولكن شيئاً فيه كان خاطئاً — وبدأ الشعور بوجود هذا الخطأ الفني يساورني

ويزعجني حوالي ذلك الوقت – اي بعد عدة اشهر من انتهائي من رسم اللوحة – دون ان اعرف سبب ذلك . وعلى حين فجأة قلت لنفسي : (تانك اليدان ! انهما بحاجة الى التعديل) . فاحضرت اللوحة الى بيتي من المرسم حيث كنت قد علّقتها . ولكن محاولاتي اصلاح الخطأ ذهبت ادراج الرياح . كنت قد امضيت الهزيع الاول من تلك الليلة أدخّن واحاول اصلاح الخطأ ، فجربت رسمهما من الذاكرة في عدة اوضاع . ولكني لم أنجح . وخطر ببالي ان السبب قد يعود الى الخاتم البيزنطيّ الذي تلبسه . على كل حال كانت كل محاولتي بلا طائل . فأويت الى الفراش حوالي منتصف الليل ، واستلقيت فيه ادخن وقطتي نائمة عند قدمي .

« وكانت جماعات المحتفلين تمر في الشارع بين الفينة والفينة وهم يغنّون ويضحكون . ولكن الحياة كانت تخف بالتدريج من المدينة لتأخر الوقت .

« وفجأة في وسط السكون ، سمعت صوت ارجلٍ تركض مسرعة . لم اسمع قط من يركض بهذه السرعة وبهذه الخفّة . فما من شيء الا الخطر او الرعب او الغم الشديد يمكن ان يحمل احداً على الانطلاق بهذا الاندفاع الجنوني . وقطع الراكض شارع فؤاد وانعطف في زاوية شارع سان سابا ، بينما راح وقع اقدامه يرتفع . وسمعته يقطع الشارع ويقف ثم يعود فيقطعه مرة اخرى في اتجاه بيتي . وبعد ذلك سمعت رنين الجرس ينبعث عالياً مجنوناً .

« وجلست في الفراش واضأت النور لأنظر الى ساعتي . من الطارق في هذا الوقت ؟ وبينما كنت اقبع هناك محتارة مترددة ، سمعت الرنين مرة اخرى : طويلاً ، متكرراً . حسناً ! كان التيار الكهربائي المتصل بغلق الباب مقطوعاً كدأبه كلّ ليلة بعد منتصف الليل – فلم يكن من مناص الا ان انزل إلى البوابة في اسفل الدرج لأرى من الطارق . فارتديت ردائي المنزلي ووضعت مسدّسي الصغير في جيبي ونزلت . ورأيت خيالاً على زجاج الباب الامامي ، ولكن الزجاج كان سميكاً لا يسمح بتمييز الواقف وراءه ، فاضطررت الى فتح الباب . ورجعت قليلاً الى الوراء قائلة : « من هناك ؟ »

« كان بالباب رجل متشبّثٌ بزاويته كالوطواط. كان يتنفّس تنفّساً ثقيلاً ، ورأيت صدره يعلو ويهبط . ولكنه لم يأتِ حراكاً . كان يلبس رداء الدومينو ، ولكنّ قناعه كان مرفوعاً فاستطعت أن ارى وجهه في ضوء الشارع . وذعرت في البدء بالطبع . لقد بدا كأنه يوشك ان يقع مغشياً عليه – واستغرقت حوالي عشر ثوانٍ قبل ان اتمكن من قرن ذلك الوجه البشع ذا الشفة الكبيرة المشرومة باسم صاحبه . وعندها سرى شعور الارتياح في جميع اوصالي ، وأحسست كأن عشرات الابر تخز قدمي . اتعرف من هو ؟ كان شعره اشعث مبلّلاً بالعرق ، وبدت عيناه في ذلك الضوء الغريب الشاحب عظيمتي الحجم – زرقاوين وطفوليّتين . وادركت انه اخو نسيم الغريب الأطوار – ذاك الذي لا يراه احد . نروز حصناني . ولاشك أن تذكري له من افعال الذاكرة المدهشة – فإني لم أره الاّ يوم اخذني نسيم الى أراضي الحصناني لنتريّض بركوب الخيل . وباستطاعتك ان تتصوّر قلقي ساعة رأيته على هذه الحال في منتصف الليل .

« ولم ادرِ ما اقول – أمّا هو فقد كان يحاول التلّفظ ببعض الكلمات ، ولكن البيان اعياه . لقد بدا لي ان في عقله عبارتين حشرتا معاً كما تحشر فشكتان في فوّهة البندقية ، الواحدة تصد طريق الانطلاق على الاخرى . وانحنى نحوي ويداه متدليتان الى ما تحت الركبتين تقريباً مما اضفى عليه هيئة القرود ، وتفوّه بكلام مبهم اشبه بنقيق الضفادع . لا تضحك – كان المنظر رهيباً . ثم سحب نفساً طويلاً وحاول السيطرة على عضلات وجهه وقال بصوت خافتٍ كصوت كلب صغير : (لقد جئت لأخبرك بأني احبك ، لأني قتلت جوستين) . وظننت للوهلة الاولى بأنه يمزح . وسألته متلعثمة : (ماذا ؟) فأعاد كلماته هامساً بصورة آلية كطفل يعيد درسه : (لقد جئت لاخبرك بأني احبك – لأني قتلت جوستين) ثم اضاف بصوت عميق : (آه يا كليا ، لو انك تدرين مبلغ عذابي) . واطلق زفرة عميقة وركع على ركبتيه في المدخل وهو ممسك بطرف ردائي المنزلي وقد احنى رأسه وانهمرت الدموع

على وجهه وانفه .

« ولم ادرِ ما أفعل ؛ فقد اجتاحتني عواطف متضاربة ـ شعرت بالرعب والاشمئزاز والأسف في آنٍ واحد . وكان بين الفينة والفينة يجهش بصوتٍ عالٍ اشبه برغاء ناقة ، او بصوت دمية ميكانيكيّة رهيبة . لقد كان صوته ومنظره غريبين عن كل شيء سبق لي أن سمعته او شاهدته . اما ارتجافه فقد احسست به بوضوح ، لأنه كان ممسكاً بطرف ردائي .

« وقلتُ اخيراً : (انهض) . فرفع رأسه وقال ناعباً : (اقسم بأني لم اتعمّد قتلها ـ حصل كل شيء قبل ان يتسنّى لي التفكير . لقد وضعت يدها عليّ يا كليا ، وحاولت مغازلتي . ما افظع ذلك ! زوجة نسيم !)

« ولم ادرِ ما اصدق من كل هذا . هل آذى جوستين حقاً ؟ قلت له : (اصعد معي الى البيت . انهض حالاً) . ونهض مطيعاً ، وتبعني صاعداً الدرج وهو يستعين على تثبيت نفسه بالحائط ، ويهمس لنفسه شيئاً مبهماً لعله كان اسم جوستين ، ولكنه بدا لسمعي اقرب الى كلمة «Justice».

« قلت : (ادخل ريثما اتلفن) . فتبعني ببطء وقد اعشى الضوء عينيه ، وتريّث برهة بالباب ريثما تعتاد عيناه الضوء ؛ ثم رأى اللوحة ، فصرخ بحدة : (هذه الثعلبة اليهودية اكلت حياتي) . وضرب على جبينه بقبضته بقوة عدة مرات . ثم غطّى وجهه بيديه وتنفّس تنفّساً عميقاً . ولبثنا على هذا الوضع برهة وأنا افكر بالخطوات التي يحسن اتخاذها . كنت اعلم انهم قد ذهبوا جميعهم الى حفلة آل سيرفوني . فقررت ان اخابرهم الى هناك لأتحقق معنى هذه القصة .

« وفي اثناء ذلك فتح نروز اصابعه ونظر اليّ من بين فرجاتها وقال : (لقد جئت لأخبرك فقط بأني احبك قبل ان اسلّم نفسي الى أخي) . ثم فتح يديه ومدهما باشارة يائسة وقال : (هذا كل ما في الأمر) .

« ما أفظع الحب وما اظلمه ! ها أنا ذي كنت موضع حب مخلوق آخر ـ لا استطيع ان اسمّيه نداً ـ مدة لا يعلم الاّ الله مداها ، ولم اكن قد شعرت

قطّ بمجرد وجوده في هذه الحياة . لقد كان كل نفس من انفاسي عذاباً له ، دون ان اعي انا ذلك العذاب . فكيف حدثت هذه المصيبة ؟ يجب ان توسّع حيزاً في عقلك لهذا التنوّع في عواطف الحب . لقد وجدتني غاضبةً ، مشمئزّة وجريحة في نفس الوقت ، وشعرت كأني مدينة له بالاعتذار ؛ ومع ذلك فقد احسست ايضاً بأن تطفّل هذا الحب الذي لم اسأله إياه يوماً اهانة لي .

« وبدا نروز كأنه يعاني حمّى عالية . فقد كانت اسنانه تصطكّ ، واجتاحته نوبة من التشنج العنيف . اعطيته قدحاً من الكونياك فأفرغه في جوفه دفعة واحدة ، فناولته قدحاً اكبر . وبينما كان يشربه هبط ببطء الى السجّادة وجلس متربّعاً كعادة العرب . وهمس قائلاً : (اشعر بأني احسن حالاً الآن) . ونظر بحزن في انحاء الغرفة ثم اضاف قائلاً : (اذن هذا هو المكان الذي تعيشين فيه ؟ منذ سنوات وأنا ارجو ان أراه — وكنت اتصوّره دائماً بخيالي) : ثم عبس ، وسعل ، ومشّط شعره الى الوراء بأصابعه .

« وخابرت بيت آل سيرفوني ، واستطعت ان اتوصل الى التحدث مع نسيم في الحال . والقيت عليه الاسئلة بلباقة دون ان افضح جليّة الخبر . ولكن لم يبدُ ان لديه ما يقلق البال — مع انه لم يستطع ان يعثر على جوستين في تلك اللحظة . وقال انها ترقص في قاعة الرقص المكتظة . اما نروز فقد اصغى الى كل هذا محملق العينين ،غير مصدق ما يسمع . قلت (انها موعودة بملاقاتهم في البهو في ظرف عشر دقائق — فأكمل شرب قدحك ، انتظر ريثما تخابرني هي . وعندها ستتأكد من انك مخطيء) . واغمض عينيه وبدا كأنه يصلّي .

« وجلست قبالته على الاريكة ، لا ادري ما اقول . وسألته (ماذا حصل بالضبط ؟) وفجأة ضاقت عيناه وصغرتا وبانت فيهما نظرات الريبة . ثم تنّهد وطأطأ رأسه وراح يتابع خطوط الرسم على السجادة بأصبعه ، ثم همس بشفتين مرتجفتين : (هذا كلام ليس لاذنيك) .

« وانتظرنا زمناً على هذه الحال . وفجأة ، لارتباكي واشمئزازي الشديدين اخذ يتحدث عن حبه لي بصوت رجل يكلّم نفسه . وبدا كأنه غافل عن

وجودي فلم ينظر في وجهي قط . وشعرت بالاستفظاع الممزوج بمشاعر الاعتذار ، وهو شعور ينتابني كلما علمت بأني محط اعجاب انسان ما وموطن محبته ، دون ان استطيع مبادلته مشاعره . واحسست ايضاً بالخجل ، اذ نظرت الى ذلك الوجه الوحشي الملطّخ بالدمع ، لأني لم اتمكن من ان اشعر بادنى عطف عليه في قلبي . لقد جلس على السجادة كضفدع بنيّ كبير ، كقرد في قصة ، وراح يتكلم . وتحيرّت ماذا افعل . سألته : (متى رأيتني ؟) كان قد رآني ثلاث مرات فقط في حياته ، ولكنه كان كثيراً ما يمر في الشارع ليرى اذا كانت غرفتي مضاءة . وشعرت بأن هذا كله بعيد عن العدل والانصاف . فما أتيت قط ما يستحق هذا الهوى العظيم المشبوب .

« واخيراً جاء الفرج ، فقد رنّ جرس التلفون . وانتفض نروز بشدة ، ككلب صيد كبير ، عندما سمع صوت المرأة التي ظن انه قتلها — ذلك الصوت ذا النبرات المبحوحة . قالت انه لم يحدث اي شيء غير عادي على حد علمها ، وانها الآن عائدة الى البيت مع نسيم . لقد كان كل شيء على ما يرام في بيت آل سيرفوني ، والحفلة لم تزل في اوجها . واذ حيّيتها تحية المساء ، شعرت بنروز يمسك بخفيّ ويقبّلهما شاكراً مردداً : « شكراً لك ، شكراً لك » .

« وقلت : (انهض ، لقد حان وقت ذهابك الى البيت) . كنت اشعر بإعياء شديد فنصحته بأن يذهب الى البيت مباشرة وان لا يروي قصته لاحد . وقلت له : (لعلك قد تخيّلت القصة جميعها) . فابتسم ابتسامة متعبة وإن كانت سعيدة .

« ونزل ببطء وتثاقل امامي على الدرج . وكان واضحاً انه لم يزل يرتعش من تجربته ولكن الهيستيريا كانت قد فارقته . وفتحت له البوّابة . وحاول هو ان يعبر مرة اخرى عن شكرانه ومحبته فأخذ يديّ وقبّلهما مرة تلو الاخرى ، طابعاً عليهما قبلاً مبتّلة شوكاء اثارت اشمئزازي . اف ! انني اشعر ببلل تلك القبلات ، وبملمس شاربيه في هذه اللحظة . ثم قبل أن ينطلق الى قلب الليل ، قال بصوت خافت وهو يبتسم : (كليا ! هذا اسعد يوم في حياتي ،

ان أكون رأيتك ، ولمستك ، وشاهدت غرفتك الصغيرة) » .

ورشفت كليا شرابها وهي تهز برأسها وقد علت وجهها ابتسامة حزينة . ثم نظرت الى يديها اللتين لوّحتهما الشمس وانتفضت . ثم تمتمت : (أف لتلك القبلات !) وبحركة لا إرادية اخذت تمسح يديها على متكأ المقعد المخمليّ الاحمر ، كأنما تريد ان تمحو عنهما آثار تلك القبلات وتطرد ذكراها الى الابد .

وبدأت الآن فرقة العازفين تعزف نغم البول جونس (لعله نفسه لحن الرقصة الذي جمع بين جوستين وارناؤوطي لاول مرة ؟) واخذت مجموعة الراقصين تنتشر من قلب الظلام ، ثيابهم ووجوههم وجواهرهم تشعّ في القاعة الواسعة ، وشجيرات النخيل تعكس خيالاتها المتكسّرة في المرايا الكبيرة المرتجفة : وتتسرب الانغام والاضواء من النوافذ الى الخارج حيث قبع القمر صابراً في الحدائق العامة المهجورة وفي الشوارع ، لتزعج المياه القلقة في الميناء الخارجي .

وقالت كليا : « تعال ، لماذا لا تشترك ابداً في هذه الأشياء ؟ لماذا تؤثر ان تجلس منعزلاً وترقبنا جميعنا ؟ »

ولكني كنت افكر ، اذ راقبت دائرة الوجوه البديعة تتحرك بين لألاء الجواهر وحفيف الحرير ، بالاسكندرانيين ، اولئك الذين لا يعني لهم هذا التنوع العظيم في التجربة الا اضافة بسيطة الى مجموعة معرفتهم اللامتناهية بالحياة المقترنة بشعورهم الدائم بالتعب من الدنيا . ودرنا حول حلبة الرقص ، وقد تبعت النساء دون وعي منهن ، حركة النجوم وحركة الأرض السابحة في الفضاء؛ وفجأة ، كإعلان حرب ، كنشور من القبر ، ران السكون ، وصاح صوت : « خذ رفيقتك من فضلك » ؛ وتحوّلت الأضواء الى لون ارجواني ، وبدأ الجميع يرقصون رقصة الفالس . ولمحت لحظة نسيماً وجوستين في آخر القاعة يرقصان ويبتسمان الواحد في عين الآخر . وكانت اليد الرخصة الملقاة على كتف نسيم لم تزل تلبس الخاتم الكبير المأخوذ من قبر فتىً بيزنطيّ . ان الحياة قصيرة. ولكن عمر الفن طويل .

كان والدكليا يرقص معها ، منتصب القامة ، دقيق الحركات ، تشع السعادة من عينيه . وكان يقبل اليد الموهوبة التي وقعت عليها قبلات نروز المقيتة في تلك الليلة التي لا تُنسى . ان الابنة اقرب الى الرجل من زوجته .

ويكتب بورسواردن : « في البدء ، ننشد ان نتمّم نقص فرديتنا بالحب ، ونتمتع بوهم الاكتمال . ولكنّه مجرّد وهم لا اكثر . فإن هذا المخلوق العجيب الذي ظنّنا بأنه يصلنا بجسم العالم لا ينجح الا بأن يفصلنا عنه في النهاية فصلاً تامّاً . ان الحب يجمع ثم يفرّق . والاّ فكيف يتسنّى لنا ان ننمو ؟ »

كيف ، كيف ؟ غير اني الآن اشعر بالراحة اذ وجدت نفسي منفرداً مرة اخرى ، وشققت طريقي الى زاويتي المعتمة ، حيث كانت مقاعد الراقصين تقبع خاوية ، كسنابل فارغة من القمح .

* * *

١٤

في باكورة الصيف تسلّمت رسالة من كليا يحسن ان اختم بها هذه المذكرات القصيرة عن الاسكندرية . كانت الرسالة غير متوقّعة ابداً :

تشقند ، سوريا .

« ان كتابك الذي لم اكن اتوقّعه ابداً بعد صمت خشيت ان يدوم مدى الحياة ، تبعني من ايران الى هذا البيت الصغير الجاثم على سفح تلة بين اشجار الارز والصنوبر . لقد استأجرته لمدة ستة اشهر ، لاحاول رسم هذه الجبال الغربية — صخور تتفجّر بالمياه وازهار البحر المتوسط . هنا تهدل الحمائم في النهار ، ويغرّد العندليب في الليل . فأية راحة بعد ذلك الغبار ! كم مضى على فراقنا ؟ سنتان او اكثر ؟ آه يا صديقي العزيز ، لقد ارتجفت قليلاً عندما فتحت رسالتك . اتتساءل لماذا ؟ لقد خفت أن تجرّني كلماتك من شعري الى اماكن قديمة ومشاهد عتيقة هجرتها منذ امد طويل : المحطات القديمة والمناظر التي تنتمي الى كليا الاسكندرانية التي عرفتها — لا إليّ انا ، او على الاقل التي لا تنتمي الا الى جزء صغير مني فقط . انني تغيرت — فإن امرأة جديدة ،

وفنانة جديدة اخذت تنمو من القديمة وتنشق عنها . وهي لم تزل طريّة وحيّة كقرني حلزون — ولكنها جديدة . ان عالماً كبيراً مليئاً بالتجربة يقف بيننا نحن الاثنتين ... ولكن انى يتسنى لك ان تعرف ذلك ؟ انك عندما تكتب فقد تخاطب كليا القديمة ؛ فبماذا اجيبك أنا ؟ لقد اجلّت قراءة كتابك حتى هذا المساء . وقد اثّر بي واثارني ، فلا بدّ اذن من الاجابة : وهذا هو كتابي اليك ، اكتبه على دفعات ، بين دورات الرسم ، او في الليل ، عندما اشعل الطبّاخ وأعدّ طعامي . هذا اليوم ملائم للبدء في كتابته ، فالسماء تمطر — والسفح يقبع تحت سكون المطر وخرير الينابيــع المتفجرّة ، والاشجــار حيّة بالحلزونات الضخمة .

« إذن فقد كان بالثازار يزعجك بمعلوماته الجديدة المثيرة ؟ لست متأكدة من اني اوافقه على هذا . قد يفيدك انت ان تطّلع على هذه المعلومات ، ولكنها بلا شك لا تفيد كتابك ، او كتبك ، التي لا بدّ انها تضعنا جميعاً في وضع خاص بالنسبة الى الواقع . اعني انها تعاملنا كأشخاص في رواية لا كبشر . ام لا ؟ وتسألني لمَ لمْ اخبرك قط بأيّ من الأمور التي عرفتها من بالثازار ؟ ان المرء لا يفعل هذا ابداً ، لا يفعله ابداً . فهو عندما يكون شاهداً يتوسط صديقين او حبيبين ، فقد تحثّه الصداقة على الاعتراض او التدخل — ولكنه لا يتدخل ابداً . وهذا حقّ . فكيف كان لي ان اخبرك بما اعرف عن جوستين ؟ او احدثك بما اشعر به نحوك لاهمالك ميليسّا ؟ لقد منعني من ذلك التعاطف بيني وبينكم — انتم الثلاثة . اما الحبّ ، فانه مخلوق مفطور على التناقض ، وشديد الاكتفاء بذاته ، حتى انه لم يكن ليتغير كثيراً بتدخل الحقائق من الخارج عليه . وانني متأكدة من انك ، لو حلّلت مشاعرك الآن ، لوجدت انك اصبحت تحب جوستين حباً اكثر من ذي قبل لانها خانتك ! إن البغيّ هي حبيبة الرجل الحقيقية ، كما قلت لك مرة ، وقد فطرنا على حب اولئك الذين يجرحوننا اكثر من الجميع . قل لي ، ايها الحكيم ، امخطئة انا ؟ ثم ان عواطفي نحوك كانت تتركّز في مكان آخر . كنت اغار عليك ككاتب .

وككاتب اردتك لنفسي ، واحتفظت بك بهذه الصفة . اترى الآن ؟

« لست اظن ان باستطاعتي مساعدتك الآن — اعني مساعدة كتابك . فإمّا ان تتجاهل المعلومات التي زوّدك بها بالثازار بكل قسوة ، او ان تعيد تصوير الواقع ، كما تقول انت .

« وتقول إنك لم تكن عادلاً بحق بورسواردن . نعم ، ولكن هذا ليس مهمّاً ، فقد كان هو ايضاً غير عادل بحقك . لقد التقيتما ، دون ان تعرفا ذلك ، فيّ انا ، ككاتبين . ان اسفي الوحيد هو انه لم يُتمّ الكتاب الاخير من روايته : « الله يحب الدعابة » ، كما كانت خطّته . فأية خسارة هذه — ومع ذلك ، فإن هذا لا ينقص من قيمة مآتيه . واتكهّن بأنك وشيك الوصول الى ما كان هو عليه من الاستجماع الذاتي — قد يكون ذلك عن طريق مدينتنا هذه ، الاسكندرية التي نكرهها اكثر من كل شيء ، وننتمي اليها اكثر من انتمائنا الى اي شيء سواها . وعلى فكرة ، عندي رسالة من بورسواردن يتحدث فيها عن الكتاب الثالث ، وقد حملتها معي بين اوراقي منذ دهور ، كرقية سحريّة . انها تساعدني على استعادة ذكرى الرجل الحية ، وتعيدني انا نفسي إلى الحياة عندما تستولي علي الكآبة المنبثقة من مشكلات عملي الفنيّ . (يجب ان اذهب الى القرية لشراء بعض البيض ، اما رسالة بورسواردن فسأنقلها لك الليلة .)

« وبعد ، هذه هي الرسالة التي تحدثت عنها . انها قاسية ومليئة بالنقد القارص كما قد تصفها ، ولكنها صورة عن صديقنا . لا تأخذ ملاحظاته عنك مأخذ الجد الكبير . لقد كان معجباً بك ومؤمناً بمواهبك — كما قال لي مرة . لعله كان يكذب . على كل . »

فندق جبل الصقور
الاسكندرية

« يا عزيزتي كليا :

لقد كان مفاجأة سارة لي ان اجد كتابك في انتظاري . ايتها القارئة الرحيمة ،

شكراً لك — لا للومك او لمديحك (فالمرء ينكمش من الامرين على التساوي) . ولكن لوجودك الدائم ، حادبة ، مكرسة ، يقظة ، وقارئة حقيقية بين السطور — حيث تكمن المعاني جميعها ! لقد وصلت لتوي مسرعاً من مقهى الاقطار ، بعد ان اصغيت زمناً الى نقاش طويل حول « القصة » اشترك فيه صديقنا « صاحب التقاسيم » وكيتس وبومبال . انهم يتحدثون عن القصة عامة حديثاً اجمالياً ، كأن كل قصة لا تحمل في ذاتها ميزاتها الفريدة الخاصة . هذا الحديث لا معنى له عندي ، كتعميمات بومبال الجارفة عن «Les femmes» فإن العلاقة العائلية ليست هي المهمة في الحقيقة . كان « صاحب التقاسيم » يقول إن التكفير والخطيئة الاصلية اصبحا الموضوعين الرئيسيين لكتّاب القصة اليوم ، وأن الكاتب الحديث .. أف ! لقد هربت ، شاعراً بأني انتمي ، لا الى اليوم ، بل الى ما قبل الأمس ، ونافراً من ان اساعدهم في بناء هذا الخليط الموحل .

(اني متأكد من ان « صاحب التقاسيم » سيكتب رواية بديعة عن الخطيئة الاصليّة ويحصل على الشهرة والاعتبار . وقد شعرت بيأس شديد لفكرة شهرته القادمة حتى اني فكرت في ان اذهب مباشرة الى احد المواخير واعوّض حالاً شعور الخطيئة غير الاصيل عندي . ولكن الوقت كان مبكراً ، وكنت اشعر ، فوق هذا ، بأن رائحة العرق تفوح من جسمي لان النهار كان حاراً . فعدت الى الفندق لاستحم واغيّر قميصي ، ووجدت كتابك . ان في القنّينة بعض الجن ، وبما اني لا أدري اين سأكون فيما بعد ، فقد صمّمت على ان اجلس الآن واجيبك عليه كما يتيسّر لي ، حتى تحين الساعة السادسة وتفتح المواخير ابوابها .

« ان الاسئلة التي تطرحينها عليّ ، يا عزيزتي كليا ، هي نفس الاسئلة التي أوجهها الى نفسي . ويجب أن تكون اشد وضوحاً في عقلي مما هي عليه الآن ، قبل ان اباشر كتابة الكتاب الثالث — فإني اعتزم ان اوفق فيه بين ضروب التوتر التي خلقتها في الكتابين الاولين ، وان احلها واجعلها تنسجم وتتواءم . اشعر باني أود ان انحو نحواً... ايجابياً— لا عن طريق قواعد فلسفية او دينيّة معيّنة. بل

ان النغم الايجابي الجديد يجب ان يكون مرناً كالعنان ، خالياً من الهذر ، كناموس الحب . اود ان انقل شعوري بأن العالم الذي نعيش فيه يرتكز على شيء ابسط من ان يكون قانوناً كونياً — على اساس سهل الفهم كبادرة حنان او رقّة ، الرقّة البسيطة التي نراها في العلاقة البدائية بين الحيوان والنبات ، المطر والتربة ، البذرة والشجرة ، الانسان والله . انها علاقة غاية في النعومة ، حتى انها هشة سرعان ما يحطّمها العقل الباحث والضمير الحيّ ، الذي يمتلك بالطبع حقوقه الخاصة وحقل انتشاره الخاص . انني اود ان أفكّر في انتاجي كمهد يمكن ان تهزّ فيه الفلسفة نفسها الى ان تنام وقد وضعت ابهامها في فمها . فما رأيك في هذا ؟ وبعد ، فهذا ليس فقط اقصى ما نحتاج إليه في هذا العالم ، بل انه ايضاً الشيء الذي يصف منوال العالم ونسق تفاعله الطبيعي المتجرد عن كل شيء آخر . آخر . ابقي صامتة مدة وسوف تشعرين بأنك تدركين بادرة الرقة هذه — انها لا علاقة لها بالقوة او المجد : ولا بالرحمة ، فهذه الصفة ناجمة عن تبذل العقل اليهودي الذي لا يستطيع ان يتخيل الانسان الا جاثياً تحت السوط . لا . ان نوع الرقة التي اعنيها خالية كل الخلو من الرحمة . انها « قانون في حد ذاتها » . وبالطبع ، يجب أن يتذكر الانسان ان الحقيقة نفسها لا تخرج الا مشطورة الى نصفين عندما يتلفّظ بها الانسان . ومع ذلك فإني في هذا الكتاب الاخير يجب ان اؤكد ان هناك متسعاً من الأمل للانسان في حدود قانون بسيط ؛ ولا شك اني اعتقد بأن الجنس البشري يكتسب المعرفة الضرورية بمجرد الانتباه الحثيث ، لا عن طريق العقل والمنطق ، وقد يؤهله هذا يوماً الى ان يعيش في حدود فكرة كهذه — معنى « الحبور غير المحدود » . كيف يمكن للحبور ان يختلف عن هذا ! ان ذلك المخلوق الذي نبحث عنه ، نحن الفنّانين ، لا « يعيش » فنياً ، بقدر ما « يمر » بنا مروراً ، كمرور الزمن نفسه . اف ! لا شك ان التعبير عن هذه الأمور صعب . لعل سر ذلك يكمن في الضحك ، في الله الذي يحب الدعابة ؛ والحقيقة ان البشر المغرقين في الجد هم الذين يقلقون سلام القلب وطمأنينته بتصرفاتهم المضحكة — كجوستين مثلاً . (انتظري ، يجب ان امزج لنفسي

كأساً من الجنّ) .

« أظن انه من الافضل لنا ان نتحاشى هذه الكلمات الفخمة امثال «الجمال» و « الحقيقة » الخ . هل تسمحين بهذا ؟ اننا جميعاً سخفاء وضعاف العقل في مزاولتنا لحياتنا اليومية، ولكنّا عمالقة عندما نحكم على الكون Sufflaminandus erat ان عندي مشكلتين متداخلتين ، مثلك تماماً : فنّي وحياتي . اما في حياتي ، فإني عشوائي وغير حازم ، واما في فني فإني حر في ان اكون تماما كما اود ان ابدو في عيون الناس — انساناً قد يملك القدرة على ان يجلب التصميم والانسجام الى حياة الناس الفانية حوله . ويقيناً اني اود ان احقق ذاتي في الفن — ان اخلع فني ، الذي لا أهمية له على كل حال ، عن نفسي ، كما تخلع الحية جلدها . هذا يفسر رغبة الكتاب في أن يحبهم الناس من اجل انتاجهم لا من اجلهم هم شخصيّاً — اتوافقين ؟ ولكن هذا يفترض وجود نوع جديد من المرأة أيضاً . اين هي ؟

(هذه ، يا عزيزتي كليا ، هي بعض تشويشات صديقك المحيط علماً بكل شيء — رأس لودفيج بورسواردن الكلاسيكي وقلبه الرومانطيقي .)

« اف ! الوقت متأخر جداً وزيت القنديل يكاد ينفد . يجب ان اترك هذا الكتاب الآن ، ولعلني في الغد ، اذا كان مزاجي مناسباً ، اكتب اليك المزيد بعد ابتياع حاجياتي . اما ان لم اشعر بالميل الى ذلك فلن افعل . ايها الحكيم ، اما كان أفضل لو استطعنا ان نتحدث ؟ انني اشعر بأن احاديث برمّتها مرزومة في داخلي ، قابعة هناك لا تنفق ! واعتقد ان الحاجة الى الحديث هي النقص الوحيد الذي يشعر به من يعيش وحيداً ؛ وساطة افكار صديق تقارنها بأفكارك لترى اذا كانت تتلاءم ! ان المتوحدين يصبحون مستبدي الآراء ذوي احكام مطلقة بطبيعة حياتهم . لعل هذا مضر بالابداع . ولكن من يدري ، فلعلنا الآن ضدان متساويان — انت في جزيرتك — التي هي نوع من الاستعارة اشبه بفرن ديكارت ، اليس كذلك ؟ — وأنا في كوخي الاسطوري بين الجبال .

« في الاسبوع الماضي ظهر رجل بين الأشجار ، هو ايضاً رسام ، فبدأ

قلبي يخفق بسرعة وطيش . وشعرت بالميل المفاجىء الى الوقوع في الحب – وعللت ذلك بقولي : « اذا كان الانسان قد اعتزل العالم ورحل الى مكان قصي فيه ، ووجد في ذلك المكان رجلاً ، الا يعني هذا ان ذاك الرجل هو الذي قدر له ان يشاركه وحدته ، وقد جذبته الى هذا المكان قوة لامرئية هي قوة الشوق اللاأناني فكان هو النصيب المقدر لهذا الانسان ؟ ان القلب يحتال على النفس حيلاً خطرة ، لأن رغبته في ان يكون محبوباً تعذّبه باستمرار . ادّعى بالثازار يوماً ان باستطاعته ان يوحي الى شخصين بالتحابّ بواسطة فعل بسيط : هو ان يقول لكل من الشخصين قبل ان يلتقيا ، بأن الآخر يكاد يموت ليلقاه ، وأنه لم ير قط في حياته انساناً جذّاباً مثله الخ . هذه الطريقة ، في رأي بالثازار ، لا تخطىء ابداً كوسيلة للإيحاء بالحب – وقد نجحت دائماً . فما رأيك ؟

« على كل حال ان شكوكي الطبيعية انقذتني من الشاب – انني اعترف بأنه كان وسيماً وذكياً ، وبأنه كان جديراً بأن يفيدني كعاشق مدة صيف واحد ؛ ولكني عندما رأيت رسومه ، شعرت بروحي تشتدّ وتقوى وتنفصل عائدة الى وحدتها مرة اخرى ؛ فقد قرأت في تلك الرسوم شخصيته جميعها كما يقرأ المرء الخطوط او الوجوه . رأيت ضعفاً في الخلق وفقراً في عواطف القلب وقدرة على الاذى . فودّعته حالاً وراح الشاب المسكين يكرر عليّ سؤاله : (هل أتيت ما ازعجك ؟ هل قلت ما نفّرك ؟) ولكن ، بم كان بإمكاني ان جيب ؟ لم يكن بإمكانه محو الاساءة الاّ ان يعيشها وينتهي منها ، ان يرسمها ويستنفدها ؛ ولكن هذا الرأي يفترض ان يعي هو وجودها في اعماقه .

« وعدت الى كوخي واقفلت بابه عليّ وأنا اشعر بالراحة . وجاء الى باب الكوخ وحاول فتحه ، ولكني صرخت : (اذهب). فأطاعني وذهب . ورأيته هذا الصباح يغادر المكان في الباص ، ولكني لم اكلّمه ولم الوّح له مودّعة . بل وجدت نفسي اصفّر بسعادة ، لا ، بل اكاد ارقص فرحاً ، اذ سرت مخترقة الحرج لكي اشتري حاجاتي من البلدة . انه لرائع ان يستطيع الانسان التغلب على نوازع قلبه الغدّار . وعدت الى البيت ، ولم أكد ادوس العتبة ، حتى

تناولت فرشاتي وبدأت رسم اللوحة التي شغلتني هذا الشهر بطوله . كانت جميع الوسائل اليها واضحة ، وجميع العلاقات منسجمة ، وقد انقشع الضباب وتلاشى العائق العجيب . فمن يستطيع ان ينكر ان هذا الانفتاح لا يعود الى صديقنا الرسام ، والى الحب الذي لم يكن ؟ لا ازال اهمهم بنغم اذ اكتب هذه الكلمات اليك ...

« بعد ذلك . وقد اعدت قراءة رسالتك . ترى ما سر استمرارك في الحديث على هذا المنوال عن موت بورسواردن ؟ انك تحيرني ، فهذا الاسترسال يبدو لي مبتذلاً ، فلا انت ولا أنا ، نملك القدرة على اداء حكمنا على موته . وكل ما نستطيع قولــه هو ان فنه يخترق الحاجز . امّا بــاقي شؤونه فإنها ملكــه الشخصي الخاص . وعلينا ان نحترم اموره الخاصة وان نساعده على حمايتها من عديمي المشاعر . انها اسراره الشخصية ، فنحن لم نرَ فيه الا القناع البشري الذي يتقنّع به الفنّان (كما في شخصية ذاك الشهواني المنغمس في الشهوات ، بار العجوز ، التي رسمها في كتابه الثاني — فقد ظهر في النهاية انه هو الذي رسم لوحة العشاء الأخير التي كانت مصدر جدل كبير — أتذكر ؟)

« بنفس الاسلوب حمل معه بورسواردن الى القبر اسرار حياته اليومية ، ولم يترك لنا الا كتبه لنتأمّلها وندهش لها ، والا العبارة التذكارية على قبره لنتحيّر في معناها . « هنا ينام متطفل من الشرق . »

« لا ، لا . لا يمكن اختراق سر موت الفنان واكتناه الغازه . ولا يسع المرء الا ان يبتسم ويحني رأسه .

« أما عن سكوبي فأنت محق فيما تقوله عنه. لقد اسفت جداً عندما اخبرني بالثازار انه قد وقع على الدرج في قسم الشرطة المركزي ، وقُتل على الفور . نعم ، لقد اخذت ببغاءه التي سكنتها روح الشيخ مدة طويلة بعد وفاته . وكانت تقلد صوته عندما كان يستفيق في الصباح ويغني قطعة من اغنية : — « Taisez vous, petit babouin » (هل تذكر ؟) — وكانت تقلد أيضاً صوت قرقعة عظامه عندما ينهض من الفراش ، ولكن الذكرى تلاشت بالتدريج ، كاسطوانــة

قديمة ، واصبحت البغاء لا تردد الاغنية الا نادراً وبثقة أضعف في النفس . وكان هذا اشبه بسكوبي نفسه الذي سار بالتدريج نحو صمت الموت وموت الذكرى : واعتقد ان الانسان يموت على هذا النسق بالنسبة الى اصحابه والى العالم ، ويتلاشى من ذاكرتهم كنغمة رقص قديمة او كحديث رائع مع فيلسوف تحت شجرة كرز . انه يعود الى السكون الذي تنبع منه حياة الانسان في الاصل . وهكذا . وبعد زمن هزل الطير نفسه ومات ورأسه تحت جناحيه . لقد اسفت كثيراً بالرغم من ارتياحي لموته .

« أمّا بالنسبة الينا ، نحن الاحياء، فإن المشكلة من نوع مختلف كل الاختلاف: كيف نسخّر الزمن لتنمية اسلوب لمشاعر القلب — شيء من هذا القبيل . انني احاول التعبير عنه فقط . المهم هو ان لا نستعجل الزمن ، كما يفعل الضعفاء ، فان ذلك يؤذي المرء ، بل ان نستجمع ايقاعات الزمن ونسخرها لاستعمالنا الخاص . كان بورسواردن يقول : (أعطنا ، يارب ، نحن الفنّانين ، التصميم ولباقة التصرّف) . انني اوافق على هذا الدعاء من اعماق قلبي واقول (آمين) .

« لا بد انك قد انتهيت من كل هذا الى انني اصبحت امرأة سليطة ذات آراء مقررة . لعل هذا حقيقيّ . ولكن ما اهمية ذلك اذا استطاع المرء أن يبلور ولو فكرة واحدة في عقله ويؤدّي معناها الحقيقي ؟

« لم يعد امامنا متسعٌ من الوقت ؛ فإن الاخبار من اوروبا تزداد سوءاً يوماً بعد يوم — واني اشعر بأن الجو يحمل صبغة خريفيّة — كأن الامور تسير الى مستقبل لا يمكن التكهّن به. وجنباً الى جنب مع هذا الشعور احسّ بالخيوط تضيق وتشدّ علينا لتجرّنا ببطء مرة اخرى إلى وسط المسرح . واين يمكن ان يكون هذا المسرح ان لم يكن في الاسكندرية ؟ ولكن من يدري ؟ لعلنا سنجدها مدينةً جديدة ، تختلف عن تلك التي فرضت نفسها على احلامنا كل هـــذه السنوات . انني اود ان اعتقد هذا ، فإن المدينة القديمة، وكل ما تمثّله وترمز إليه ، عادت خالية من المعنى ، ان لم تكن قد ماتت واندثرت ، بالنسبة الى شخصيتي الجديدة . ولعلك انت ايضاً قد تغيّرت مثلي . ولعلّ كتابك نفسه قد تغير . وقد

تكون انت في حاجة الى ان ترى المدينة مرة اخرى اكثر منا جميعاً ، وان ترانا نحن ايضاً مرة اخرى . اما نحن ، فمن جهتنا ايضاً ، نشعر بالحاجة الى رؤيتك والى احياء الصداقة التي نأمل انك تضمرها لنا — هذا اذا كان باستطاعة الكاتب ان يكون مجرد صديق (لشخصيّاته) . انني اقول (نحن) ، بالاسلوب الملوكي الفخم ، كأنني ملكة — ولكنك لا شك تدرك انني اعني كلاً من كليا القديمة وكليا الجديدة — فان كلتيهما بحاجة اليك في مستقبل آمل ان ... »

وقد كتبت بضعة اسطر أخرى ، ثم التحية الودودة .

معلومــات لاحقة

بعض الملحظوظات التي دوّنها كيتس بطريقة الاختزال ، مسجلاً فيها بعض التعليقات العرضية العابرة التي كان يتفوه بها بورسواردن هنا وهناك :

ـ أ ـ

اعرف ان نثري خليط عجيب . ولكنّ جميع النثر المنتمي الى الاستمراريّة الشعرية كذلك ؛ والمقصود به هو اظهار نواحي الشخصية الثلاث . ان الحوادث لا تقع بشكل تتابعي ، ولكنّها تتجمّع هنا وهناك ككميّة . كالحياة الواقعية » .

ـ ب ـ

« ان نسيماً لا يمتلك الموارد التي نمتلكها نحن ، الانجلوساكسونيين ؛ فإنجميع نسائنا ممرضات في اعماق قلوبهنّ . وما على الرجل الذي يود ان يضمن تفاني امرأة انجلوساكسونية في حبه مدى الحياة ، الا ان يصاب بحادث تقطع عـلى اثره ساقه الى ما فوق الخصر . لقد كنت دائماً اعتبر « الليدي تشاترلي » ضعيفة من هذه الناحية في رمزيّتها . فان مرض كليفورد كان خليقاً بأن يكتسب تفاني زوجته في حبه وحدبها عليه . لعل الانجلوساكسونيين لا يعبأون بالحب كما يعبأ به الاوروبيّون ، ولكنهم يستطيعون ان يصابوا بامراضهم . ومن الجدير بالذكر ان لافورج كان يخاطب حبيبته الانجليزية كيت يوم صرخ قائلاً : « Une garde - malade pour l'amour de l'art ! » كان قد تبيّن الممرّضــة الكامنة فيها . »

— ج —

« ان الكلاسيكيّ في الفن هو ما يسير متعمّداً مع (كونيّة) العصر .

— د —

« اذا ما فرضت الدولة الدين او المعتقدات الميتافيزيقية على الناس ، فيجب مقاومة هذه الارغام بحد السيف . وعلينا ان كافحنا من اجل شيء ، ان نكافح لنحصل على التنوّع . ان التماثل بليد ومملّ كبيضة منحوتة . »

— هـ —

عن داكابو : « المقامرون والعشاق إنما يلعبون ليخسروا »

— و —

« الفن كالحياة سرٌّ مفتوح » .

— ز —

« العلم شاعرية العقل المفكر . والشعر علم مودة القلب . »

— ح —

« الحقيقة مستقلة عن الواقع . وهي لا تعبأ اذا ما برهن على عكسها ؛ لانها تجرد من فحواها بمجرد التفوه بها » .

— ط —

« انني احب طريقة الفرنسيين في تجليد كتبهم بأن يتركوا الصفحات غير مقصوصة . فلست اود ان يكون قارئي اكسل من أن يستعمل السكّين معي . »

— ي —

عبارة في كتاب شعر : « انه كتاب يتناوله المرأ ويقرأ فيه من وقت الى آخر ؛ ثم يسمح له بأن يذوب في عقله . »

— ك —

« يجب ان ندافع دائماً عن افلاطون امام ارسطو ، وعن ارسطو امام أفلاطون . ذلك لانهما ، اذا انفصلا طويلاً ضعنا نحن . فإنّ ثنائية النفس انجبت كليهما . »

— ل —

كانت صورة القرون الوسطى عن العالم مؤلفة من ثلاثة أبعاد : العالم والجسد والشيطان (كل منها تستحق كتاباً) ، فأضفنا اليها نحن المحدثين بعداً رابعاً — الزمن .

— م —

« جهاز جديد للنقد : « le roman biftek, guignol or cafard »

— ن —

« ان خرائب اوروبا الحقيقيّة ، هي رجالها العظماء . »

— س —

« لقد آمنت دائماً بجعل قارئي يغرق أو يطفو على السطح . »

— ع —

قال لدى قراءته مراجعة لكتابه « الله يحب الدعابة » : « يا الهي ! لقد بدأوا يحملونني محمل الجد . ان هذا يفرض عليّ حملاً فظيعاً . يجب ان اضاعف ضحكي . »

— ف —

« لماذا اقتبس دائماً عبارات من دوساد ؟ لأنه يمثل العقل الخالص — عصور العقل الحلو التي عاشتها اوروبا منذ ديكارت . انه آخر زهرات العقل ، والمثل الصادق للمسلك الاوروبي . ارجو ان اعيش لاراه مترجماً الى الصينيّة . ان كتبه خليقة بأن تقوّض البيت ، وان يقرأها الناس كدعابة خالصة ؛ ولكن روحه قد قوّضت البيت بالفعل حول رؤوسنا . »

— ص —

« اوروبا : مؤمنة منطقية بالفلسفة اليقينيّة تحاول أن تبرهن لنفسها بالاستدلال المنطقي انها موجودة . »

— ق —

« اهدافي في الرواية ! هي ان احاول كشف معرفة القيم الانسانية عن طريق التصوير الصادق لأهواء الانسان وعواطفه . انها غاية تشتاقها النفس ، ولكن لعلها هدف لا أمل فيه . »

— ر —

« ان اقل نقادي رقة يؤكدون بأني اصنع مظلات للمصابيح من جلد البشر . وهذا يحيّرني . فلعل في أعماق النفس الانجلوساكسونية صوتاً صغيراً يهمس الى الابد : « Is this Quaite Naice ? » . ويبدو أن كتبي لا تنجح في الامتحان مطلقاً .

رؤوس اقـــلام

سؤال وجهته كليا : « ترى كم عاشقاً منذ ايام بيجماليون استطاع ان يصنع انف حبيبته من اللحم كما فعل اماريل ؟ » مجموعة الانوف التي رسمتها له ايد محبّة ناقلة اياها عن انوف عشرات الجميلات من نفرتيتي الى كليوبطرة . القراءة في غرفة غُمّ نورها .

* * *

لقد احتفظ نروز في اعماق وعيه بذكرى غرفة شع فيها ضياء القمر ، وابوه جالس الى كرسي العجلات ازاء المرآة وقد راح يردد مرة بعد مرة تلك العبارة الواحدة ، بينما كان مصوباً مسدسه الى المرآة .

* * *

لقد هزت ماونت اوليف فكرة وهمية خطرة ، وهي انـــه يستطيع الآن ان يكوّن لـــه رأياً وأن يفعل — وهذا هو الخطـــأ الوحيد الذي يقرر مصير الدبلوماسي .

* * *

قال نسيم بحزنه : « ان كل دافع مختلط دائماً . فمن لحظة تزوجتها ، تلك

اليهودية ، اختفى كل تحفظهم ، واقلعوا عن الشك بي . لست ادعي ان هذا هو السبب الوحيد . ان الحب نبات مترف ، ولكنه لا ينتمي الى نوع معين ابداً — فهو قد يذوب في الصوفـــية من جهة ، او في الشهوة العارية من جهة اخرى .

* * *

وهذا يفسر الآن شيئاً يحيرني حتى هذه الساعة وهو ان مكتبة داكابو الضخمة نقلت بعد موته الى ازمير كتاباً فكتاباً . كان بالثازار هو الذي رزم الكتب وارسلها بالبريد .

طبع في لبنان — مطابع دار الكتب

رواية

« بالثازار »

هذه ، هي الثانية من الروايات الأربع التي تؤلف هذه الرباعية الفذة الشهيرة . أما الروايات الثلاث الأخرى فهي : « جوستين » و « ماونت أوليف » و « كليا » .

عاش القارىء مع « داريل » ، مؤلف رباعية الاسكندرية ، في القسم الأول منها ، « جوستين » ، حقبةً من تاريخ الاسكندرية الحديث عمل فيها فن « داريل » الفذ ، فإذا بها تتشابك بين القديم والحديث ، لترسم لنا في أروع تعبير ، عالماً هيمن عليه الحب والغزل ، والهوى والغيرة ، والأحاسيس النادرة لأبطال نادرين ، ولكنهم يعيشون بين ظهرانينا ؛ وذلك عبر حبكة قصصية تأخذ على القارىء أنفاسه من دفة الكتاب إلى دفته .

ويتسامى فن « داريل » في روايته الثانية « بالثازار » هذه ، فإذا بـه يزيح الستار عن وقائع الرواية الأولى « جوستين » ، على لسان بطله « بالثازار » حتى لتبدو لنا ، مع انفتاحات جديدة واسعة ، قصةً مغايرة للأولى ، تفوقها رهافة حس وإثارة .

وليس لكلمات قلائل مثل هذه أن تتمكن من التدليل عـلى نتاج داريل أو إيضاحه ؛ إن قراءة الكتاب وحدها كفيلة بذلك . يكفي أن نذكر قول بعض النقاد العالميين الذين كتب أحدهم في « التيمز » يقول :

« إذا كان من نتاج يحمل التوقيع المدلّل الفوري عليه في كل جملة منه ، فهو هذه القصة ! إنها عمل جبار ورائع ! إن الجهود التي بذلت لتأليفها ، لتتسامى عبر
كل مكان وزمان لتستوي في عالم فريد ،
هو عالمها وحدها » .



الثمن
٤٠٠ ق . ل .
٤٧٥ ق . س .

منشورات دار الطليعة - بيروت